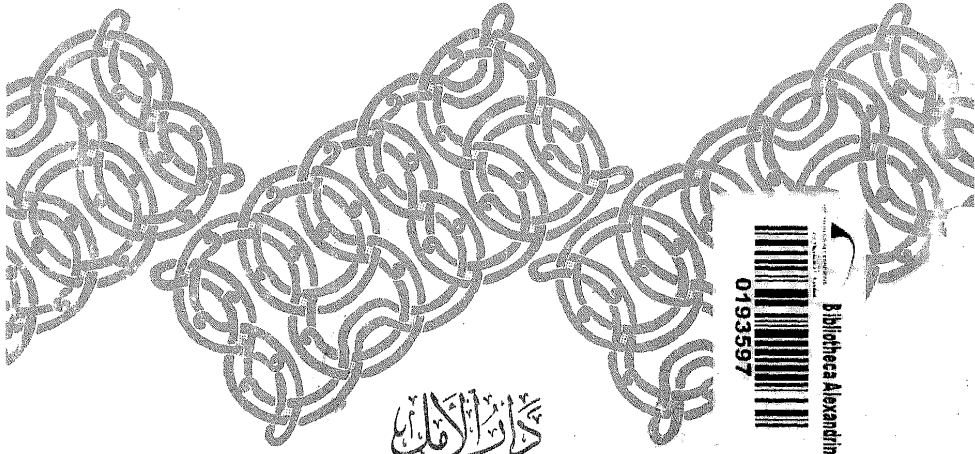


# أصول التربية

في ضوء المدارس الفكرية  
الإسلامية وفكرها

السيد الدكتور  
حسن الحيارى



دار الأمل  
للنشر والتوزيع



اصول التربية في ضوء

المدارس الفكرية

اسلامياً - وفلسفياً

السيد الدكتور

حسن الحباري

دار الأمل

حقوق الطبع محفوظة

للمؤلف

١٤١٣هـ - ١٩٩٣م

١٨٩

حسن أحمد الحيارى  
أصول التربية في ضوء المدارس الفكرية / حسن أحمد

الحيارى .- إريد: دار الأمل، ١٩٩٣

(٣١٢)ص

ر.أ (١٩٩٣/٦/٥٥٧)

١- الفلسفة الإسلامية أ- العنوان

(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار الأمل  
للنشر والتوزيع

تلفون (٢٧٦١٧٤) - ص . ب (٤٦٩)

## بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى

– إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى  
أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا  
بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ  
كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ  
مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى  
اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أَلَمْ تَرَ إِلَى  
الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا  
أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى  
الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ  
الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ  
لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَالِى الرَّسُولِ  
رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا –

النساء « ٥٩ – ٦١ » .

## - دعا -

اللَّهُمَّ إِنَّ الظَّالِمَةَ جَدُّوا آيَاتِكَ، وَكَفَرُوا  
بِكُنَائِكَ، وَكَذَّبُوا رُسُلَكَ، وَاسْتَنَكَفُوا عَنْ  
عِبَادَتِكَ، وَرَغَبُوا عَنْ مِلَّةِ خَلِيلِكَ، وَبَدَّلُوا مَا جَاءَ  
بِهِمْ رَسُولُكَ، وَشَرَعُوا غَيْرَ دِينِكَ، وَاقْتَدُوا بِغَيْرِ  
هُدَاكَ، وَاسْتَنُوا بِغَيْرِ سُنَّتِكَ، وَتَعَدَّوا حُدُودَكَ،  
وَسَعَوْا مُعَاجِزِينَ فِي آيَاتِكَ، وَتَعَاوَنُوا عَلَى  
إِطْفَاءِ نُورِكَ، وَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِكَ، وَكَفَرُوا  
نِعْمَاتِكَ، وَشَاقُّوْا وِلَاةَ أَمْرِكَ، وَوَالَوْا أَعْدَاءَكَ،  
وَعَادَوْا أَوْلِيَاءَكَ، وَعَرَفُوا نِعْمَتَكَ وَلَمْ يَذْكُرُوا  
آلَاءَكَ، وَأَمْنُوا مَكْرَكَ، وَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ عَنْ  
ذِكْرِكَ، وَاسْتَحَلُّوا حَرَامَكَ، وَحَرَّمُوا حَلَالَكَ.

اللَّهُمَّ اكْفُفْ بِأَسْهَمِ، وَافْلُلْ حَدَّهُمْ، وَأَوْهِنِ  
كَيْدَهُمْ، وَأَشْمِتْ عَدُوَّهُمْ، وَأَشْفِ صُدُورَ  
الْمُؤْمِنِينَ. اللَّهُمَّ انْتَهَمِ أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ،  
وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ، وَعَمَلُوا السَّيِّئَاتِ. اللَّهُمَّ  
مُخْذِمْ بِالْبَلِيَّاتِ، وَأَحْلِلْ بِهِمُ الْوَيْلَاتِ، وَأَرْهِمْ  
الْحَسْرَاتِ يَا اللَّهُ يَا إِلَهَ الْأَرْضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ.  
اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ، وَارْحَمْنَا  
بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

الصحيفة السجادية

"الإمام علي بن الحسين عليهما السلام"

## المقدمة

لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يخلق الانس والجن دون سائر المخلوقات لعبادته تشريعاً وليس تكويناً مثل بقية مخلوقاته. لذلك وهب الانسان حرية الاختيار في تحديد معتقداته وافكاره بعد ان بين له سبحانه وتعالى سبيل الحق وطرق الضلالة عن طريق كتبه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. ان هذا الخلق التشريعي للانسان جعله يتميز عن سائر المخلوقات بعدة صفات منها؛ فطرة الانسان على دين التوحيد، وحرية الاختيار بين طريق الخير وبين طرق الشر، وحب الشهوات، وتركيب الانسان وما يحتوي عليه من جانبي الفجور والتقوى، وتقرير الاختبار على الانسان في الحياة الدنيا، والمثول للحساب في اليوم الآخر بناء على ما قدم الانسان لنفسه في الحياة الدنيا.

وبناء على رحمة الباري عز وجل وتلطفه بالانسان فانه لم يكل الانسان لقدراته المحدودة في الوصول الى سدرة الصواب في هذا الوجود والتصدي لعدوه اللدود ابليس والتحرر من احابيله وتسويلاته، فإنه بعث للانسان رسالة الاسلام عن طريق الانبياء والرسل هدى ورحمة للناس في الدنيا والآخرة. ولقد نادى بهذه الرسالة الانبياء والرسل كافة على مدار التاريخ البشري، فما وجدوا من اقوامهم إلا الانكار، والتكذيب، والتشريد، واثارة الشكوك والاقاويل الهابطة، هذا بجانب السخرية والاستهزاء بهم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. وقد شاءت حكمته جل وتعالى شأنه ان يختم رسالته ويتم نعمته على الناس على

يد خاتم الانبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم، ومن شدة لطفه وترحمه على الناس سبحانه وتعالى انه وعد بحفظ هذه الرسالة الغراء من ان تنال منها ايدي العابثين والمتأبطين شراً.

وقد استطاعت الامة الاسلامية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ان ترقى الى قمة القمم بين سائر الامم عندما سارت في ضوء رسالة الاسلام الوضاعة وهي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ولكن عندما ابتعد الناس بالتدريج عن اتباع الهدى الاسلامي المنير مؤثرين بذلك اتباع شهواتهم ورغبات اسيادهم، وما رافق ذلك الانحراف من تأويلات جائرة للنصوص القرآنية الكريمة وسياسة الدس والوضع في الاحاديث النبوية الشريفة من قبل فقهاء السلاطين ومن وشجت عروقه على طريقتهم، حتى وصلنا الى المستوى الهابط الذي نعيشه في هذه الايام. فإذا ما تأملنا المجتمعات التي تعلن عن ذاتها امام المجتمع الدولي انها اسلامية فإننا نجد قمة التناقضات الفكرية مستقرة في اذهان الناس، هذا بجانب الانقسام الحاد بين الافكار التي تلوكها الالسن والانماط السلوكية في شتى مناحي الحياة. اصف الى ذلك المخالفات الصريحة للمبادئ الاسلامية الاساسية في جميع القضايا الحياتية. مما ادى الى تشويه صورة الاسلام ومبادئه في اذهان الناس على المستويين المحلي والدولي ظناً من الناس كافة ان ما يرونه في هذه المجتمعات المتخلفة يمثل حقيقة الاسلام وانعكاساً لتعليماته. والحق ان جميع ما يجري في هذه المجتمعات لا يمثل حقيقة الاسلام ومبادئه. فالاسلام يأمر بالعدل، وازالة الظلم، والمساواة، واطلاق الحريات، والاخاء، والتعاون، وعدم الاستغلال، وتحريم

الربا، وعدم الغش، والابتعاد عن الفتنة والنميمة، ويأمر بالصدق وينهى عن الكذب، ويأمر بالامانة والابتعاد عن شهادة الزور، ويدعو الى التماسك والوحدة وينهى عن التفتت والفرقة، ويأمر بالاخلاص والولاء واتقان العمل. فأين المجتمعات الاسلامية وما يجرى فيها عن هذه الاخلاق الكريمة التي أمر الاسلام بها؟

ان حقيقة هذه المجتمعات وما يجري فيها يكمن في انها اصبحت مستودعاً تصب فيه الشهوات الفردية وانعكاساتها التأويلية والسلوكية، وانتشار الافكار الفلسفية المتضادة ذاتياً من جهة ومع تعليمات الاسلام من جهة أخرى. هذا بجانب الغزو الثقافي الحالي لتلك المجتمعات وما صاحبه من شعارات قومية واقليلية زادت في إثارة الزوابع الفكرية وانتشار الخلل والتناقض في الانماط السلوكية داخل المجتمع الواحد.

لقد جاء هذا الكتاب بنصوله الثمانية لبيّن للقارئ العزيز كيف تكون التربية واصولها الاساسية تنبثق من المبادئ الفكرية التي تميز مجتمعاً عن آخر في وقت تعيش فيه اغلب المجتمعات الاسلامية بلا هوية سواء على المستوى الايدولوجي او المستوى التربوي، راجياً الباري عز وجل ان يكون في هذا الكتاب من الخير ما يساعد أمتي في النهوض من سباتها العميق والعودة الصادقة الى النهج الذي جعل منها في السابق خير أمة اخرجت للناس.

والله ولي التوفيق

السيد الدكتور حسن الحيارى

جـ



## رقم الصفحة

## المحتويات

### - المقدمة

٢٩ - ١	الفصل الأول : - الأبعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا
٢	- مقدمة
٥	- المفهوم الاسلامي للحياة الدنيا
١٧	- الحياة الدنيا في ضوء المدارس الفكرية البشرية
٢٠	١ - الفلسفة الطبيعية
٢١	٢ - الفلسفة المثالية
٢٢	٣ - الفلسفة الواقعية
٢٢	٤ - الفلسفة النفعية ، البرجماتية
٢٣	٥ - الفلسفة الوجودية
٢٣	٦ - الفلسفة الشيوعية
٢٨	- المراجع العربية
٢٩	- المراجع الأجنبية
٥٣ - ٣٠	الفصل الثاني : - حقيقة النفس الانسانية
٣٢	- المقدمة
٣٢	- آراء الفلاسفة والعلماء حول النفس الانسانية
٤٠	- النفس في ضوء القرآن الكريم
٤١	- المبدأ الأول : خلق النفس
٤٢	- المبدأ الثاني : النفس وحرية الاختيار
٤٣	- المبدأ الثالث : النفس وتكليف الحق لها
٤٤	- المبدأ الرابع : النفس والموت
٤٥	- المبدأ الخامس : المثل أمام الحق سبحانه وتعالى
٤٧	- المبدأ السادس : النفس والثواب والعقاب
٤٨	- المبدأ السابع : النفس والقضايا الغيبية
٤٨	- المبدأ الثامن : النفس والحفظة الملازمون لها
٤٩	- المبدأ التاسع : أنواع النفس الانسانية
٥٠	- المبدأ العاشر والأخير : نماذج من الآيات القرآنية
٥٢	- المراجع

## الفصل الثالث: طبيعة الذات الانسانية ومكوناتها ٥٤ - ٨٨

- ٥٦ - المقدمة
- ٥٧ - الدراسات الانسانية للانسان
- ٦٦ - طبيعة النفس الانسانية وتكوينها في ضوء القرآن الكريم
- ٦٦ - القضية الأولى : خلق الانسان
- ٧١ - القضية الثانية : الذات الانسانية والهدف من خلقها
- ٧١ - القضية الثالثة : الذات الانسانية والخطرة
- ٧٢ - القضية الرابعة : الذات الانسانية وجانبها الخير والشر
- ٧٣ - القضية الخامسة : الذات الانسانية وحرية الاختيار
- ٧٣ - القضية السادسة : حالات الذات الانسانية اعتقاداً وسلوكاً
- ٧٤ - القضية السابعة : الذات الانسانية وقدراتها الذاتية
- ٨٢ - القضية الثامنة : الذات الانسانية وحب الشهوات
- ٨٣ - القضية التاسعة : الذات الانسانية والموت
- ٨٣ - القضية العاشرة والأخيرة : الذات الانسانية والبعث والخلود
- ٨٤ - المراجع العربية
- ٨٦ - المراجع الأجنبية

## الفصل الرابع: العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان ٨٩ - ١٢٥

- ٩١ - مقدمة
- ٩١ - أهمية الدراسة
- ٩٢ - الدراسات السابقة
- ٩٩ - هدف الدراسة
- ٩٩ - أسئلة الدراسة
- ٩٩ - محددات الدراسة
- ١٠٠ - المشيئة الالهية
- ١٠٢ - علم الله
- ١٠٨ - الانسان وحرية الاختيار
- ١١١ - المسألة الأولى
- ١١٢ - المسألة الثانية
- ١١٢ - المسألة الثالثة
- ١١٣ - المسألة الرابعة

١١٥	- المسألة الخامسة
١١٦	- المسألة السادسة
١١٧	- المسألة السابعة
١٢٢	- المسألة الثامنة والأخيرة
١٢٣	- نتائج الدراسة
١٢٥	- المراجع
١٢٧ - ١٤٦	الفصل الخامس: - الحكمة
١٢٩	- المقدمة
١٢٩	- تعريف الحكمة
١٣٠	- أنواع الحكمة
١٣٢	- أهمية الحكمة
١٣٤	- العلم والحكمة
١٤٢	- الحكمة والدعوة
١٤٥	- الخلاصة
١٤٦	- المراجع
١٤٧ - ٢٢٢	الفصل السادس: - الاسلام والقومية
١٤٩	- المقدمة
١٥١	- حقيقة الاسلام
١٥٤	- الدليل الأول
١٥٥	- الدليل الثاني
١٥٥	- الدليل الثالث
١٥٥	- الدليل الرابع
١٥٦	- الدليل الخامس
١٥٦	- الدليل السادس
١٥٧	- الدليل السابع
١٥٧	- الدليل الثامن
١٥٨	- الدليل التاسع
١٥٩	- الدليل العاشر
١٧٤	- القومية
١٨١	- الاسلام وعلاقته بالقومية
٢٢١	- المراجع

## الفصل السابع: - الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية ٢٢٣ - ٢٥١

- ٢٢٥ - مقدمة
- ٢٢٥ - ماهية التربية وغرضها
- ٢٢٨ - فلسفة التربية
- ٢٣١ - المدارس الفكرية والفلسفية للتربية
- ٢٣٢ (١) التربية في ضوء الفلسفة الطبيعية
- ٢٣٣ (٢) التربية في ضوء الفلسفة المثالية
- ٢٣٤ (٣) التربية في ضوء الفلسفة الواقعية
- ٢٣٥ (٤) التربية في ضوء الفلسفة الوجودية
- ٢٣٦ (٥) التربية في ضوء الفلسفة البراجماتية
- ٢٣٧ (٦) التربية في ضوء الفلسفة الشيوعية
- ٢٣٨ (٧) التربية في ضوء النهج الاسلامي
- ٢٤٧ - أهداف التربية
- ٢٤٩ - المراجع العربية
- ٢٥١ - المراجع الأجنبية

## الفصل الثامن: - الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة ٢٥٢ - ٢٩٢

- ٢٥٤ - مقدمة
- ٢٥٤ - الانسان والإدارة
- ٢٥٥ - هدف الدراسة
- ٢٥٥ - أسلوب الدراسة
- ٢٥٦ - الادارة في ضوء الفكر الانساني
- ٢٦٠ - نظرية الادارة العلمية
- ٢٦١ - نظرية X ونظرية Y
- ٢٦١ - افتراضات نظرية X
- ٢٦١ - افتراضات نظرية Y
- ٢٦٢ - نظرية الحاجات الانسانية
- ٢٦٢ - نظرية هيرزبرج
- ٢٦٣ - نظرية ERG
- ٢٦٤ - نظرية المساواة
- ٢٦٥ - ١ - الاسلوب العلمي في الادارة
- ٢٦٧ - ٢ - الاسلوب الانساني
- ٢٦٩ - ٣ - اسلوب الادارة بواسطة الاهداف

٢٧٢	٤ - اسلوب تخطيط البرامج وتحديد ميزانيتها pp bs
٢٧٢	٥ - الاسلوب الدكتاتوري في الادارة
٢٧٢	٦ - الاسلوب الديمقراطي في الادارة
٢٧٣	- الادارة في ضوء الفكر الاسلامي
٢٨١	- الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي
٢٨٦	- نتائج الدراسة
٢٩٠	- المراجع العربية
٢٩١	- المراجع الأجنبية

الفصل الأول

الأبعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

## الابعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

منذ اللحظة الأولى التي وجد الإنسان فيها نفسه على هذا الكوكب ذهب لبحث عن حقيقة وجوده وما يتصل به من حقائق توضح له حقيقة الحياة. وقد هدفت هذه الدراسة لتوضيح المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا وذلك عن طريق طرح جميع الأسس والمبادئ الفكرية التي استطاع أن يصوغها الإنسان وفق ما توصل إليه من تأمل، وتفكير، وبحث حول الحياة الدنيا.

كما بينا قول الحق سبحانه وتعالى حول حقيقة الحياة الدنيا، فقد تبين أن هناك مفهومين متضادين للحياة الدنيا. ففي الوقت الذي اعتقد فيه الإنسان أن الحياة الدنيا تشكل نهاية، طموحاته، وأهدافه، ومبلغ علمه، نجد أن الحق سبحانه وتعالى بين حقيقة الدنيا على أنها دار اختبار وفناء، كما أنها تعد مقدمة للحياة الأخرى. وهذا ما توصلت إليه هذه الدراسة.

## الابعاد الفكرية لمفهوم الحياة الدنيا

مقدمة : -

تعد الحياة الدنيا وما يتصل بها من أسرار من أهم الأمور التي شغلت الإنسان عبر تاريخه. فقد شغلته وهو في طوره البدائي كما شدد انتباهه بشكل قوي وكبير وهو يقوم بنسج تاريخه الحضاري، وما تزال تشغله وتجذب اهتماماته في هذه المرحلة المادية التي تشكل أوج حضارته الإنسانية. وستبقى الحياة الدنيا وأسرارها محطة أنظار الباحثين والعلماء في مختلف اهتماماتهم الفكرية وتخصصاتهم العلمية حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها. هذا بجانب اهتمام الإنسان العادي بهذه المعضلات التي تلف حقيقة الحياة الدنيا لما لها من آثار واسعة النطاق على مجريات أمور الحياتية وتطلعاته المصيرية.

لقد حاول الإنسان الوصول إلى لباب القضايا المهمة التي شغلته منذ فجر تاريخه عن طريق العقل الإنساني بعد أن صدف عن النهج الإلهي الذي أرسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس أجمعين. وهذا التوجه الإنساني نحو التعرف إلى أسرار الوجود بالاعتماد الكلي على العقل الإنساني أطلق عليه الفكر الفلسفي. ومن أبرز الفلسفات التي كان لها تأثيرها العميق في تشكيل المفاهيم والمعتقدات الإنسانية حول الحياة الدنيا وأسرارها الفلسفة اليونانية.

وقد استطاع الإنسان عبر تاريخه الطويل أن يكون عدة مفاهيم ومعتقدات حول الحياة الدنيا وما يتصل بها من أسرار. وقد تتفق بعض هذه المفاهيم والمعتقدات مع بعض في عدة جوانب وتختلف في جوانب أخرى. وهذا يعود إلى مصادر المعرفة التي قصدها الإنسان للوصول إلى تصور دقيق لمفهوم الحياة الدنيا. هذا بجانب الاهتمامات الذاتية والشهوية للإنسان في مختلف مراحل وجوده الذاتي عبر التاريخ ومدى تأثيرها عليه وهو يسعى جاهدا للوصول إلى حقيقة الحياة الدنيا.

وقد اتجه الإنسان منذ فجر تاريخه حتى يومنا هذا للبحث في بعض القضايا الأساسية التي تقوده بدورها إلى تشكيل مفهوم خاص بالحياة الدنيا. ومن أهم القضايا التي طرقتها الإنسان بحثا، وتحليلا، وتأملا: فكرة الألوهية، وطبيعة الكون، وحقيقة الموت، والبعث والخلود، وطبيعة الذات الإنسانية، ومكانة الإنسان في



الكون، والخير والشر، وعلاقة الفرد بالجماعة.

وقد اختلفت الآراء البشرية في هذه القضايا الأساسية بشكل واسع مما أدى إلى تكون فلسفات متعددة ومذاهب فكرية نتج عنها تشكيل تجمعات إنسانية فكرية لكل منها تصور لها الخاص للحياة الدنيا في ضوء مفهومها للقضايا الأساسية السالفة الذكر. لذلك أمسى لكل تجمع إنساني من هذه التجمعات الفكرية عقائده، ومثله، وعاداته، وأهدافه التي يسعى إلى تحقيقها جميعاً من خلال تربية أبناء المجتمع الواحد وفق إصارهم الفكري العام للحياة الدنيا.

ولكن الحق سبحانه وتعالى بحكمته، وعزته، وجلاله، وتلطفه بعباده، ومعرفته التامة الدقيقة للإنسان وما جسد فيه من قدرات محدودة لا تمكنه من الوصول إلى سدرة الصواب في تلك الأمور الأساسية التي شدت انتباهه عبر تاريخه، فقد وعد الله الإنسان أن يبعث له الحق المبين الذي ينطق بكل ما يحتاجه من أمور وقضايا أساسية تنير له أسس التفكير والاعتقاد السليم للمعضلات كافة التي لا يستطيع الإنسان بقدراته المحدودة أن يسبر غورها ويصل إلى مكنوناتها لأنها خارج طوق وسائله وقدراته. وقد اختار الحق سبحانه وتعالى أصفياءه من البشر من أنبياء ورسلاً لتبليغ هذا الحق البشير، أساس الهداية والرشد إلى الإنسان في عدة حقب من تاريخه لكي لا يكون للإنسان على الله حجة يوم المثل أمام الحق سبحانه وتعالى. وقد بدأ هذا النور في الوصول إلى الإنسان ليضيء له السبل كافة والقضايا التي يحتاجها منذ سيدنا نوح عليه السلام، واكتمل هذا النور المبين بخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وآله وسلم.

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نقر أن هناك مفهومين أساسيين للحياة الدنيا، فالمفهوم الأول يمثل ما وضعه لنا الحق سبحانه وتعالى عن طريق الأنبياء والرسل وما صاحبهم من كتب سماوية. أما المفهوم الآخر فتتمثله الآراء كافة المتعددة التي وصل إليها الإنسان عن طريق بحوثه، وتأملاته حول الحياة الدنيا وما يتعلق بها من أسرار ومكنونات. وسوف نبين في هذه الدراسة كلا المفهومين للحياة الدنيا مبتدئين بالمفهوم الإسلامي لأنه لازم الإنسان منذ بداية وجوده على هذا الكوكب. ويبدو ذلك واضحاً جلياً في قوله تعالى:

«فَلْيَسْأَلُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِنَّمَا يَأْتِيَنكُمْ مِنْهُ هُدًى مِّنْ نَّبِيٍّ هُدًى فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا

أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١)

وقال تعالى:

«قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْغَى» (٢)

### المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا

حسبنا البشر أن نعلم جميعاً أن المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا يمثل قول الحق سبحانه وتعالى حول بعض ما خلق في هذا الوجود بجانبه الفيزيقي والبيئافيزيقي، رحمة وتلطفاً منه بعباده من الإنس، لعلهم التام والدقيق أن الإنسان لن يقوى على الوصول إلى سدرة الصواب في هذا الموضوع باعتماده على قدراته المحدودة التي جسدها فيه سبحانه وتعالى.

ويلزمنا أن نعلم علم اليقين أن الحق سبحانه وتعالى وصف لنا الحياة الدنيا وبين لنا قدرها في الوجود الكلي للوجود في ضوء علمه الشامل والمحيط بكل شيء، وحكمته التامة، وقدرته المطلقة، وخلق له لكل شيء في هذا الوجود. لذلك فإن هذا المفهوم السامع بني على حقائق وعلم ثابت لا يشوبه أي زلل أو خطأ. كما بين لنا سبحانه وتعالى كيف سينظر الإنسان إلى الحياة الدنيا وما سيؤول إليه مصيره في دار الخلود وفق نظرته للحياة الدنيا وسلوكه في ضوء ذلك. فالإنسان الذي عد الحياة الدنيا مبلغ علمه ونهاية ملموحاته وأهدافه يكون قد اخفق في فهم حقيقتها، أما الإنسان الذي عد الحياة الدنيا جزءاً محدوداً من الوجود يكون قد أصاب حقيقتها.

إن المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا ينطوي على ثلاث قضايا أساسية هامة توضح لنا المفهوم الكلي والجزئي للحياة الدنيا، فالتقضية الأولى تمثل وصف الحق سبحانه وتعالى لطبيعة الحياة الدنيا وما تجسد فيها من متع شهوية، وزخارف، ومفاتيح جعلتها تتصف بالغرور، ويغوى بها ويفتن من جعلها مبلغ علمه ومركز اهتماماته. ويشهد على ذلك قوله عز من قائل في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

١ - سورة البقرة، آيه ٣٨-٣٩.

٢ - سورة طه، آيه ١٢٣.

قال تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّالَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ» (١)

قال تعالى: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (٢)

قال تعالى: «إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجْرَكُمْ وَلَا يَسْتَلْكُمْ أَمْوَالُكُمْ» (٣)

قال تعالى: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ ثُمَّ يَهْبِجُ سَنَافَهُ مُمْسِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٤)

قال تعالى: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُجِرَ مِنَ النَّارِ وَأَدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٥)

إن هذا النداء اللطيف الذي يوجهه الله سبحانه وتعالى إلى أحد مخلوقاته وهو الإنسان في الآيات السابقة التي تنطوي على حقيقة الحياة الدنيا، يدل على رحمة الحق سبحانه وتعالى وتلطفه بهذا الإنسان الذي كرمه على سائر المخلوقات (٦) إذ كشف له حقيقة هذه الحياة الدنيا وما تجسد بين ثناياها من متع وزخارف ومفاتيح تجعل الإنسان الذي صدف عن الخط الراسلي مخدوعا بهذه المتع والزخارف الدنيوية ومنساقا وراءها حتى يجد نفسه ماثلا أمام الحق سبحانه وتعالى ليعلم علم اليقين يوم لا تنفع توبة ولا ندم، إنه ذهب ضحية هذه الدنيا ومفاتها.

١ - سورة الأنعام، آية ٣٢.

٢ - سورة العنكبوت، آية ٦٤.

٣ - سورة محمد، آية ٢٦.

٤ - سورة الحديد، آية ٢٠.

٥ - سورة آل عمران ١٨٥.

٦ - انظر مكانة الإنسان في الكون، التصور الاسلامي للوجود، للمؤلف.

حسبنا أن نعلم أن الحق سبحانه وتعالى عندما يصف لنا حقيقة الحياة الدنيا إنما يصف شيئا من مخلوقات خلقها وهو العالم الوحيد بأسرارها ومقدارها في هذا الوجود الذي خلقه ويجهل الإنسان قسما كبيرا منه ولكن الحق سبحانه وتعالى هو الذي خلق هذه الحياة الدنيا ليضع الإنسان امام الاختيار بعد ان وهبه الملكة العقلية التي تميز بها عن سائر المخلوقات. ولكن الباري عز وجل لم يكل الإنسان لعقله فقط للوصول إلى أسرار الحياة ومكنوناتها ؛ لعلمه التام أن الإنسان لا يقوى على هذه المهمة ؛ لأنه خلقه وجسد فيه من القدرات التي يعلمها تماما أنها عاجزة عن أن تسبر غور أسرار الحياة الدنيا ومكنوناتها. لذلك بعث الأنبياء والمرسلين لهذا الإنسان بالكتاب والحكمة ليأخذ بيد هذا الكائن إلى الطريق القويم الذي ينير لأتباعه حقيقة الحياة الدنيا من أجل أن يسلكوا في شتى ميادين الحياة وفق هذا المفهوم الساطع للحياة الدنيا. وعندما يعي الإنسان حقيقة الحياة الدنيا يجب أن يسير في ضوء ذلك في مجالات الحياة كافة، لذلك نجد أن الباري عز وجل خاطب قسما من المؤمنين الذين تغادلو عن القيام بواجب الجهاد وكأنهم قدروا الحياة الدنيا أكثر مما تستحق إذ قدموها على الآخرة من حيث القيمة، فإن فعلوا ذلك فإنهم يستحقون العذاب الأليم.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ انْطَلَقْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْضِ فَمَا جَسَّاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١)

نعم إن الذي يخشى الجهاد ويتقاعس عن النفي في سبيل الله يكون قد أخطأ حقيقة الحياة الدنيا وأعطاه وزنا أكثر من حقيقتها لأنه لو عرف أنها زائلة على أي وجه كان، وما يستفيد الإنسان منها إلا كل ما يقربه زلفى إلى الله سبحانه وتعالى ليسعد بذلك في الحياة الآخرة، لما تردد لحظة واحدة في الخروج إلى ساحة الجهاد، إلى الباب الذي جعله الله لخاصة أوليائه من أجل أن يستشهدوا في سبيله ويكونوا من الفائزين، أما الذين يخشون الانتقال إلى الحياة الآخرة، دار الخلود والسلام، فهم الذين استطاعت الحياة الدنيا أن تفتنهم بزخارفها ومفاتها التي تلاقى إقبالا شديدا عند الإنسان الذي تسيطر عليه شهواته، وإذا انساق الإنسان وراء

١ - سورة التوبة، آية ٣٨-٣٩.

هذا التوجه فإن الحياة الدنيا تسيطر على تفكيره ومعتقداته وجميع أنواع سلوكه إذ تتشكل أهدافه وغاياته في ضوء هذا المفهوم الذي لا يتعدى الحياة الدنيا، وعندما تكون الحياة الدنيا مبلغ علم هذا الإنسان أصبحت في نظره الوجود بأكمله بدلا من أن تكون جزءا منه، وكم من الإنس والجن أصبحوا عبيدا للحياة الدنيا عندما انساقوا وراء مفاتها ومحاسنها وأدبروا عن جادة الطريق.

قال تعالى:

«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِيدُونَكُمْ إِيمَانًا وَهَذَا يَوْمُكُمْ هَذَا قِيلَوا أَشْهَدُنا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ هَـالِكَةً الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ» (١)

فالحياة الدنيا بها احتوت وتجسد فيها من مفاتن وزخارف جعلت الإنسان ينشد إليها لأنها تتفق مع شهواته التي تنازعه ليلا ونهارا على غشيانها تاركا وراءه نهج الله سبحانه وتعالى الذي تتجسد فيها الرسالات الإلهية التي جاءتنا عن طريق الرسل. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى ينصح الإنسان بأن لا يغتر بالحياة الدنيا ومفاتها ويعرض عن حقيقتها لأنها دار ابتلاء وفناء، وما يقدمه الإنسان فيها من خير أو شر سوف يلاقيه أمامه عندما يمثل أمام الحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ» (٢)

لذلك فإن الباري عز وجل طلب من عباده الأوفياء أن يستخدموا جميع ما وهبهم الله من نعم مختلفة في ضوء الحقيقة التي وضعها لهم في كتابه العزيز بخصوص الحياة الدنيا والحياة الآخرة، على أن الحياة الدنيا هي دار الابتلاء والفناء وما يعمل الإنسان في الحياة الدنيا سوف يؤهله للحياة في دار الخلود إما في الجنة التي وعد بها المتقون وإما في نار جهنم مصير الذين ابتعدوا عن النهج الإلهي القويم. وفي ضوء ذلك جاءت الآية الكريمة التي تحث الإنسان على أن يسعى في حياته الدنيا إلى طلب الآخرة بكل قوة وما أوتى من عزم وألا ينسى نصيبه من الحياة الدنيا بعد أن يكون قد جد واجتهد وتغافى في طلب الحياة الآخرة. ولكن طلب الدنيا أيضا يجب أن يكون وفق مفهومه للآخرة وما يقربه منها حسب ما

١ - سورة الأنعام، آية ١٢٠.

٢ - سورة فاطر، آية ٥.

وضحه لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز.

قال تعالى: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» (١)

أما القضية الثانية فتكمن في نظرة الإنسان نحو الحياة الدنيا. فمن الناس من عرف كنه الحياة الدنيا واسرارها ولم يعطها موى قدرها فأعطاه ما تستحق وأخذ منها ما يقوي موقفه وينير مستقبله في الحياة الآخرة يوم المثل أمام الحق سبحانه وتعالى.

فهذا النوع من البشر يكون قد استخدم الحياة الدنيا وغنم منها ما يؤهل للخلود في جنات النعيم. وهؤلاء هم الذين استقاموا على النهج الإلهي وساروا في ضوئه وتفيؤوا ظلله في أمورهم كافة الحياتية، وكان همهم الوحيد في الحياة الدنيا النجاح في دار الابتداء للفوز في الدار الآخرة. أنهم اتصلوا بالرحمن عن طريق تصديقهم رسله واتباع الذكر الحكيم الذي بعث إليهم لينير طريقهم، فمن القرآن الكريم عرفوا أن الله سبحانه وتعالى خلق الموت والحياة ليبولوا الإنسان ماذا سيفعل في الحياة الدنيا وفي ضوء عمله في هذه الحياة سيؤول مصيره في الحياة الآخرة.

قال تعالى: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» (٢)

أما القسم الآخر من الناس فقد أعرضوا عن ذكر الله ونظروا إلى الحياة الدنيا بمنظار ذاتي شهوي إذ أصبحت الدنيا مبلغ علمهم ومحور اهتماماتهم ونهاية غاياتهم وآمالهم بدلا من أن يستخدموا الدنيا لبصالحهم وأهدافهم وهذا هو الأساس الذي يركز عليه نجاحهم في دار الاختيار والفناء. فالإنسان عند الحق سبحانه وتعالى أكرم من الحياة الدنيا التي خلقت هي والموت فقط من أجل اختباره، ولكن هيهات أن يفقه الإنسان مكانته السامقة التي وهبه إياها الخالق جلّت وتعلّت قدرته، فذهب هذا القسم من البشر ليتنازل عن مكانته من سيادة الحياة الدنيا واستخدامها لتحقيق غاياته

١ - سورة القصص، آية ٧٧.

٢ - سورة الملك، آية ٢.

وأهدافه إلى عبادة الحياة الدنيا وما تنطوي عليها من زخارف ومفاتيح حتى أمسى هذا النوع من البشر عبيدا لهذه الحياة الدنيا، فجميع تصوراتهم واهتماماتهم وقضاياهم المتعددة لا تتعدى حدود الحياة الدنيا، إنها ملكتهم بزخرفها وغرورها، كيف لا؟ وهم عبيد شهواتهم قبل أن يكونوا عبيدا للحياة الدنيا. إنهم أدبروا عن الحق المبين الذي جاء به الرسل والأنبياء لأنه لا يتناسب وأهواءهم وشهواتهم، فأصبحوا ضحايا للحياة الدنيا تسوقهم أهواؤهم وشهواتهم فقط نحو مفاتيحها وزخرفها.

وقد خاضع الحق سبحانه وتعالى الإنسان من خلال الآيات القرآنية الحكيمة ليستخدّم دنياه من أجل الآخرة. ولكن قسما من الناس لا يريدون إلا الحياة الدنيا وما فيها من شهوات، والقسم الآخر من الناس يريد الحياة الدنيا كوسيلة توصله إلى الفوز العظيم في اليوم الآخر، يوم الشول أمام الباري عز وجل. وتبدو النظرة الإنسانية المزدوجة للحياة الدنيا «نظرة الإنسان الذي اقتصر فقط على الحياة الدنيا ونظرة الإنسان الذي فهم الحياة الدنيا على أساس أنها مقدمة للآخرة» واضحة جلية في الآية الكريمة التالية:

قال تعالى: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَضُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ فَجَنَّبَكُم مِّنَ الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ...» (١)

أما الذين غفلوا عن حقيقة الحياة الدنيا وضلوا في سعيهم إذ عدوها هدفاً منشوداً فإن الحق سبحانه وتعالى وصفهم بأنهم عرفوا فقط ظاهراً للحياة الدنيا ولم يجتزلوا حقيقتها، كما أنهم غفلوا تماماً عن حقيقة الآخرة والتي تعد غاية كل إنسان لبيب.

قال تعالى: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ مِّنَ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ» (٢)

أما القضية الثالثة والأخيرة فتكمن في مصير الإنسان في ضوء نظريته للحياة الدنيا. فالإنسان الذي فهم حقيقة الدنيا وسار في ضوء ذلك في شتى أمور حياته فإنه يكون قد استخدم الحياة الدنيا وما فيها من متع ومظاهر للوصول إلى الهدف

١ - سورة آل عمران، آية ١٥٢.

٢ - سورة الروم، آية ٧.

الأسنى وهو الفوز في دار الابتلاء (الحياة الدنيا) ليكون مصيره في الآخرة في جنات النعيم التي أعدت لهؤلاء الذين كانوا على درجة عالية من التبصر والتفكير إذ استخدموا ملكتهم العقلية بأفضل وأنجح السبل فأصبحت الحياة الدنيا بالنسبة لهم وسيلة توصلهم إلى جنات النعيم.

أما القسم الآخر من البشر، فهم الذين ضلوا الطريق بسبب بعدهم عن النور السماوي المبين، هذا إلى جانب عدم استخدامهم الملكة العقلية التي وهبها الله سبحانه وتعالى للإنسان بالصورة الصحيحة. لذلك فإنهم نظروا للحياة الدنيا على أنها غاية وليست وسيلة، فملكتمهم بظواهرها البراقة ومفاتها الخادعة ومتعتها الزائلة ليفدوا عبيدا لها بالرغم من أن الله سبحانه وتعالى مكن الإنسان من أن يملك الحياة الدنيا ويسيرها وفق أهدافه النبيلة.

والشيء العجيب الذي لا يتعداه عجب أن هؤلاء الذين ملكتهم الحياة الدنيا لسوء استخدامهم الهبة الإلهية المتمثلة بالملكة العقلية، ذهبوا لينالوا من الذين ملكوا الحياة الدنيا واتخذوها وسيلة للوصول إلى غاياتهم النبيلة لحسن استخدامهم لعقولهم واتباعهم نهج الله التوفيق عن طريق إثارة الخرافات والأوهام والترهات، فتارة ينعونهم أنهم لم يستخدموا عقولهم وتارة أخرى يصفونهم بالرجعية والتخلف وأنهم ليس لهم علم بسياسة واقتصاد وإدارة وإرشاد، ولا في فنون الحرب وإدارة شؤون البلاد. نعم كل هذه التهم المغرضة وغيرها من الهاترات التي نطق بها هؤلاء الذين ملكتهم الدنيا لتعلقهم المفرط بشهواتهم التي وشجت عليها نفوسهم جميعها جاءت لتنم على جهل هؤلاء القوم بحقيقة الإنسان وحقيقة دنيا الإنسان، ومكانة هذا الإنسان في الوجود. إن العجب ألا يذهب هؤلاء الناس إلى كيل التهم وإثارة العبارات الجوفاء حول الذين عرفوا حقيقة الحياة الدنيا من خلال نظرتهم الكلية للوجود. فأصبحت الحياة الدنيا جزءا من كل وليست كل شيء كما خدع بها عبيدها. إنهم عندما يذهبون إلى إشاعة هذه الأقاويل الوضيعة ينطلقون من مفاهيمهم الفجة وإدراكهم المحدود وشهواتهم المتعددة والمتغيرة بحسب الظروف والمناسبات، لذلك تجدهم ينظرون إلى كل شيء في الوجود من خلال شهواتهم حتى أصبحت عقولهم تتبع شهواتهم المتقلبة والتي تتلون بحسب الظروف، ألم يكفهم أنهم جعلوا العقل مقودا لشهواتهم بدلا من أن يكون قائدا لسلوكهم، واستخدمتهم الدنيا بدلا من أن يستخدموها فذهبوا إلى إثارة الإشاعات والتهم المغرضة حول الذين عرفوا حقيقة



الحياة الدنيا وحقيقة العقل الإنساني وتصرفوا في ضوء ذلك فساقوا الدنيا وما فيها لتحقيق غاياتهم النبيلة وجعلوا من العقل قائدا لتصرفاتهم وسلوكهم.

فمن هذا الموقع نحسب أن نوجه مجموعة من الأسئلة والاستفسارات لهؤلاء الذين ضلوا الحقيقة التي تتعلق بكيانهم ووجودهم الدنيوي والأخروي واتهموا الطرف الآخر الذي اجتلى حقيقة ما فاتهم بأنهم متخلفون ورجعيون وإلى غيرها من التهم.

- هل الإنسان الحر هو الذي يستخدم الدنيا لتحقيق أهدافه وغاياته أو الذي تستخدمه الدنيا ليغدو عبدا من عبيدها؟

- هل الإنسان المتخلف الجاهل هو الذي يملك الدنيا أو الذي تملكه الدنيا؟

- هل الإنسان العالم الذي يعلم حقيقة الحياة الدنيا ويسوقها لتحقيق أهدافه أو الذي ينجر وراء متعها الزائلة؟

- هل الإنسان المفكر العالم الذي يصل إلى حقيقة مكانة الإنسان في الكون ويتصرف في ضوء ذلك، أو الذي يسلب الإنسان مكانته السامية في الوجود ويهوي به إلى رتبة وضعية لا يضاهيه فيها مخلوق؟

- من هو الذي يكرم العقل الإنساني ويعلي من شأنه الذي يجعله تابعا لشهواته أو الذي جعل منه قائدا لسلوكه وتصرفاته؟

إن الإجابة عن هذه الأسئلة لا تحتاج إلى علم غزير أو فراسة عالية فهي واضحة بوضوح أسئلتها، هذا إذا ما أراد الإنسان ألا يمارس هوايته الجدلية للالتفاف على الحقائق الساطعة.

ففي الوقت الذي ستكون فيه الجنة هي المأوى للذين اجتلوا حقيقة الحياة الدنيا وسلوكوا في ضوئها شتى مناحي الحياة فإن جهنم ستكون المونل للذين وقعوا في شباك الحياة الدنيا وغرتهم بمفاتنها ومحاسنها ومتعها الزائلة حتى أصبحت مبالغ عليهم ومركز اهتماماتهم. ويبدو ذلك واضحا جليا في قوله سبحانه وتعالى:

«ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْصُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ\* أُولَئِكَ الَّذِينَ طَغَى اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ\* لَا جَزَاءَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ

#### الخاصرون» (١)

قال تعالى:

«أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَصْفَقُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٢)

قال تعالى:

«وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَجَاءَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ ناصرين\* ذَلِكَ بِأَنكُمْ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّبْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يَخْرُجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ» (٣)

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ\* أُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنَ النَّارِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ\* إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ» (٤)

نعم هذا هو الفرق الشاسع بين الفريقين من حيث المصير الذي سيؤول إليه كل طرف في الآخرة. إنه المستقبل الخالد للإنسان إما في جنات النعيم وإما في نار جهنم، فهذا المستقبل الذي يجب أن يشد انتباه الناس من حيث الفكر والمعتقد والسلوك، والتضحية بالمال والنفس، وليس المستقبل الذي يتحدث عنه أغلب الناس في هذه الأيام. فكلهم يريد أن يشيد مستقبله الدنيوي بكل ما أعطى من قوة بالطرق والأساليب المعروفة كافة لدى البشر طنا منهم أنه لا يوجد مستقبل سوى هذا النوع. فمن المخجل والمؤسف حقا أن نجد أغلب الذين يظهرون إسلامهم يذهبون إلى هذا النوع الهابط من أنواع المستقبل، فشدهم الدنيا إلى زخرفها وجمالها ومتعها الزائلة. فأصبحت محور اهتمامهم ومبلغ علمهم، ومن هنا برز الفرق الشاسع بين معتقداتهم ومجموعة سلوكياتهم المناقضة لتلك المعتقدات، وفي ضوء ذلك نستطيع أن نفهم قول الحق سبحانه وتعالى الذي خاطب فيه المؤمنين الذين لا يريدون أن يخرجوا إلى الجهاد في سبيله وكيف كان الوعيد لهم إن لم يخرجوا للجهاد وكيف يجب أن ينظروا إلى الحياة الدنيا على أنها مقدمة للآخرة.

١ - سورة النحل، آيه ١٠٧ - ١٠٩.

٢ - سورة البقرة، آيه ٨٦.

٣ - سورة الجاثية، آيه ٣٤ - ٣٥.

٤ - سورة يونس، آيه ٧ - ٩.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَذْبَحْتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْضِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبَدِلَ قَوْمًا خَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١)

وبعد إظهار الفرق بين متاع الحياة الدنيا وبين الآخرة وما يجب على المؤمن في ضوء ذلك من تصرف وسلوك فقد وجه الحق سبحانه وتعالى أنظار المؤمنين إلى طريق الخير والصواب، حين خاطبهم بقوله عز من قائل:

«انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢)

وهناك العدد الهائل من الأحاديث النبوية الشريفة التي حث فيها أصحابه وأتباعه وأبناء أمته المسلمة على فهم الحياة الدنيا على حقيقتها وعدم الاهتمام بها أكثر من قدرها. والعمل فيها ليس من أجلها ولكن للوصول إلى الآخرة ونعيمها. ولكثرة هذه الأحاديث الشريفة سوف نورد نماذج منها لتحقيق المراد دون الإطالة والإسهاب.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: جلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على المنبر وجلسنا حوله، فقال «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها» (٣)

وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة» (٤)

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء» (٥)

١ - سورة التوبة، آية ٣٨ - ٢٩.

٢ - سورة التوبة، آية ٤١.

٣ - متفق عليه، رياض الصالحين ١٦٦.

٤ - متفق عليه.

٥ - رواه مسلم، رياض الصالحين.

وعن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب، أو عابر سبيل» (١)  
قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «الدنيا مسجن المؤمن وجنة الكافر» (٢).

ومن المفيد جدا أن نرى معا كيف فهم ابن القرآن وفارس الإسلام وربيب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام الحياة الدنيا، وكيف كان يصنفها لأصحابه ويحذرهم منها. ولكثرة الخطب التي تناول فيها إمام البردة والمتقين الحياة الدنيا، فإننا سوف نورد بعضا منها لتوضيح المراد دون الإطالة والإطناب.

قال الإمام علي كرم الله وجهه في إحدى خطبه واصفا الدنيا: «ما أصف من دار أولها عناء وآخرها فناء، في حادها حساب، وفي حرامها عقاب، من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن، ومن ساعاها (جری معها في مطالعها) فاتته، ومن قعد عنها واتته ومن أبصر بها (استخدمها لأخوته) بصرتة ومن أبصر أليها (أصبحت مبلغ علمه واهتمامه) أعمته» (٣)

وفي خطبته القراء يقول عليه السلام «...أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ضرب لكم الأمثال، ووقت لكم الأجال، والبسكم الرياش وأرفع لكم المعاش وأحاطكم بالإحصاء، وأرصد لكم الجزاء، وأثركم بالنعم السوابغ والرغد الروافغ، وأنذركم بالحجج البوالغ وأحصاكم عددا، ووظف لكم مددا في قرار خيرة ودار عبدة. أنتم مختبرون فيها ومحاسبون عليها فإن الدنيا رنق مشربها ردغ مشرعها، يونق منظرها ويوبق مخبرها. غرور حائل وظل زائل، وسناد مانل، حتى إذا أنس نافرها واطمأن ناکرها قمصت بأرجلها، وقنصت بأحبلها وأقصدت بأسهمها وأعلقت المرء أوهاق المنية. قائدة له إلى ضنك المضجع ووحشة المرجع ومعينة المحل وثواب العمل» (٤)

١- رواه البخاري، رياض الصالحين.

٢- رواه مسلم، رياض الصالحين.

٣- نهج البلاغة، الجزء الأول، ص ١٣٠ - ١٣١.

٤- نهج البلاغة، الجزء الأول ص ١٣٣ - ١٣٤.

وفي خطبة أخرى يقول فيها «عباد الله أوصيكم بالرفض لهذه الدنيا التاركة لكم وإن لم تحبوا تركها، والميلية لأجسامكم وإن كنتم تحبون تجديدها. فإن مثلكم ومثلها كسفر سلكوا مبيلا فكانهم قد قطعوه، وأما علما فكانهم بلغوه وكم عسى المجري إلى الغاية أن يجري إليها حتى يبلغها. وما عسى أن يكون بقاء من له يوم لا يعود، ومطالب حثيث يحدوه في الدنيا حتى يفارقها.

فلا تنافسوا في عز الدنيا وفخورها، ولا تعجبوا بزينتها ونعيمها، ولا تجزعوا من ضرائها وبؤسها. فإن عزها وفخورها إلى انقطاع، وإن زينتها ونعيمها إلى زوال وضرائها وبؤسها إلى نفاذ. وكل مدة فيها إلى انتهاء، وكل حي فيها إلى فناء. أوليس لكم في آثار الأولين مزدجر، وفي آياتكم الماضية تبصرة ومعتبر إن كنتم تعقلون. أولم تروا إلى الماضين منكم لا يرجعون، وإلى الخلف الباقيين لا يبقون. أولستم ترون أهل الدنيا يصبحون ويسسون على أحوال شتى فبيت يبكي وآخر يعزي وصريح مبتلى. وعائد يعود وآخر بنفسه يجود، ومطالب للدنيا والموت يطلبه، وغافل ليس بمغفول عنه، وعلى أثر الماضي ما يمضي الباقي» (١).

إن ما ذكره الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في خطبه البليغة الحكيمة حول الدنيا وصفاتها وكيف يجب أن ننظر إليها ونتعامل معها ينبثق من فهمه الصائب الدقيق لكتاب الله وسنة رسولنا الأمين. هذا الفهم المتميز يبين لنا آثار المدرسة النبوية الشريفة في تفكير الإمام كرم الله وجهه. وما أحوالنا معشر المسلمين في هذه الأيام إلى أن نعي حقيقة وجودنا، وحقيقة دنيانا، وطبيعة نهجنا الإسلامي المنير، وأسس معالم مدرسة رسولنا الكريم لنصلح ما فسد من عقائدنا وأنماط سلوكنا، وننهض من سباتنا العميق على حين تتداعى علينا الأمم كتداعي الأكلة على قصعتها، إننا في أمس الحاجة للانتظام في المدرسة القرآنية الحكيمة والتي خرج منها رسولنا الكريم أصحابه البررة الطاهرين الذي شكل جمعهم الكريم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. إن هذه المدرسة الطاهرة زودت أبناءها بمشاعل النور والمعرفة وساروا في ضوء ذلك في طلب الدنيا وما فيها بهدف الفوز في الآخرة. لذلك ليس غريبا أن نجد أحد تلاميذ هذه المدرسة وهو الإمام علي كرم الله وجهه يتحدث الدنيا قائلا «يا دنيا يا دنيا إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوقت. لا حان حينك، هيهات غري غيري. لا حاجة

١ - نهج البلاغة، الجزء الأول، ص ١٩١ - ١٩٢.

لي فيك. قد ملقتك ثلاثا لا رجعة فيها. فعيشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورء» (١)

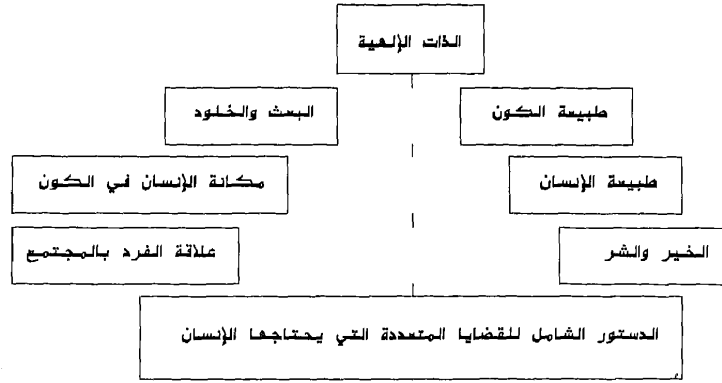
الشكل رقم (١) يوضح حقيقة الحياة الدنيا في ضوء النهج الإلهي، كما يبين طريقة الفهم للقضايا الأساسية المتصلة بالحياة الدنيا والمصدر الذي انبثقت منه ويوضح أيضا أن الأهداف العامة والخاصة للإنسان تتكون من خلال الفهم الدقيق للحياة الدنيا. ويسعى الإنسان إلى اختيار الأسس والأساليب التربوية لتحقيق أهدافه بما ينسجم مع فهمه ومعتقداته للحياة الدنيا والمرتكزات التي أسس عليها هذا الفهم.

### الحياة الدنيا في ضوء المدارس الفكرية البشرية

بعد أن عرضنا في الصفحات السابقة المفهوم الإسلامي للحياة الدنيا وما ينعكس عنه من حقائق وجودية هامة، وكيف واجه الإنسان تلك الحقائق، لا بد لنا من أن نعطف بنظرنا إلى ما وصل إليه الإنسان بقدراته الذاتية حول هذا الموضوع، إذ استخدم الإنسان الوسائل والطرق كافة عبر تاريخه لبحث ويتأمل الحقائق الوجودية الهامة ليسير في ضوء ما توصل إليه من حقائق وأوهام حول تلك القضايا. وتجدر الإشارة إلى أن الإنسان الذي أدبر عن النهج الإلهي لم يأخذ بأية حقيقة من الحقائق الأولى والهامة التي بينها للناس الحق سبحانه وتعالى. فالإنسان لم يعط أدنى اهتمام إلى حقيقة خلق آدم وهو أصل البشر، في عالم الغيب، ولا إلى حقيقة وجود

١ - نهج البلاغة، الجزء الرابع، ١٦ - ١٧.

# الشكل رقم (١)



الحق سبحانه وتعالى

المصدر

طريق الوحي

الرسول والأنبياء

القرآن الكريم

السنة النبوية الشريفة

الإنسان

المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا

الأهداف العامة والخاصة للإنسان

في ضوء فهم الحياة الدنيا

التربية لتحقيق الأهداف الجماعية والفردية

آدم وحواء وتجربتهما مع عدو البشرية ابليس. ولا الى حقيقة هبوط آدم وحواء الى هذا الكوكب مع عدوهما اللدود، ولا الى حقيقة ان النهج الالهي بعثه الحق سبحانه وتعالى ليحرر الإنسان من وساوس وتسويات عدوه الأشر ابليس، ويقوده الى طريق الحق المبين. فجميع هذه الحقائق وضعت في عالم النسيان عند الإنسان الذي صدف عن النهج الالهي، وذهب لبحث بطريقته الخاصة معتمدا على قدراته الذاتية للوصول الى ما تصبوا اليه النفوس وما يداعب ما في الصدور من هوى ومجموعة شهوات تدفعه ليلا نهارا على غشيانها.

وإذا أمعنا النظر عبر تاريخ البشرية فإننا نجد الانسان الذي نأى بجانبه عن طريق الحق قد آمن بعدة اوهام وأساطير رافقته وهو ينسج حضارته الانسانية عبر تاريخه المديد. وقد كانت انعكاسات هذه الاوهام والاساطير تشكل خطرا جسيماً على مكانة هذا الإنسان في الوجود، لذلك فإن الإنسان عبر تاريخه اعلن عبوديته الى الانهار والبحار، والشمس والنار، والى بعض انواع الحيوانات، والى الحجارة التي كان يحتجها بيده واكوام التمر التي كان يرصها بيده، كما اذعن الى عبودية إنسان مثله والالتزام بكل شيء تعكسه هذه العبودية على سلوكه، إضافة الى ان قسما من الناس ذهب ليعبد هواء وبذل اقصى طاقاته في تحقيق كل ما يفرضه عليه اتباع الهوى من اهداف متعددة تتغير حسب الظروف والمناسبات، وكل انسان منحت له الظروف ان يحتل تاريخ الإنسان عبر القرون السالفة سيجد أن الانسان الذي ابتعد عن النهج الالهي التويم عاش هذه الفترة من تاريخه وهو يجهل حقيقة نفسه وحقيقة حياته ومستقبله الوجودي، كما جهل الحقائق الوجودية كافة التي تنير له الدرب في صنع مستقبله الأخروي. لذلك فإن هذا الإنسان ذهب ليكون مفاهيم متعددة متباينة حول الحياة الدنيا بسبب الاوهام والاساطير التي استقرت في ذهنه عبر تاريخه الطويل، وقد كلفته الشيء الكثير من المعاناة والالام والحروب الشرسة التي جرت الولايات والمصائب على كاهل هذا الإنسان، هذا فضلا عن مستقبله الوجودي المظلم الذي لم يعد له شيئا بسبب غفلته وانشغاله باتباع اهوائه عن المصير الذي سيؤول اليه باتباع الدنيا وما فيها من متع شهوية.

لقد جاءت المحاولات والدراسات البشرية حول الحياة الدنيا والقضايا الوجودية عبر تاريخ هذا الإنسان ضمن فلسفات ومدارس فكرية، تشابه بعضها مع بعض في نقاط واختلفت في نقاط أخرى. لذلك فإننا نرى لكل فلسفة او مدرسة



فكرية مطابعتها الخاص الذي يميزها عن بقية المدارس الأخرى. وهذا الاختلاف يعود الى طبيعة الإنسان واختلاف الأهواء من شخص الى آخر ومن وقت الى آخر. وقد اتبع كل فلسفة او مدرسة فكرية قسم من الناس على اساس ان هذه المدرسة هي التي تنطق بالحق والحقيقة وتناسب الإنسان في ظروفه وطموحاته كافة، وقد استخدم اتباع كل مدرسة فكرية جميع قدراتهم المتعددة للدود والدفاع عن المباديء الأساسية التي تنادي بها مدرستهم ومدى صلاحيتها للإنسان في جميع ظروفه وإزمانه المتعددة. وسوف نورد المباديء الأساسية لكل فلسفة من هذه الفلسفات لنرى معاً كيف اختلفت هذه الفلسفات بعضها مع بعض حول القضايا الأساسية التي شغلت الإنسان عبر تاريخه، وكيف فهم اتباع كل فلسفة الحياة الدنيا من خلال مباديء مدرستهم الفكرية.

### ١ - الفلسفة الطبيعية (Naturalism)

تعد الفلسفة الطبيعية النبع الذي انبثقت منه سائر الفلسفات الأخرى إذ انعكست مباديء هذه الفلسفة على بقية الفلسفات الأخرى بنسب متفاوتة. ويرجع تاريخ هذه الفلسفة الى القرن السادس قبل الميلاد على يد فلاسفة ملسان الذين كانوا يقطنون في شرق تركيا والذين كانوا اول من حاول البحث عن حقائق الأشياء بالاعتماد كلية على الطبيعة. وزعيمهم ثالس (Thales) صرح بضرورة الماء لكل شيء حيث يعد العامل المشترك بين جميع الأشياء في الطبيعة. وقد تطورت هذه الفلسفة في القرن الخامس قبل الميلاد على يد الفيلسوفين الشهيرين لوسبوس (Leucippus) وديمقريطس (Democritus) اللذان كانا يقطنان في جزيرة قبرص. وقد صرح هذان الفيلسوفان ان كل شيء في هذه الطبيعة يمكن تقسيمه الى اجزاء صغيرة او ذرات متناهية لا يمكن تحطيمها او تجزئتها. كما انهما لا يعتقدان بالمصادفة، فكل شيء في هذه الطبيعة مكون من ذرات مرتبة بطريقة منظمة فعلى الإنسان ان يعيش بانسجام تام مع هذه الطبيعة المنظمة.

وقد وصلت الفلسفة الطبيعية القديمة القمة على يد الفيلسوف إبيقورس (Epicurus) في القرن الرابع قبل الميلاد الذي كان ينادي بالحياة السعيدة الخالية من الالم والخوف. وقد اعتقد بقانون المصادفة في حركة الذرات في تكوين بعض العناصر دون المساس في تحديد حقيقة الأشياء.

ويعد الفيلسوف الفرنسي جان جاك روسو رائد هذه الفلسفة في ضوء ما قدم من أفكار في كتاباته: نظرية العقد الاجتماعي وإميل. ومن أهم مبادئ هذه الفلسفة: (١)

- ١- الشيء الوحيد الحقيقي في هذا الكون الطبيعة.
- ٢- الطبيعة هي مفتاح الحياة، وإن كل شيء نعمله هو جزء من الطبيعة.
- ٣- كل شيء في هذه الحياة يتحرك حسب قوانين الطبيعة.
- ٤- الطبيعة لا تتغير لذلك يمكن الاعتماد عليها.
- ٥- إن كل فرد يعد أهم من المجتمع، إن أهداف المجتمع تعد ثانوية إذا ما قورنت بأهداف الفرد.
- ٦- الانظمة الاجتماعية مقبولة لأنها تمنع الفوضى وليس لأنها جيدة.

## ٢ - الفلسفة المثالية (IDEALISM)

على الرغم من أن السومريين وقدماء المصريين كانوا يعتقدون بجزء كبير من أفكار الفلسفة المثالية، إلا أن تاريخ هذه الفلسفة يعود إلى سقراط (469-399 B.C) الذي كان ينادي بأفكار الفلسفة المثالية. ولكن اقترن اسم هذه الفلسفة باسم أفلاطون (Plato. 427 - 347 B.C) لأنه هو الذي دونها ورتبها بشكل منظم. ومن أهم مبادئ الفلسفة المثالية: (٢)

- ١- وجود الإنسان في هذه الحياة يرتكز تماماً على العقل.
- ٢- جميع الأشياء الحقيقية تأتي من العقل.
- ٣- إن الإنسان يترجم ويحلل كل شيء بواسطة العقل.
- ٤- إن الإنسان أهم من الطبيعة.
- ٥- إن القيم الخلقية لا تتأثر بسلوك الأفراد، فهي ثابتة لا تتغير حسب الظروف.

1- Clark, Gordon H. Thales to Dewey, A history of philosophy. Houghton Mifflin, Boston, 1957.

2- Butler, J. Donald. Four philosophies and Their practice in Education and Religion, 3d ed Harper and Row, New York, 1969, PP.29-41.

- ٦- ان الانسان لديه الحرية في ان يختار بين الصواب والخطأ.  
٧- العقل يعد القوة الاساسية التي تساعد الانسان لكشف اسرار الكون، ويمكن استخدام المنطق والتحليل الى جانب الاسلوب العلمي لكشف اسرار الكون.

### ٣ - الفلسفة الواقعية (REALISM)

- يعد ارسطو (Aristotle , 384 – 322 B.C) زعيم الفلسفة الواقعية كما انه أحد تلامذة افلاطون ومن ابرز خصومه اللاحقين إذ رفض تماما فكرة افلاطون عن عالم المثل والافكار. ومن اهم مبادئ هذه الفلسفة: (١)  
١- ان عالم الحس حقيقي وهو كما نحسه ونراه.  
٢- ان العالم جزء من الطبيعة ويمكن التعرف إلى اسراره عن طريق الاحاسيس والخبرات.  
٣- جميع الاشياء المادية التي تحدث في هذا العالم تعتمد على القوانين الطبيعية.  
٤- القوانين الطبيعية تسيطر على حركة الكون.  
٥- يمكن للانسان معرفة الحقيقة عن طريق الاسلوب العلمي والوسائل التجريبية، علما ان الانسان لا يستطيع ان يعرف كل شيء.  
٦- لا يمكن فصل العقل عن الجسم، كما انه لا يوجد اي سيطرة لاحدهما على الآخر، ولكن هناك علاقة منسجمة بين الاثنين.  
٧- يحق للفرد ان يحدد اعتقاداته بنفسه.

### ٤ - الفلسفة النفعية، البراجماتية (PRAGMATISM)

- تعد هذه الفلسفة المشاركة الامريكية الجادة في الفكر الفلسفي، ويعود الفضل في هذا الفكر الفلسفي الى كل من:  
أ- تشارلز بيرس (Charles s. Perice – 1839 – 1914)  
ب- وليم جيمس (William James – 1842 – 1910)  
ج- جون ديوي (John Dewey – 1859 – 1952)

1- Charles A. Bucher, Foundations of physical Education, 7th ed. C.V Mosby, St. Louis, 1975 PP. 31-33.

ومن اهم مبادئ هذه الفلسفة: (١)

١- كل شيء في هذه الحياة قابل للتغيير ما عدا الموت ذلك أن الصفة السائدة لكل شيء هي التغيير.

٢- كل فرد يعد جزءاً من المجتمع وله دور معين فيه، وأن تصرفات الفرد تؤثر في المجتمع.

٣- اهداف الفرد واهداف المجتمع يجب ان تكون في خط واتجاه واحد.

٤- ان الطريقة المثلى لمعرفة قيمة النظرية والحكم على الحقيقة هو البرهان عن طريق العمل فإذا ثبت نجاحه فإن القيمة تعطى على هذا الاساس.

## ٥ - الفلسفة الوجودية (EXISTENTIALISM)

برز الفكر الفلسفي الوجودي الى حيز الوجود على يد الفيلسوف الدنماركي (Soren Kier Kegaard, 1813 – 1855) ومن زعماء هذه المدرسة الفيلسوف الالمانى المعاصر (Martin Heidegger, 1887 – 1976) ومن أشهر زعماء هذه الفلسفة الفيلسوف الفرنسي مارتير.

ومن اهم المبادئ الاساسية لهذه الفلسفة: (٢)

١- ان الوجود الانساني هو الحقيقة الوحيدة في هذا الكون.

٢- كل انسان له الحق ان يحدد القيم الحياتية لنفسه.

٣- يعد الفرد أهم من المجتمع، لذلك يجب التركيز على اهداف الفرد.

٤- ان الاشياء السينة لا يمكن تغييرها.

## ٦ - الفلسفة الشيوعية (COMMUNISM)

تعطي الفلسفة الشيوعية مفهوما ماديا للحياة بطريقة دياكتكية (جدلية)، ومن زعماء هذه الفلسفة لينين (Lenin, 1870 – 1924) وستالين

1- Earle F. Zeigler, philosophical Foundations For physical, Health, and Recreation Education, prentice – Hall, Engle wood cliffs, N.J. 1964. PP. 65 – 66

2- Brubache, John S. Modern Philosophies of Education, 4th ed. MC Graw– Hill, New york, 1968.PP. 140.

(Stalin, 1879 – 1953) ومن أشهر رواد هذه الفلسفة الفيلسوف الألماني الشهير كارل ماركس (1818 – 1883) ومن أبرز مذاهب هذه الفلسفة المذهب الاشتراكي.

ولكن عندما استطاع زعماء هذه الفلسفة الوصول إلى السلطة إثر الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ وحاولوا جاهدين تطبيق الفكر الفلسفي الشيوعي لم يتسن لهم ذلك للتعارض الواضح بين الفكر المراد تطبيقه من جهة، والنزعات والدوافع الانسانية الفردية من جهة أخرى. لذلك كان لا بد من إقامة نظام اشتراكي مرحلي، حتى يتم تطوير الانسانية من حيث الدوافع، والنزعات والأفكار الفردية لتصبح دوافع ونزعات وأفكاراً جماعية بعد الانتهاء من المرحلة الاشتراكية، ومن ثم تطبيق المبادئ الشيوعية بالكامل.

يتضح مما سبق أن الإنسان الذي ابتعد عن النهج الإلهي التوحيدي منكراً لعبوديته للحق سبحانه وتعالى في ضوء حريته الاختياري وهبها الحق سبحانه وتعالى للإنسان والجن دون سائر المخلوقات، ذهب قسم من هؤلاء ليعبد هواه كما فعل فرعون ومن سار على نهجه من الإنسان ليظلم نفسه وبغيره من الناس باستعلائه عليهم واستخفافه بقولهم ليدينوا له بالطاعة والعبودية، وهذا ما فعله جميع القادة المستكبرين مع شعوبهم عبر تاريخ الانسانية. أما القسم الآخر من الذين صدقوا عن النهج الإلهي المنير فقد اتبعوا المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية التي اختلقها الإنسان من تأملاته، وتخيلاته، وبحوثه لتنسجم بشكل تام مع أهوائه ورغباته في الحياة الدنيا. لأن الحياة الدنيا من وجهة نظرهم تعادل الوجود بأكمله، بل هي الوجود بعينه. وقد بينا في كتابنا التصور الإسلامي للوجود مقارنة دقيقة بين النهج الإلهي وبين المدارس الفلسفية حول أهم القضايا الوجودية والتي تعكس المفهوم الدقيق للحياة الدنيا. وقد تبين بوضوح بعد تلك المدارس الفلسفية عن حقيقة القضايا الوجودية الهامة.

فالإنسان ذهب في هذه الحياة الدنيا ليشيد حضارته على معالم فكرية وقوانين وداستير وضعية وأنماط سلوكية جميعها تقوده إلى تحقيق أهدافه وطموحاته في هذه الحياة الدنيا وفق مفهومه الخاص لها. أما بالنسبة للإنسان الذي اناب للنهج الإلهي فإنه ينضم لجميع أمور الحياة في ضوء تعليمات النهج المنير وما يعكسه في نفوس أتباعه من معتقدات، وأنماط سلوكية، وقوانين اجتماعية وقضائية، ومعالم تربوية وخلقية، لذلك فإن الفرق شاسع وعظيم بين الفريقين في أغلب مجالات

الحياة، كيف لا ونحن نعلم ان سر الاختلاف بينهما يعود الى فهم كل طرف للحياة الدنيا بصورة خاصة. فشتان ما بين الذين يريدون من الحياة الدنيا ما يقربهم الى رضى الله سبحانه وتعالى في اليوم الآخر، وبين الذين لا يريدون الا متاع الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق. لذلك يبدو بوضوح ما تهدف اليه المدارس الفلسفية والمذاهب الفكرية التي ابتدعها الانسان لتوصله الى متاع الحياة الدنيا فقط، وبين النهج الالهي الذي ارسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس جميعا ليخرجهم من الظلمات الى النور، ويبين لهم ان يطلبوا الآخرة بقدراتهم كافة التي جسدها فيهم وألا ينسوا نصيبهم من الدنيا. لان الدنيا في ضوء هذا النهج هي مقدمة للآخرة. وعلى الإنسان اللبيب ان يشتري آخرته بدنياه، ويتعامل مع الحياة الدنيا على حقيقتها وهي دار الفناء والابتلاء. والشيء المذهل والعجيب ان نجد قسما من الناس يقارنون بين الاسلام وبين غيره من المدارس الفكرية والفلسفية فيما قدم كل منهما للانسان من تحقيق اهداف مادية متعلقة فقط بالحياة الدنيا، فهذا العمل يسلب الاسلام اهدافه الاولى التي بعثه الحق سبحانه وتعالى من اجلها.

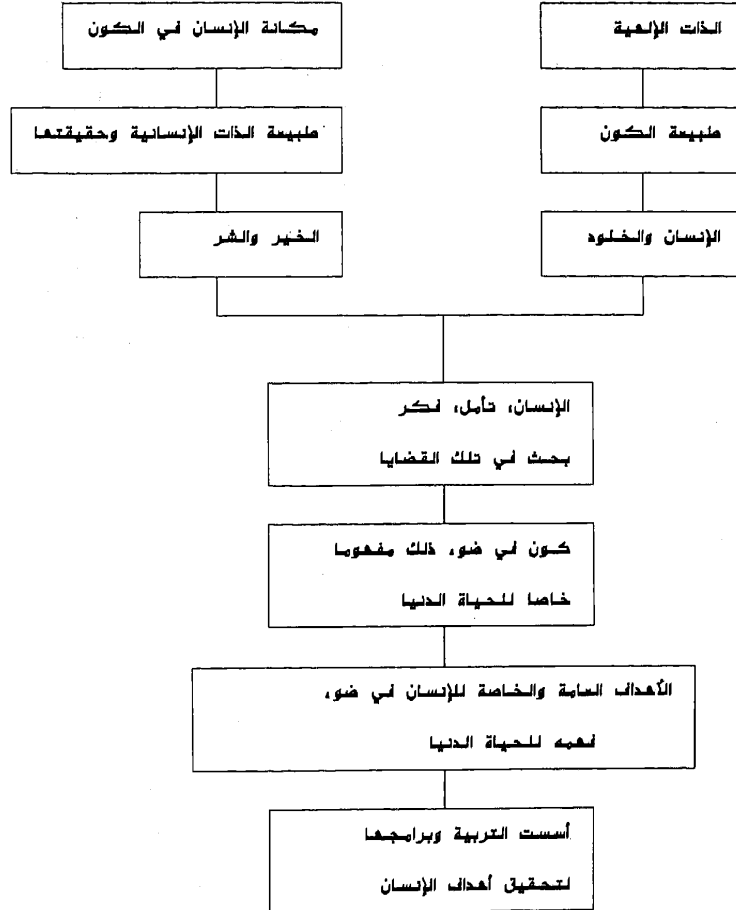
وهناك عديد من الفلاسفة، والشعراء والعلماء، الذين شدتهم الدنيا الى مفاتها وزخارفها فذهبوا الى تزيين الحياة الدنيا وما فيها من شهوات في نفوس العامة عن طريق الفكر والشعر، ولكنهم ذهبوا في نهاية الامر الى وصف الحياة الدنيا على حقيقتها. وقد اخترنا من هؤلاء الفيلسوف الشاعر عمر الخيام حيث يصف لنا الحياة الدنيا في الابيات التالية: (١)

وانما الدنيا خيال يزول	وامرنا فيها حديث يطول
زخارف الدنيا اساس الالم	وطالب الدنيا نديم الندم
فكن خلى البال من امرها	فكل ما فيها شقاء وهم
من يحسب المال احب الهمى	ويزرع الارض يريد الغنى
يفارق الدنيا ولم يختبر	في كده احوال هذى الدنى
وكل ما في عيشنا زائل	لا شيء يبقى غير طيب العمل

يوضح الشكل رقم (٢) النهج الفلسفي البشري في فهم حقيقة الحياة الدنيا عن طريق الاعتماد الكلي على العقل الانساني في التفكير، والبحث، والتأمل في الامور

١ - عمر الخيام، رباعيات الخيام، ترجمة احمد رامى، مكتبة غريب، القاهرة.

الشكل رقم (٢)



والتضاييا الوجودية المتعلقة بالكون الفيزيقي والميتافيزيقي . علنا من الإنسان ان عقله فيه من القدرات الكافية التي توصله الى لباب الامور في تلك التضاييا . وفي ضوء هذا الفهم الخاص للحياة الدنيا ذهب الانسان ليصوغ بنفسه جميع الدساتير والقوانين المتعلقة بأموره الحياتية كافة . وقد وضع اسسا خاصة للتربية لتوصله الى تحقيق اهدافه وفق مفهومه الخاص للحياة الدنيا .



## المراجع العربية

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابو زكريا النووي، رياض الصالحين، مؤسسة الرسالة، سوريا، ١٩٨٦.
- ٣- السيد محمد حسين الطباطبائي، اسس الفلسفة والمذهب الواقعي، دار المعارف للمطبوعات، بيروت.
- ٤- الغزالي، بين الفلسفة والدين، رياض الريس للكتب والنشر، لندن، ١٩٨٧.
- ٥- الغزالي، تهافت الفلاسفة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.
- ٦- بشار عبد الهادي، الحياة بعد الموت، دار ابن رشد، عمان، ١٩٨٤.
- ٧- تاريخ الفلسفة في الاسلام، ترجمة د. محمد ابو ريده، بيروت، ١٩٨١.
- ٨- حسن الحياوي، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- ٩- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.
- ١٠- رؤوف عبيد، الانسان روح لاجسد، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧١.
- ١١- عمر الخيام، ترجمة احمد رامي، رباعيات الخيام، مكتبة غريب، القاهرة.
- ١٢- محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٩٨١.
- ١٣- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٤- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

## المراجع الأجنبية

- 1\_ Brubache, Johns, Modern Philosophies of Education , 4th ed . Mc ,  
Graw\_ Hill New york, 1968.
- 2\_ Butler, J. Donald. Four philosophies and Their practice in Education  
and Religion , 3rd ed . Harper and Row , New york, 1969
- 3\_ Charles A. Bucher, Foundations of physical Education, 7th ed.  
C.V Mosby. st, Louis, 1975.
- 4\_ Clark, Gordon H. Thales To Dewey , A Hstory of philosophy  
Houghton Mifflin, Boston, 1957.
- 5\_ Earle F. Zeigler, Philosophical Foundations for Physical Health  
and Recreation Education, Prentice\_ Hall, Engle wood cliffs,  
N.J.1964.

الفصل الثاني

حقيقة النفس الإنسانية

## حقيقة النفس الإنسانية

هدفت الدراسة إلى توضيح حقيقة النفس الإنسانية من خلال طرح كافة الآراء للعلماء والفلاسفة حول هذا الموضوع منذ عهد قدماء اليونان إلى وقتنا الحاضر، وتم مقارنة تلك الآراء بما أخبرنا به الحق سبحانه وتعالى حول هذا الموضوع. وقد تبين لنا في هذه الدراسة أن النفس الإنسانية تعني ذات الإنسان بجانبيه الروحي والمادي، وليس جزءاً منه كما اعتقد أغلب الفلاسفة والعلماء. فالنفس مخلوقة، وتغنى، ويدركها الموت، وتحاسب، وتصبر، وتهوى، وتجادل وإلى غيرها من الأمور التي يقوم بها الإنسان.

## حقيقة النفس الإنسانية

### المقدمة :

يعد موضوع النفس الإنسانية من أكثر المواضيع التي شددت إنتباه الإنسان عبر تاريخه الحضاري . وقد تعددت الآراء حول هذا الموضوع من خلال البحوث والدراسات التي قدمها الفلاسفة والعلماء على اختلاف مذاهبهم الفكرية ومصادرهم العلمية عبر تاريخ الإنسانية ، لقد ابتدأ الحديث عن النفس الإنسانية منذ عهد قدماء اليونان حتى يومنا هذا ، وسيبقى هذا الموضوع من أهم المواضيع التي تشدد إنتباه العلماء والباحثين في المستقبل على اختلاف مدارسهم الفلسفية ومذاهبهم الفكرية .

وتكمن أهمية هذه الدراسة في محاولة تبيان المفهوم الحقيقي للنفس الإنسانية . بهدف تحرير هذا الموضوع من بعض الاساطير والآراء الضعيفة التي لازمت موضوع النفس عبر التاريخ . هذا بجانب مساعدة الباحثين والعلماء في مجال علم النفس وعلم الاجتماع في توجيه دراساتهم في ضوء معرفة حقيقية للنفس الإنسانية . وسوف نوضح المفهوم الاسلامي لحقيقة النفس من خلال الاعتماد على القرآن الكريم بعد أن نعرض آراء الفلاسفة والعلماء والباحثين حول هذا الموضوع .

### آراء الفلاسفة والعلماء حول النفس الإنسانية

اعتقد قدماء اليونان أن النفس «هي عقل هيلاني وعقل بالقوة ومن شأنها أنها تصير عقلا بالفعل إذا تصورت بصور المعلومات، وقبل ذلك فهي نفس محركة للبدن» (١)

يرى أفلاطون «أن النفس موجودة قبل اتصالها بالبدن، وأما حول علاقتها بالجسم فهناك بعض الغموض والتردد. فهو يحد النفس تارة بأنها فكر خالص، وطوراً بأنها مبدأ الحياة والحركة للجسم. وأن الجسم آلة؛ وتارة يضع بينهما علاقة وثيقة، فيذهب إلى أن الجسم يشغلها عن فعلها الذاتي (الفكر) ويجلب لها الهم بحاجاته وآلامه؛ وأنها هي تتهره وتعمل على الخلاص منه... كما أنه يؤمن بخلود النفس عندما قال: لما كانت النفس حياة فهي مشاركة الحياة الدنيا بالذات، ومنافسة

١ - محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦، ص ٥٢٠.

للموت بالطبع وليست تقبل الماهية ما هو ضد لها، فالنفس لا تقبل الموت... واعتقد أفلاطون أن للإنسان نفوساً ثلاثة» (١)

وذهب أفلاطون ومن تابعه إلى «أن النفس قديمة، وهذه إحدى المسائل التي وقع الخلاف فيها بين أفلاطون وأرسطو. ومن أدلة القائلين بقدم النفس أنها لو كانت حادثة لكانت غير دائمة، مع أنها باقية إلى الأبد كما ثبت بالبرهان... وكل ما هو أبدي فهو أزلي» (٢)

يعتقد أرسطو أن النفس «هي الشرط المباشر لنشاط الجسم، وحالها في ذلك بنوع ما حال ما يحوزها العالم من العلم الذي هو الشرط المباشر الذي يتيح له أن يتأمل الحقيقة، وكما أن العالم لا يتأمل الحقيقة على الدوام، كذلك فإن النفس لا تعمل بصورة دائمة، وإنما لها فترات التي تخلد فيها إلى النوم؛ بيد أنها تبقى على الدوام، على استعداد فوري ومباشر للعمل، فالنفس تعد مبدأ النشاط الحيوي المحرك اللامتحرك لهذا النشاط... وأنه لا يعتقد بانتقال النفس من جسم إلى آخر تحقيقاً لقدرها المقدر عليها، وإنما ترتبط بالجسم ارتباطاً بالبصر بالعين» (٣)

لقد صرح أرسطو بأن قوى النفس خمسة «النفس النامية، والنفس الحاسة، والنفس الناطقة، والنفس النازعة، والنفس المحركة» (٤)

لقد ذهب أرسطو وأكثر الفلاسفة والمتكلمين، وأهل الأديان جميعاً إلى «أن النفس حادثة، وأن وجودها مقارن لوجود البدن، واستدلوا بأدلة منها» أن النفس لو كانت قديمة لم يلحقها نقص وفتور، لأن القديم يستقر على حال واحدة، مع أن المشاهد خلاف ذلك، ومنها، أن النفس لو كانت موجودة في الأزل قبل الأبدان لكانت إما واحدة، وإما متعددة بحسب الماهية، وكلاهما باطل» (٥)

تأثر الكندي بكل من أفلاطون وأرسطو في ما يتعلق بمشكلة النفس والعقل «فهو في حده النفس يسوق عدة تحديدات بعضها يشير بوضوح إلى الرأي

١ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧، ص ٩١، ١٥٥.

٢ - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ص ٧٤.

٣ - أميل برهبييه، ترجمة جورج طرابيشي، تاريخ الفلسفة، الجزء الأول، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٨٢.

٤ - يوسف كرم، الفلسفة اليونانية، ص ١٥٦.

٥ - محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، ص ٧٣.

الأفلاطوني والآخر يشير إلى الرأي الأرسطي، ففي رسالته الخاصة بـ «الحدود» يقول في تعريفه للنفس: أنها تمامية جرم ذي آلة قابل للحياة. ويقول هي استكمال أول لجسم طبيعي متحرك من ذاته بعدد مؤلف. هذا هو حد النفس عند الكندي، وهو حد اشتمل على الرأي الفيثاغوري وعلى رأي بعض الفلاسفة الطبيعيين الذين ذهبوا إلى أن النفس مؤلفة من العناصر... إن النفس عند الكندي مرتبطة بالجسم، لكن هذا الارتباط ليس ارتباطاً دائماً ثابتاً. ولهذا كان قوله إنها «استكمال» أو «تمامية» وهذا معناه أن الوجود الخاص بالنفس هنا لا يعني البتة فناء النفس بفناء الجسم» (١)

يرى الفارابي من منطق أرسطي «أن النفس لا وجود لها قبل البدن، فالنفس تكون ملازمة للبدن. وما يميز البدن من النفس هو أن هذه لاصورة ولا شكل لها، وهي خالدة لأنها من عالم الأمر، أما البدن ففاسد لأنه من عالم الخلق، فالنفس لا تنقسم، ولا تتجزأ، ولا تتبعض ولا يجوز أن يشار إليها... وقد اتبع الفارابي في تقسيم النفس التقسيم الذي نادى به من قبل أفلاطون وأرسطو» (٢)

النفس الانسانية من أهم الموضوعات التي شغلت ابن سينا واحتلت مكاناً بارزاً في فلسفته. فهو يخصص لها رسائل كاملة بلغت أكثر من ثلاثين رسالة. ويفرد ابن سينا للنفس القصص الرمزية مثل قصة «حي بن يقظان» وقصة «سلامات وأبال» كما أنه يخص النفس البشرية بفصول عدة في أهم مؤلفاته الفلسفية «كالشفاء» و «النجاة» و «الاشارات» (٣)

يعتقد ابن سينا «أن الانسان يتكون من جوهرين متميزين: جوهر مادي وجوهر روحي... فالجسم يؤثر في النفس ويتأثر بها، وكذلك الحال فيما يتعلق بالنفس... فالجسم هو المادة والنفس هي الصورة... انه لا وجود للنفس قبل وجود البدن» (٤)

١ - فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢، ص ١٧٣ - ١٧٤.

٢ - المصدر السابق ص ٢٥٧ - ٢٥٨.

٣ - فتح الله خليف، فلاسفة الاسلام، ص ١٥٨.

٤ - فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، ص ٣٣١ - ٣٣٢.

«إن ابن سينا كان أرسطيا فيما يتعلق بوجود النفس في عالمنا هذا، أفلاطونيا في قوله ببقائها وفناء البدن» (١)

«إن النفس عند الغزالي رغم أنها جوهر قائم مستقل عن البدن إلا أنها على صلة قوية به، فهي تؤثر فيه وتتأثر به... فالبدن لا يوجد إلا بالنفس، لكنه يرى من جهة ثانية، أن النفس توجد بعد فناء البدن. فالموت لا يمتد إلى النفس بل إنه يصيب البدن وحده» (٢). ورغم أن أبا حامد الغزالي قال إن النفس والقلب والروح والعقل الفاظ مترادفة تدل على النفس. إلا أنه فرق بين النفس والروح.

فقال عن الروح:

«أما الروح فيطلق ويراد به البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ بواسطة العروق وإلى جميع البدن فيعمل في كل موضع بحسب مزاجه، واستعداده عملا، وهو مركب الحياة. فهذا البخار كالسراج، والحياة التي قامت به كالضوء، وكيفية تأثيره في البدن ككيفية تنوير السراج أجزاء البيت. ويطلق ويراد به المبدع والصادر من أمر الله تعالى الذي هو محل العلوم والوحي والإلهام. وهو من جنس الملائكة مفارق للعالم الجسماني قائم بذاته ويطلق أيضا ويراد به الروح الذي في مقابله جميع الملائكة. وهو المبدع الأول وهو روح القدس. ويطلق أيضا ويراد به القرآن على الجملة» (٣).

أما النفس فتطلق بمعنيين «أحدهما أن يطلق ويراد به المعنى الجامع للصفات المذمومة وهي القوى الحيوانية المضادة للقوى العقلية... والثاني أن يطلق ويراد به حقيقة الآدمي وذاته فإن نفس كل شيء حقيقة وهو الجوهر الذي هو محل العقولات. وهو من عالم الملكوت ومن عالم الأمر» (٤)

يرى ابن رشد «أن النفس متصلة بالجسم اتصال الصورة بالمادة وهو يخالف ابن سينا في قوله بنظرية النفوس المتعددة في الخلود أي خلود النفوس جملة لأن النفس لا وجود لها إلا كمكاملة للجسم المتصل بها» (٥)

١- ابن سينا، نظرية المعرفة مع بيان مصادرها وآثارها، ص ١٣٨.

٢- فيصل بدير عون، الفلسفة الإسلامية في المشرق، ص ٤٢٨ - ٤٣٩.

٣- أبو حامد الغزالي، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، الطبعة الثانية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٥، ص ١٦.

٤- المصدر السابق، ص ١٥.

٥- محمد جمعة، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص ١٦٦.



يعتقد اخوان الصفا «أن النفس إذا فارقت هذا الهيكل فليس يبقى ولا يصحبها من آثار هذا الجسد إلا ما استفادت من المعارف الربانية والأخلاق الجميلة، فإذا رأت تلك الصورة فرحت بها، وذلك ثوابها ونعيمها... وشرحوا معنى القيامة بأنه إذا فارقت النفس الجسد قامت قيامتها، قال محمد صلى الله عليه وسلم «من مات فقد قامت قيامته» إنما أراد قيام النفس لا الجسد، لأن الجسد لا يقوم عند الموت بل يقع وقوعاً لا يقوم بعده» (١)

تناول ابن مسكويه الكلام عن خلود النفس فأثبت على طريقتة «أن النفس جوهر حي باق لا يقبل الموت ولا الفناء وأنها ليست الحياة بعينها بل تعطي الحياة بكل ما توجد فيه» (٢)

يرى أبو البركات البغدادي «أن النفس مرتبطه بالجسم ولها من قواها مالا تستطيع ممارسته بدون حلولها في البدن، كما أنها جوهر من طبيعته أن يفارق البدن إذا وصل إلى درجة عليا من الكمال حيث الحياة الفاصلة في العالم الأعلى إلى جوار الملائكة والأشخاص الروحانية، وحيث تنعم بمشاهدة الله ومعرفة الأمور الإلهية» (٣)

يعتقد ديكرت «أن النفس جوهر لا يحتاج في وجوده إلى أي شيء آخر، كما أنها شيء تام... فالنفس روح بسيط مفكر. وهذا يفيد أن كل ما هو روحي تابع للنفس وكل ما هو جسمي تابع للجسد. إذن ليس في مفهوم النفس شيء مما يخص الجسد، وليس في مفهوم الجسد شيء مما يخص النفس» (٤)

«لقد هاجم (كانت) بشدة كافة الاستدلالات الفاسدة التي تدل على جوهرية النفس وبساطتها، وشخصية النفس ومثالياتها. لذلك فو ينكر جوهرية النفس وخلودها، وكونها بسيطة» (٥)

يعتقد أبو بكر الأصبم أن النفس «هي البدن بنفسه لا غير، ولا يعقل إلا الجسم الطويل العريض العميق الذي يرى ويشاهد، وأن الحياة والروح ليسا شيئاً سوى

١ - المصدر السابق، ص ٣١٨.

٢ - المصدر السابق، ص ٣١٨.

٣ - محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، ص ٥٣٣ - ٥٣٤.

٤ - عادل العواد وغسان فينيانيس، المدخل إلى الفلسفة، ص ٢٧١.

٥ - المصدر السابق، الفصل الخامس.

#### الجسد» (١)

يرى جعفر بن حرب «أن النفس عرض من الأعراض يوجد في جسم الإنسان، وهو أحد الآلات التي بها يستعين الإنسان على العقل كالصحة والسلامة وما أشبه، وأنها غير موصوفة بشيء من صفات الأجسام والجواهر» (٢)

ذهب بهاء الدين العاملي مذهب أهل الصوفية في النفس الانسانية «فيرى أنها لطيفة ربانية روحانية لها مع الجسم تعلق التدبير والقيادة، وهي إن استطاعت حيازة بعض الكمالات في هذه الدنيا، حصل لها استعداد وقبول أنوار الفيض الإلهي أو الإشراف الرباني وعادت إلى أصلها ومنشأها حيث بحر الحقيقة التي كانت سابحة فيه قبل إيداعها في الجسد» (٣)

يرى مهدي شمس الدين «أن النفس حالة في الجسد بأمر من الله وهي بطبيعتها مغايرة له كحلول الدهن في السمس» (٤)

يعتقد العلامة الطباطبائي بتجرد النفس عن البدن كونها أمراً وراء البدن وحكمها غير حكم البدن وسائر التركيبات الجسمية واستند بذلك على معان تعطيلها الآيات الشريفة من أحكام تغاير الأحكام الجسمية وتتنافى مع الخواص المادية الدنيوية من جميع حياتها، فالنفس الإنسانية غير البدن... أما بالنسبة إلى علاقة النفس بالجسم فإنه يرى أن النفس بالنسبة إلى الجسم بمنزلة الثمرة من الشجرة والضوء من الدهن بوجه بعيد، وبهذا يتضح كيفية تعلقها بالبدن ابتداءً، ثم بالموت تنقطع العلاقة، وتبطل المسكة، فهي أول وجودها عين البدن، ثم تمتاز بالإنشاء منه، ثم تستقل عنه بالكلية فهذا ما تفيد الآيات الشريفة» (٥)

يرى المجلسي أن الآراء حول حقيقة النفس بلغت أربعة عشر قولاً، أسخفها القول بأن نفس الإنسان هي الله بالذات، وأضعفها أنها الباء، والهواء، والنار فقط، أو هذه العناصر الثلاثة مجتمعة، لأنه لا حياة مع فقدان أحدها. وأشهر الأقوال قولان: الأول أنها جوهر مجرد عن المادة وعوارضها، أي ليست جسماً ولا حالة في جسم،

١ - أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين ص ٣٣٦.

٢ - المصدر السابق، ص ٣٣٧.

٣ - مهدي فضل الله، من اعلام الفكر الفلسفي الاسلامي، ص ١٢٦.

٤ - المصدر السابق، ص ٢٠٠.

٥ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الأول صفحة ٣٥٠-٣٥٢.

وإنما تتصل به اتصال تدبير وتصرف، وبالموت ينقطع الاتصال، وعلى هذا الرأي جمهور الفلاسفة الإلهيين، وأكابر الصوفية، والمحققين من علماء الكلام كالطوسي والغزالي، والرازي. والقول الثاني: أنها جوهر مادي، ذهب إليه جماعة من المعتزلة وكثير من المتكلمين. (١)

لقد اتفق الفلاسفة والمتكلمون على أن النفس باقية بعد مفارقتها للبدن ولكنهم اختلفوا في نوع الدليل الذي دل على أنها باقية إلى الأبد. (٢)

وعلى الرغم من أن أغلب الفلاسفة الإسلاميين قالوا بروحانية النفس واستشهدوا على ذلك ببراهين بعضها شرعي وبعضها عقلي، فإن هناك طائفة من المفكرين قالوا بملادية النفس وأنكروا طبيعتها الروحانية، فأما الذين قالوا بملادية النفس فقد كانوا ثلاثة أقسام. (٣)

(أ) منهم من أنكر النفس جملة.

(ب) ومنهم من قال إنها جسم أو إنها الجسم نفسه أو إنها عرض من أعراضه.

(ج) منهم من قال إنها جسم لطيف.

والخلاف بين مفكري المسلمين حول طبيعة النفس كان متصلاً بخلاف اليونانيين حول هذا الموضوع، فقد كان أفلاطون وأفلوطين والمدرسة الاسكندرانية تقول بروحانية النفس. كما أن الابيقوريين والرواقيين يقولون بملاديتها أما أرسطو فقد حاول الوقوف على الوسط بين الملادين والروحانيين فقدم حله المعروف أن النفس صورة الجسد ولكنه في الواقع كان أقرب إلى القول بملادية النفس ولذلك خالفه أغلب فلاسفة الإسلام متابعين في ذلك أفلاطون. (٤)

يبدو بوضوح وجلاء من الآراء التي عرضت في الصفحات السابقة عدة قضايا أساسية أولاهها، أن الفلاسفة والعلماء الذين تحدثوا عن النفس الانسانية لم يميزوا بين النفس والروح ظناً منهم أن النفس هي الروح، أما القضية الثانية، فهي أن

١ - المجلسي، كتاب السماء والعالم، المجلد الرابع عشر.

٢ - محمد جواد مغنبة، معالم الفلسفة الإسلامية، ص ٧٤.

٣ - عبد الكريم القماز، الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة القاهرة ١٩٨١، ص ١١٦.

٤ - حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥، ص ٢٥٠.

الآراء كافة التي طرحت حول موضوع النفس لا تتعدى الآراء التي طرحها قدماء اليونان وفلاسفتهم، وإشارة الى القضية الثالثة، فإن فلاسفة الشرق وكتابهم قد تأثروا بشكل قوي ومباشر بالآراء اليونانية حين أعادوا صياغة أقوالهم وآرائهم بطريقة توفيقية أو تكميلية بين الدين الاسلامي والفلسفة، والقضية الرابعة تكمن في اختلاف العلماء والفلاسفة حول تعدد النفس وأنواعها فهي ثلاثة عند أفلاطون وخمسة عند ارسطو، أما القضية الخامسة فتدل على اختلاف الآراء حول كون النفس قديمة أم حادثة، والقضية الاخيرة تشير إلى إجماع الآراء على أن النفس لا تغنى ولا تذوق الموت لأنها جوهر وكل ما هو جوهر فهو خالد.

إن هذه الآراء المتضادة قد أثرت بشكل مباشر وسلبى على الدراسات العلمية حول موضوع علم النفس لأن كل عالم أو باحث ذهب في إجراء بحوثه ودراسته وفقاً لما يعتقد به حول حقيقة النفس الانسانية وطبيعتها.

قال اريك فروم «إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب في أغلب الاحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الانسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر الى موضوعه الرئيسي وهو الروح. وكان معنيا بالميكانيزمات وتكوينات ردود الأفعال والغرائز، دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزه أشد التمييز للانسان: كالحب والعقل، والشعور، والقيم» (١)

وقد عبر الكسيس كارل في كتابه «الإنسان ذلك المجهول» عن الدراسات الانسانية التي حاولت أن توضح لنا طبيعة الانسان فقال، «لقد بذل الجنس البشري مجهوداً جباراً لكي يعرف نفسه. ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزاً من الملاحظات التي كدسها العلماء والفلاسفة والشعراء وكبار الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطلعنا أن نفهم جوانب معينة فقط في أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسان ككل إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة» (٢)

١- اريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، القاهرة، مكتبة غريب، ١٩٧٧، ص ١١.

٢- الكسيس كارل، الانسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٣.

«إن علماء النفس حصروا أنفسهم في دراسة الظواهر النفسية التي يمكن فقط ملاحظتها ودراستها دراسة موضوعية، وتجنبوا البحث في كثير من الظواهر النفسية الهامة التي يصعب إخضاعها للملاحظة أو البحث التجريبي. وبذلك ابعثوا النفس ذاتها عن دراساتهم، لأن النفس شيء لا يمكن ملاحظته، وقصروا دراساتهم على السلوك الذي يمكن ملاحظته وقياسه. وقد نادى بعضهم بتغيير اسم «علم النفس» وتسميته «علم السلوك» لأن علم النفس الحديث يدرس السلوك ولا يدرس النفس»<sup>(١)</sup>

وحسبنا أن نعلم على سبيل المثال لا الحصر أن أساس مذهب اخوان الصفا بني على «أن الشريعة الإسلامية تدنس بالجهالات واختلطت بالضلالات ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والصلحة الاجتهادية، وأنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة المحمدية فقد حصل الكمال»<sup>(٢)</sup>. ويدل مذهبهم على أن الهدف المنشود هو تكميل الشريعة الإسلامية بالأفكار الفلسفية اليونانية. ولذلك قال ابن تيمية «ما أظن الله يغفل عن المأمون، ولا بد أن يعاقبه على ما أدخله على هذه الأمة»<sup>(٣)</sup>. لأن الفلسفة اليونانية ترجعت إلى العربية في عهد المأمون وفتحت لها الأبواب كافة لتصل إلى عقول العامة والخاصة في المجتمع.

### النفس في ضوء القرآن الكريم

إن النفس وماهيتها في ضوء الفكر الإسلامي تختلف بشكل حاد عن ماهيتها في ضوء الأقوال والآراء التي تمخضت عن الدراسات الإنسانية. فالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يتجسد فيهما قول الفصل في هذا الموضوع الهام. فقد ورد لفظ النفس في القرآن الكريم مئات المرات في ألفاظ متعددة وهي: النفس، ونفسك، ونفسي، ونفسها، ونفسي، والنفوس، ونفوسكم، والأنفس، وأنفسكم، وأنفسنا، وأنفسهم، وأنفسهن. والمتأمل في جميع هذه الآيات القرآنية الحكيمة يجد أنها تخاطب الإنسان وليس جزءاً منه كما اعتقد بعضهم.

«لم يفصل الإسلام في تناوله للطبيعة الإنسانية بين ما هو جسي وما هو

١ - محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ١٩٨٩، ص ٢٢.

٢ - محمد جمعه. تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص ٣٥٣.

٣ - المصدر السابق، ص ٣٥٣.

نفسى فحين أطلق القرآن الكريم لفظ النفس، أكد في هذا الإطلاق على أنها هي والجسم مظهران لشيء واحد هو الإنسان... فلفظ «النفس» في الآيات الكريمة دل على الإنسان ككل أو الذات الإنسانية بعنصريها المادي والمعنوي» (١) والإنسان كما نعلم جميعاً مكون من جزئين بطريقة فريدة شاء الخالق سبحانه وتعالى أن تكون بهذه الصورة البديعة. فالجزء الأول من الإنسان يمثل الروح أو الجانب الروحي الذي يعد جزءاً من روح الله سبحانه وتعالى، والجزء الثاني من الإنسان هو الجانب المادي الملموس، المتمثل في جميع أعضاء وأجهزة الجسم المختلفة، وهذا ما نسعى إلى توضيحه في هذه الدراسة من خلال عرض للذات القرآنية الحكيمة في عشرة مبادئ أساسية وهي: مبدأ الخلق، والحرية، والتكليف، والموت، والمثل أمام الحق للحساب، والخلود، والحفظة، وجهل الأمور الغيبية، وأنواع النفس، ونماذج من الآيات القرآنية.

### المبدأ الأول - خلق النفس

أخبرنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه خلق جسم آدم عليه السلام من طين ونفخ فيه من روحه جل جلاله ليصبح إنساناً، ثم أمر الملائكة جميعاً أن تسجد لهذا البشر الذي خلقه بهذه الصورة البديعة. فسجدوا له جميعاً إلا إبليس أبى واستكبر على هذا البشر وكان من الغاوين. ويبدو ذلك في قوله عز من قائل:

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٢)

كما أخبرنا الباري عز وجل أن جميع النفوس البشرية خلقت من نفس واحدة، إذ خلق سبحانه وتعالى من هذه النفس زوجها، وعن طريق التزاوج والتكاثر الذي نألفه ونعرفه تمام المعرفة خلقت بقية الأنفس البشرية. ويشير الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته إلى النفس الأولى على أنها هي نفس سيدنا آدم عليه السلام ويظهر ذلك بجلاء في قوله تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...» (٣)

١- حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥، ص ٢٥١.

٢- سورة ص آية ٧١ - ٧٢.

٣- سورة النساء آية ١.

قال تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا  
الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ» (١)

وقال تعالى:

«الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ  
إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيًّا فَمَرَّتْ بِهِ فَكُلَّمَا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ  
رَبُّهُمَا لَمَنْ أَنْتَبِنَا صَالِحًا لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاعِرِينَ» (٢)

توضح الآيات الحكيمة السابقة بوضوح لا يرتابه شك أو ظنون أن النفس  
الاولى خلقها الحق سبحانه وتعالى بطريقته. وقد خلق منها زوجها في المرحلة  
الثانية، فأصبح التماسل والتكاثر في النفوس البشرية عن طريق الزواج بالطريقة  
المألوفة لنا جميعا. وهذا جبيعه يدحض قول القائلين بتقديم النفس الانسانية، فهي  
مخلوقة من مخلوقات الحق سبحانه وتعالى، بدأ خلقها في السابق ومازال يتم خلقها  
في كل لحظة عن طريق الحمل واتصال الروح بالجسد داخل الرحم. فهي عملية  
مستمرة مادامت الحياة الدنيا باقية.

### المبدأ الثاني - النفس وحرية الاختيار

إن أعظم ميزة أساسية تميز بها النهج الإسلامي المنير حرية الاختيار التي  
يتجلى فيها تكريم المولى عز وجل للإنسان واحترام إرادته وفكره ومشاعره بأن  
ترك أمره لنفسه بعد أن أثار له جميع السبل الموصلة للحق المنبعث من عنده، كما بين  
له طرق الهوى والضلال التي تقوده إلى الهلاك والدمار والخسران المبين. وبذلك  
يكون حراً ليختار ما يريد وأن يتحمل تبعه أعماله وأفعاله. ويبدو ذلك في قوله عز  
من قائل في الآية الحكيمة التالية:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ  
وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْقِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ  
عَلِيمٌ» (٣)

وقد بين لنا خالق النفس الانسانية سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم أن الحق  
سبحانه وتعالى قد ألهم النفس الانسانية كلتا السبيلين سبيل الفجور وسبيل التقوى.  
ويبدو واضحا جليا في قوله تعالى:

١ - سورة الانعام آية ٩٨.

٢ - سورة الاعراف آية ١٨٩.

٣ - سورة البقرة آية ٢٥٦.

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا\* فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا\* قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا\* وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا» (١)

«وَكُؤُنَا شِينَا لَا تَنِينَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَئِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٢)

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلِتَنْظُرُ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (٣)

«فَأَمَّا مَن طَغَى\* وَاتَّرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا\* فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى\* وَأَمَّا مَن حَاطَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى\* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى» (٤)

يبدو بوضوح من الآيات الكريمة السالفة الذكر أن الحق سبحانه وتعالى لو شاء بإرادته المطلقة لوهب الهدى لجميع النفوس الإنسانية ولكنه سبحانه وتعالى بعد أن ألهم هذه النفوس سبيل الفجور وسبيل التقوى وهبها حرية الاختيار. وفي ضوء اختيارها وأعمالها في الحياة الدنيا يتحدد مصيرها في اليوم الآخر كما وضح لنا أن المفلحين من البشر هم الذين يختارون تزكية أنفسهم باتباع جانب التقوى في هذه النفوس، وأما الخائبون فهم الذين يختارون اتباع جانب الفجور والضلالة في الانفس البشرية.

### المبدأ الثالث - النفس و تكليف الحق لها

إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف النفوس البشرية في جميع أمور الحياة بموجب الفكر الاسلامي حسب طاقاتها المتفاوتة إذ تختلف هذه النفوس من حيث القدرات والظروف التي تعيشها والامكانيات المتاحة لها. فقد شاعت حكمته سبحانه وتعالى أن تقوم كل نفس بما عليها تجاه خالقها من طاعة وعبادة وفق القدرات الذاتية الكامنة في كل نفس.

قال تعالى:

«لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَغْطَيْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا كُنْتُمْ

١ - سورة الشمس، آيه ٧-١٠.

٢ - سورة السجدة، آيه ١٢.

٣ - سورة الحشر، آيه ١٨.

٤ - سورة اللازعات، آيه ٣٧-٤١.



على الذين من قبلنا ربنا ولا نصليها ما لا طاقة لنا به واعف عنا وافر  
لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين» (١)

### المبدأ الرابع - النفس والموت

في الوقت الذي اعتقد فيه أغلب الفلاسفة والباحثين بأن الموت لا يدرك  
النفس ظنا منهم أنها جوهر دائم لا يعرف الفناء، فإن الحق سبحانه وتعالى خالق  
الأنفس البشرية وجامعها إلى يوم الحساب يطلعنا في كتابه الحكيم على حقيقة الأمر  
وسداده حيث توجد الآيات القرآنية الحكيمة التي تشير بوضوح وجلاء إلى حقيقة  
أن النفس بل جميع النفوس ستخوض تجربة الموت دون جدال أو مناورة في ذلك.  
فقد تحدثت الآيات بقرار قطعي وبصورة جازمة بأن جميع النفوس سيدركها الموت  
ويعد هذا الأمر من النواميس الطبيعية التي أقرها الحق سبحانه وتعالى في هذا  
الوجود.

قال تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا يُؤَخَّرُونَ أَجُورُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ  
زُهِجَ عَنْ النَّارِ وَادْخُلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَىٰ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ  
الْعَرُورُ» (٢)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا  
تُرْجَعُونَ» (٣)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (٤)

كما أخبرنا الحق سبحانه وتعالى أن النفس البشرية لا يمكن أن يدركها الموت بأي  
شكل من الأشكال أو بأي وسيلة كانت إلا بإذنه جلّت وتعالّت قدرته.

قال تعالى:

«وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ  
الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي

١ - سورة البقرة، آية ٢٨٦.

٢ - سورة آل عمران، آية ١٨٥.

٣ - سورة الأنبياء، آية ٣٥.

٤ - سورة العنكبوت، آية ٥٧.

## الشَّاكِرِينَ» (١)

وقد حرم الباري عز وجل قتل النفس واعتبر قتلها موبقة كبيرة باستثناء النفس التي قدمت من الأعمال وأنماط السلوك ما تستحق عليه القتل وذلك جميعه يجري في ضوء الحق الذي وضعه لنا الحق تبارك وتعالى في كتابه المنير. ولا يجوز بأية حال من الأحوال قتل النفس إلا بالحق وهي الحالة الوحيدة التي يجوز لنا فيها أن نقدم على قتل النفس الانسانية.

قال تعالى:

«مَنْ أَهْلَ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ رَسُولًا بِالْآيَاتِ ثُمَّ إِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ عَلَى الْآلِ تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَاعِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذِكْرٌ وَمَنْ يَعْصِمْ يَفْعَلْكُمْ تَعْقِلُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا» (٤)

لذلك جاء استنكار سيدنا موسى عليه السلام على الرجل الصالح عندما قتل غلاما دون أن يوضح الأسباب لسيدنا موسى. وبعد أن أعلمه بحقيقة الأمر تبين له أن قتل النفس في تلك الحادثة لم يكن شيئا نكرا.

## المبدأ الخامس - المثل أمام الحق سبحانه وتعالى

إن المثل أمام الحق سبحانه وتعالى من الأمور التي أخبرنا بها الباري عز وجل في كتابه الحكيم حيث بين لنا أن جميع النفوس البشرية سوف تجد جميع ما قدمت في الحياة الدنيا من أعمال وأفعال واعتقادات محضرا أمامهم غير منقوص سواء

١ - سورة آل عمران، آيه ١٤٥.

٢ - سورة المائدة، آيه ٣٢.

٣ - سورة الانعام، آيه ١٥١.

٤ - سورة الاسراء، آيه ٣٣.

أكانت الاعمال خيرية أم متصلة بجانب الشر. وفي تلك اللحظة تعلم كل نفس علم اليقين ما قدمت لهذا اليوم الجامع الذي تحاسب فيه النفوس وفق ما قدمت، وتود النفوس التي عملت السوء أن تتبرا من هذه الأعمال والأفعال التي بجانب الخير أو تفتدي ذواتها بكل ما تملك. كما يطلعنا الباري سبحانه وتعالى على حقيقة أخرى ستقع في هذا اليوم الفاصل وهي أن النفوس الإنسانية لا تستطيع أن تقدم العون أو المساعدة أو افتداء بعضها بعضاً حين يتم الحساب لكل نفس وفق ما قدمت من أعمال خيرية أو شرية. ودليل ما ذكرنا من حقائق في هذا الموضوع يكمن في قوله تعالى في الآيات التالية:

«يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّضَاعاً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُخَذُّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ» (١)

«هَٰذَاكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَنَزَّلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (٢)

«وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٣)

«وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ» (٤)

«وَإِذَا الْحَاجِمُ سَعَرَتْ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُرِلَتْ عَمِلَتْ نَفْسٌ مَّا أَهْضَرَتْ» (٥)

«وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ» (٦)

«يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ» (٧)

١- سورة آل عمران، آية ٣٠.

٢- سورة يونس، آية ٣٠.

٣- سورة البقرة، آية ١٢٣.

٤- سورة البقرة، آية ٤٨.

٥- سورة الكوثر، آية ١٢ - ١٤.

٦- سورة الانشطار، آية ١٧ - ١٩.

٧- سورة النحل، آية ١١١.

## المبدأ السادس - النفس والثواب والعقاب

إن النفس الانسانية سوف تبعث في اليوم الآخر من أجل إنزال العقوبة على النفوس التي كانت تعمل أعمال السوء في الحياة الدنيا ولم تفز برضا الحق سبحانه وتعالى حيث سيكون مصيرها في نار جهنم وبئس المصير وفق ما كسبت هذه النفوس، وكل نفس سوف تلقى ما تستحق من عقاب دون أن تظلم شيئا، وسوف ترى جميع ما قدمت حاضرا مشهودا حتى وإن كان مثقال حبة من خردل. وهذه النفوس التي سلكت طريق الفجور وكانت تحث على عمل السوء فلن يكون مصيرها إلا الهلاك والخسران في نار جهنم. أما النفوس المطمئنة التي أنابت واستقامت للحق سبحانه وتعالى، واتبعت جانب التقوى الذي زرعه الحق سبحانه وتعالى فيها وابتعدت عن جانب الفجور فإن الجنة هي المأوى والثواب الأوفى لهذه النفوس الخيرة التي اتخذت من الخير والتقوى سبيلا موصولة لرضا الحق سبحانه وتعالى. وتوضح لنا الآيات التالية صحة ما ذكرنا حول هذا الموضوع.

قال تعالى:

«إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ» (١)

قال تعالى:

«وَنُفِخَ الصُّورُ لِلْيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ» (٢)

قال تعالى:

«فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ» (٣)

قال تعالى:

«الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (٤)

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي \* وادْخُلِي جَنَّاتِي» (٥)

١ - سورة طه، آيه ١٥.

٢ - سورة الانبياء، آيه ٤٧.

٣ - سورة يس، آيه ٥٤.

٤ - سورة غافر، آيه ١٧.

٥ - سورة الفجر، آيه ٢٧ - ٣٠.

## المبدأ السابع - النفس والقضايا الغيبية

إن النفس الانسانية لا تستطيع أن تجتلي القضايا الغيبية التي أرادها البارئ عز وجل أن تكون خارج دائرة معلومات النفس، فهي لا تستطيع أن تعرف مثلاً ماذا سوف تكسب في المستقبل سواء القريب منه أم البعيد، كذلك لا تستطيع أن تعرف في أي موقع سوف يحل عليها الموت، فهي عاجزة أن تعرف أي شيء أخفي عنها. ويبدو وضوح تلك الحقائق في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» (١)

قال تعالى:

«فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (٢)

## المبدأ الثامن - النفس والحفظ الملائمون لها

إننا لم نعلم إلا الشيء البسيط عن الحفظ الذي وكلوا بكتابة وحفظ كل ما يصدر عن النفس الإنسانية من أمور متصلة بجانب الفجور وما ينشأ عنه من أعمال وأنماط سلوكية، وبجانب التقوى وما ينتج عنه من أنماط سلوكية خيرية. فقد أبلغنا الحق سبحانه وتعالى عن النفس الإنسانية وما يلازمها من حفظه. فالآيات القرآنية الحكيمة التالية توضح لنا ذلك:

قال تعالى:

«إِنَّ كُلَّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ» (٣)

قال تعالى:

«وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ» (٤)

١ - سورة لقمان، آية ٣٤.

٢ - سورة السجدة، آية ١٧.

٣ - سورة الطارق، آية ٤.

٤ - سورة ق، آية ٢١.

## المبدأ التاسع - أنواع النفس الإنسانية

أخبرنا الباري عز وجل في كتابه الحكيم الذي أرسله نورا وهدى للبشر جميعا ليقودهم إلى نعيم الدنيا والآخرة أن هناك نوعين من النفس الإنسانية. النفس التي تسير في ضوء ما بين الحق سبحانه وتعالى لها من خير في شتى الأمور الحياتية وتسمى بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم ذاتها عندما تقع في أي خطأ أو أية معصية مخالفة لشرع الله سبحانه وتعالى، وهذه النفس تسمى في اليوم الآخر بالنفس المطمئنة التي عندما تبعث للحساب والعقاب أمام الحق سبحانه تعالى تكون مطمئنة لما قدمت لذاتها من أعمال ترضي وجه الحق سبحانه وتعالى. أما النوع الثاني من النفس الإنسانية، فهي التي أدبرت عن طريق الحق سبحانه وتعالى واتبعت جانب الفجور وما ينبثق عنه من أعمال وأنماط سلوكية مخالفة لقواعد الحق التي أرساها لنا الباري عز وجل في كتابه المنير، وهذه النفس تتوق إلى عمل الأشياء السيئة، فهي تسمى بالنفس الأمارة بالسوء.

والآيات القرآنية الحكيمة التالية توضح لنا ذلك:

قال تعالى:

«وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (١)

قال تعالى:

«وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ» (٢)

وقد أشار الحق سبحانه وتعالى إلى النفس اللوامة في اليوم الآخر ووصفها بالنفس المطمئنة لما عملت من خير في الحياة الدنيا لتتعم بنوره في اليوم الآخر. ويبدو ذلك واضحا جليا في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي» (٣)

وجميع ذلك يخالف مخالفة صريحة الآراء كافة الأفلاطونية والأرسطية التي تحدثت عن قوى النفس وأنواعها.

١ - سورة القيامة، آية ٢.

٢ - سورة يوسف، آية ٥٢.

٣ - سورة النجر، آية ٢٧ - ٣٠.

## المبدأ العاشر والأخير - نماذج من الآيات القرآنية

سنورد هنا بعضا من الآيات القرآنية الحكيمة التي تحمل في طياتها معاني مباشرة تدل على أن النفس تعني الإنسان بجزييه المادي والروحي .

قال تعالى:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَهْلِي فَاغْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» (١)

فكلمة نفسي تعني بالتحديد سيدنا موسى عليه السلام

قال تعالى:

«قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ» (٢)

فالنفس هنا تعني الرجل الذي قتله سيدنا موسى عليه السلام في أرض مصر .

قال تعالى:

«فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِبَا غُلَامًا فَأَقْتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا» (٣)

فكلمة نفس هنا تعني الغلام الذي قتله الرجل الصالح

قال تعالى:

«.... وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ...» (٤)

فكلمة نفس هنا تعني المرأة المؤمنة .

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُتِلُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غُلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» (٥)

فكلمة أنفسكم هنا تعني بوضوح المؤمنين .

١ - سورة المائدة، آيه ٢٥ .

٢ - سورة القصص، آيه ٢٣ .

٣ - سورة الكهف، آيه ٧٤ .

٤ - سورة الاحزاب، آيه ٥٠ .

٥ - سورة التحريم، آيه ٦ .

قال تعالى:

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» (١)

فكلمة أنفسهم هنا تعني المخاطبين من أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، وكلمة نفسه تعني رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واضح من الآيات السابقة أن كلمة نفس تدل على ذات الشيء كليا وليس جزئيا سواء أكان استخدام الكلمة بصيغة المفرد أم بصيغة الجمع. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى يخاطب عباده محذرا من مغبة ابتعادهم عن سبيل الحق والخير التي وضحها لهم.

قال تعالى:

«لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتُوا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (٢)

فكلمة «نفسه» تعني هنا الحق سبحانه وتعالى وليس جزءا منه. فالنفس تجزى، وتكلف، وتوفى، وتكسب، وتجادل، وتلوم، وتلام، وتقول، وتنتظر، وتنتهي عن الهوى، وتشتهي، وتهوى، وتلمز، وتضل، وتوسوس، وتهتدي، وتؤمن، وتستيقن، وتعلم، ويخفى عليها ما تكسب غدا أو بأي أرض تموت، وتصبر، وتحاسب. فجميع هذه الأعمال تصدر عن الإنسان ويتصف بها جميعا الإنسان كذا لا جزءا.

وخلاصة القول فإن النفس الانسانية تعني ذات الإنسان بأكمله، وأن النفس مخلوقة من قبل الحق سبحانه وتعالى، وهي نوعان: اللوامة، والأمانة بالسوء، ويدركها الموت، وتمثل للحساب والعقاب أمام الحق سبحانه وتعالى في اليوم الآخر. فيجب أن توجه الدراسات الانسانية للإنسان في ضوء هذا المفهوم للنفس الانسانية، إذا ما أردنا أن نجتلي طبيعة النفس الانسانية وصفاتها.

١- سورة التوبة، آية ١٢٠.

٢- سورة آل عمران، آية ٢٨.



## المراجع

- ١- القرآن الكريم .
- ٢- ابن مينا. نظرية المعرفة مع بيان مصادرها وآثارها، مكتبة سعيد رافت، القاهرة، ١٩٧٨.
- ٣- أبو حامد الغزالي: معارج القدس في مدارج معرفة النفس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٥.
- ٤- أبو الحسن الأشعري، مقالات الإسلاميين، بيروت، ١٩٧٥.
- ٥- إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٦- الكسيس كاريل، الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد، بيروت، مكتبة المعارف، ١٩٨٣.
- ٧- أميل برهبيية، ترجمة جورج طرابيشي، تاريخ الفلسفة، الجزء الاول، دار الطليعة، بيروت، ١٩٨٢.
- ٨- حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الإسلامية، عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥.
- ٩- عادل العواد وغسان فينيانيس، المدخل إلى الفلسفة، مطبعة طربية، دمشق، ١٩٨١.
- ١٠- عبد الكريم العشمان، الدراسات النفسية عند المسلمين، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٨١.
- ١١- فتح الله خليف، فلاسفة الاسلام، دار الجامعات المصرية، الاسكندرية.
- ١٢- فيصل بدير عون، الفلسفة الإسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢.
- ١٣- محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الإسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦.

- ١٤- محمد جمعه، تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، مكتبة المعارف، مصر، ١٩٢٧.
- ١٥- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.
- ١٦- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩٦٢.
- ١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، ١٩٨٩.
- ١٨- مهدي فضل الله، من أعلام الفكر الفلسفي، الدار العالمية للنشر والتوزيع، لبنان، ١٩٨٢.
- ١٩- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٧.

### الفصل الثالث

طبيعة الذات الانسانية ومكوناتها

## طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها

هدفت هذه الدراسة الى توضيح المعالم الاساسية لطبيعة الذات الانسانية ومكوناتها. وقد أشار الباحث الى اغلب الآراء التي تبناها الفلاسفة والعلماء حول هذا الموضوع على اختلاف مذاهبهم الفكرية ومدارسهم الفلسفية. ثم عرض قول الحق سبحانه وتعالى حول هذا الموضوع من خلال الاعتماد الكلي على الآيات القرآنية الحكيمة. وقد بينت الدراسة ان الذات الانسانية خلقها الحق سبحانه وتعالى من جسد وروح بهدف عبادته سبحانه وتعالى كما وهبه حرية الاختيار، وركّب فيه جانبي الخير والشر، وفطر الذات الانسانية على دين التوحيد، وان هناك نوعين من الذات الانسانية: النوع الاول الذات التي أنابت لطريق الحق والخير، والنوع الثاني الذات التي اختارت طريق الشر والضلالة. كما أن جميع الانفس البشرية سوف تخوض تجربة الموت، وسوف تبعث للحساب والعقاب ويكون خلودها اما في الجنة واما في النار وذلك في ضوء ما قدمت النفس الانسانية لذاتها لليوم الآخر عن طريق اتباع جانب الخير أو جانب الشر في الحياة الدنيا.

## طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها

### المقدمة :

على الرغم من أن الحق سبحانه وتعالى بعث بنوره الساطع المنير لينير للإنسان سبل الخير والرشاد ويبعده عن طرق الشر والضلال، فإن الإنسان بشكل عام أدبر عن النهج الإلهي المنير عبر تاريخه المديد، إذ ذهب منذ فجر تاريخه لبحث عن بديل لهذا الحق الذي أرسله الباري عز وجل عن طريق أنبيائه نورا وهدى ورحمة للعالمين.

لذلك ذهب الإنسان في البحث عن العضلات الأساسية المتصلة بأسرار الوجود التي لها علاقة مباشرة به وتؤثر بشكل مباشر على معتقداته في مسار حياته، ولقد أقحم نفسه في البحث عن أمور وقضايا هي في حقيقة الأمر خارج نطاق قدراته الإنسانية مما حدا به إلى التخبط في أبحر الظلمات والاعتقاد بالأوهام والخرافات، ويشهد له تاريخه الطويل بجميع الممارسات الهابطة المناهضة للحقيقة التي مارسها وهو يعتقد برسوخها وصدقها، وما زالت الخلافات والتناقضات مستقرة في أذهان الناس حتى يومنا هذا حول أهم القضايا التي تؤثر بشكل حاد على معتقدات الناس وسلوكاتهم.

ومن القضايا المهمة التي حاول الإنسان منذ فجر تاريخه عن طريق البحث، والتأمل، والدراسة الوصول إلى مكوناتها هي حقيقة النشأة الإنسانية وطبيعتها. وقد غصت المكتبات بالأعداد الغزيرة من الكتب والمؤلفات التي تناولت هذا الموضوع بالبحث والتدقيق بهدف الوصول إلى حقيقة الإنسان وسماته الرئيسية من أجل التعامل معه في شتى الأمور الحياتية وفق ما وصلت إليه هذه الدراسات. وسوف نبين بوضوح وجلاء في هذه الدراسة طبيعة الذات الإنسانية ومكوناتها في ضوء القرآن العربي الحكيم، وذلك بعد أن نعرض موجزاً عن الدراسات الإنسانية يبين لنا طبيعة النفس البشرية في ضوء الفكر الإنساني.

## الدراسات الانسانية للانسان

حاول الانسان عبر تاريخه الحضاري ان يعي أسرار الطبيعة البشرية وسر نشأتها عن طريق العقل، والبحث، والتجريب، ومن أبرز الفلاسفة القدماء الذين نهجوا هذه السبيل سقراط، وأفلاطون، وأرسطو. لقد كان في اعتقاد سقراط أن النفس البشرية تحتوي على جوهر روحي مستقل عن الجسم، وما الجسم في حقيقته إلا أداة للنفس البشرية.

«انطلق أفلاطون في تصويره للطبيعة البشرية من تصويره للكون، فكما ان الكون يتكون من عالم الروح وعالم المادة، فان الطبيعة الإنسانية كذلك تتكون من العقل (الروح) والمادة (الجسم)... وحيث أن العقل - من وجهة نظره - قادر على الاتصال بالأفكار الثابتة الأزلية الموجودة في عالم الروح، فهو يستمد ثباته وخلوده منها، ويسمو على الجسم ويسيطر عليه. أما الجسم فهو مادة متغيرة، يولد، وينمو، ويدبل، ويختفي مثل الأشياء المادية الأخرى. بناء على هذا التصور قسم ذات الانسان الى قسمين منفصلين لكل منهما خصائصه ووظائفه، كما قسم المجتمع الى قسمين رئيسيين، قسم يتميز بسمو عقله، والعقل هو الجزء الوحيد في الطبيعة الإنسانية الذي يتصل أساسا بالروح، والذين يتصرفون وفقا لأوامر هذا الجزء، هم الفلاسفة، وبالتالي يحق لهم التعليم وقيادة المجتمع وإدارته. أما القسم الآخر فهم الذين تتغلب عليهم نزواتهم الجسمية، ويقسمهم الى جزئين: جزء شريف تتحكم فيه دوافع الشجاعة والمثابرة ومركزها القلب وعملهم الجندية. والجزء الوضيع وتتحكم فيه الشهوات والرغبات التي تتعلق بالإشباع الجسمي ومركزه البطن. وهؤلاء لا يلدنهم إلا أن يكونوا عمالا أو صناعاً» (١)

«أما أرسطو فإنه يرى أن الإنسان مسير بمجموعة من الغرائز التي يولد بها وتتكون طبيعته من خصائص نباتية، وتمثل فيه جانب النمو والتوالد والذبول والموت، وطبيعة حيوانية، وتمثل فيه جانب الرغبات والانطباعات الحسية والحركة والنشاط، وطبيعة انسانية، وتتميز بالعقل، وعبر عن هذا الجانب بعبارته المشهورة (الانسان حيوان عاقل)، والعقل عنده يتكون من العقل الأدنى وهو المسؤول عن القرارات الخلقية والعملية التي يعبر عنها الانسان في سلوكه. والعقل

١ - يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٨٣.

الأعلى أو النظري الذي يكتسب به الإنسان المعرفة الشاملة الخالدة» (١).

«لا توجد الروح والمادة في الإنسان منفصلتين أو مستقلتين أحدهما عن الأخرى، وإنما هما متزجتان معاً في وحدة متكاملة متناسقة، وتتكون من هذا المزيج المتكامل المتناسق ذات الإنسان وشخصيته. ونحن لا نستطيع أن نفهم شخصية الإنسان فهماً دقيقاً إلا بالنظر إلى هذا الكيان الإنساني بأكمله، المكون من امتزاج عنصري المادة والروح» (٢).

«يعتقد توماس هوبز أن طبيعة الإنسان شريرة، وأنه ذنب تجاه أخيه الإنسان. وهو بفطرته يسعى وراء اللذة ويتجنب الألم. وميز هوبز ثلاثة أشياء تدفع الإنسان إلى النزاع والقتال وهي: المنافسة، وسوء الظن، وحب المجد والفخر. فالمنافسة تدفع الناس إلى الالتجاء إلى العنف ليسودوا غيرهم، وسوء الظن يمارسه الإنسان حتى يحمي نفسه، ولن يشبع حبه للمجد والتفاخر بالمال والأنساب والألقاب إلا بالعنف وسوء الظن» (٣).

«يرى جان جاك روسو أن الإنسان خير لأنه من صنع الله، ومن ثم فإن النمو السليم له يكمن في اتباع قوانين الطبيعة، وأن مصدر الشر يكمن في المجتمع عندما يتدخل الكبار في المجتمع بعبائيرهم وقيهمهم، ليفسد نمو الطفل، وينحرف بشخصيته واتجاهاته الطبيعية» (٤).

«يعتقد جون لوك أن الإنسان يولد بعقل كالصفحة البيضاء الخالية من الأفكار الفطرية والمعاني الأولية. إلا أنه مزود بعدة ملكات لها استعداد للقيام بكل شيء إذا ما هذبت والوسيلة الوحيدة لتهدئتها وجعلها توتّي ثمارها هي التدريب وتكوين العادات الطبيعية» (٥).

١ - يوسف كرم، ١٩٨٣، مرجع سابق.

٢ - محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، الطبعة الأولى، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢، ص ٢٠٢.

٣ - أحمد علي الفنيش، أصول التربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢، ص ٨٢ - ٨٤.

٤ - أحمد علي الفنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص ٨٦.

٥ - أحمد علي الفنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص ٨٦.

«وقد تطورت نظرية الملكات .... وقالوا ان هناك مبدأ ديناميكيًا ومحركًا ذاتيًا يدفع الطبيعة البشرية للعمل، وهو الذي يؤدي بها الى النضج، وقد أطلقوا عليه تسمية (النفس)، وهذه النفس باعتبارها مبدأً متحدًا واحداً تنطوي على عدد من الملكات، والملكة تعني القدرة على العمل، وهذه الملكات أو القدرات نوعان:

ملكات جسمية، وملكات عقلية. فعن طريق الملكات الجسمية فإن النفس تحس، وتشعر، وترغب. وعن طريق الملكات العقلية فإن النفس تتذكر، وتتخيل، وتعقل. وهناك تدرج في الملكات في الطبيعة البشرية، حيث أن الملكات أو القدرات الجسمية دعامة للعقلية» (١)

«وقد اختلفت النظرة إلى الطبيعة الانسانية اختلافًا كبيراً. ونظر إليها الفلاسفة والمفكرون من زوايا متعددة، فهناك تصور الطبيعة الانسانية على انها شيء واحد ثابت في الأزمنة والعصور. وأن الانسان هو الإنسان حيث ما وجد، وهناك من نادى بأن الطبيعة الانسانية تختلف باختلاف الافراد أنفسهم وباختلاف استعداداتهم وقدراتهم» (٢).

«فذهب البعض إلى أن الإنسان ليس في حقيقته إلا ظاهرة مادية شديدة التعقيد، مركب من المواد الكيميائية التي نشأت بسبب تطور المادة» (٣).

يرى الطبيعيون والكيميائيون أن الانسان بناء مادي يخضع لنفس القوانين الفيزيائية والكيميائية التي تخضع لها الجمادات، والنباتات، والحيوانات. فلإنسان حجم، ووزن، وشكل، ولون. كما انه يحتل مكاناً ويشغل زمناً، ولذلك ينبغي أن تنطبق عليه قوانين الفيزيكا التي تنطبق على الاشياء المادية كقانون الجاذبية وغيره. كما ان هناك اتصالاً مستمراً بين جسم الانسان، وبين البيئة المحيطة به» (٤).

1- Johns, Brubacher, Modern philosophies of Education, New york: Mc Mc Graw- Hill Book, Inc. 1964. pp. 117- 118.

٢- سيد ابراهيم الجبار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٨، ص ٥٧.

٣- فيليب فيلكس، فلسفة التربية - ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيجي - دار النهضة العربية، ١٩٦٥، ص ٦٩٩.

٤- ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كخلفية للتربية، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧١، ص ١٦٠.



وقد قام هوارد في كتابه- الدراسة الصحيحة للجنس البشري - بتحديد محتويات الجسم البشري وقال إنه يتألف من المواد التالية: ماء يكفي ملء برميل يسع عشرة جالونات. دهن يكفي لصنع مبانك من الصابون. كربون يكفي لصنع ٩٠٠٠ قلم من الرصاص. فوسفور يكفي لصنع ٢٢٠٠ رأس من رؤوس عيدان الكبريت. حديد يكفي لصنع مسمار متوسط الحجم. كلس يكفي لبيض (تقفيصة) فراخ كميات ضئيلة من الكبريت والمغنيسيوم، فإذا جمعت هذه المواد وخلط بعضها ببعض الآخر بنسب صحيحة وطريقة دقيقة كان ناتج هذا الخليط انسان لا محالة» (١).

«يرى البيولوجيون ان الانسان احد السلالات الحيوانية التي تمثل اعلى صورة من صور التطور في سلسلة الكائنات الحية. والخلية الحية هي وحدة جسمه، كما هو الحال في سائر النباتات والحيوانات. وله من الخصائص الكثير مما يشترك فيه مع الحيوانات الاخرى: انه يأكل، وينمو، ويتناسل، ويحس ويتكيف، ويتحرك» (٢).

أما اصحاب الاتجاه الغرائزي فانهم يرون ان الطبيعة البشرية مجموعة من الغرائز «وقد اختلف المنادون بهذا الاتجاه على عددها فمنهم من رأى انها واحدة كغريزة حب الذات أو الغريزة الجنسية، وقد رأى آخرون بأنها تصل الى حوالي الثلاثين (وليم جيمس)، وارتفع بها ثورندايك الى الاربعين، وقال غيره بأنها ثمان وأربعون. وقد هبط بها آخرون الى غريزتين رئيسيتين. وقد اطلق عليها آخرون اسم الدوافع الفطرية وميزوا منها نوعين: الحاجات الفسيولوجية، والحاجات النفسية، وهذه تشمل الحاجات الاجتماعية... والغرائز الفطرية موجودة عند جميع الناس، لا تعلم ولا تكتسب، لكن يولد الفرد مزوداً بها... وقد قامت نظرية الغرائز على اساس أن هناك تشابهاً بين غرائز الانسان وغرائز الحيوانات الدنيا... ان الطبيعة البيولوجية للانسان هي اساس طبيعته الانسانية. وينبغي ان نركز جهودنا في التعرف على حاجات هذا الانسان الاساسية وقدراته ودوافعه الأولية، حتى نتمكن من تحديد الهاديء التي تؤثر في نموه وطرق تعلمه» (٣).

١- توفيق الطويل، أسس الفلسفة، دار النهضة، القاهرة، ص ٢٤٨.

٢- ابراهيم الشافعي، ١٩٧١، مرجع سابق، ص ١٦٠.

٣- عمر شيباني، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٥، ص ٩٦.

يرى أقطاب الانجاء السلوكي أنه لكي نحصل على نتائج موضوعية تماماً فيما يختص بالطبيعة الانسانية ووظيفتها يجب التركيز على السلوك السافر، وعلى هذا يتميز المذهب السلوكي بصفة عامة باتجاهين: الاول- وهو تطبيق الأسلوب العلمي بمعناه الميكانيكي على ميدان السلوك والتخلص من التغيرات والمفاهيم الغيبية، والثاني - استخدام الحيوان في البحوث والتجارب بقصد دراسة وفهم السلوك عند الانسان. لذلك يعتقدون أنه ليس لمصطلح العقل او الضمير أي مضمون حقيقي. وما العقل إلا شكلا من أشكال السلوك. ومن ثم فانهم يركزون على النشاط العضلي والعصبي... فالانسان آلة دقيقة معقدة، وهدفهم الكشف عن القوانين التي تكمن وراء نشاط هذه الآلة. ومن أمثلة هؤلاء ثورندايك الذي حاول الوصول الى قوانين التعلم عند الانسان حتى يستطيع ان يتحكم في هذا العالم ويوجهه... كما قام بافلوف بجهود مشابهة وتوصل الى نظرية التعلم الشرطي التي توضح ان عملية التعلم عملية آلية صرفه... اما السلوك الانساني فهو في رأيهم حركات ميكانيكية آلية تتركز حول الميثرات والاستجابات والافعال المنعكسة وقوانين الترابط»(١).

«أما الوجوديون فيرون أن الانسان يسمو فوق ذاته وثقافته، ويرون أن مركز الوجود ليس الحقيقة، أو القوانين، أو المبادئ، أو الجوهر، أو الهامية، ولكن الإنسان ذاته. فالإنسان يتميز بالقدرة على اتخاذ القرارات، والإرادة، والاختيار. فإذا كان مكتر مثلاً يرى ان الانسان كائن من الممكن ضبطه وتسييره فان سارتر من الجانب الوجودي يرى أن الانسان كائن مام يستجيب لنفسه فقط ومسؤول عن أفعاله. ومن ثم فإن الثقافة لا تحتم قدر الانسان، ولكن الانسان هو الذي يضع الثقافة وبالتالي فهو سيدها. إن الإنسان في نظرهم هو الذي يفرض معناه على الكون. بالرغم من أن الكون يعمل بطريقة سليمة من دونه. وليس هناك مكان للأفكار الذاتية الأفلاطونية أو الحقيقة الأولية»(٢).

لقد تأثرت الحضارة الإنسانية في مختلف مجالاتها وفروعها تأثراً قوياً بالدراسات الانسانية حول الإنسان وطبيعته مما أدى إلى انتشار الافكار والمعتقدات

١ - أحمد علي الغنيش، ١٩٨٢، مرجع سابق، ص ٩٦ - ٩٨.

2- Robert E. Mason, Contemporary Educational Theory. New- york: David Mc Kay Company, Inc. 1972. p 238

المتضاده التي قادت الإنسان إلى اختيار الأنماط السلوكية المتعددة في تحقيق أهدافه وإشباع شهواته بالوسائل التي تبليها عليه أفكاره ومعتقداته. فقد ظهر الاستكبار، والاستعلاء، والتفوق العرقي، واثارت الفتنة، ودارت الحروب، وانتشر السلب والقتل، وحسب السيطرة والظهور على حساب الشعوب المستضعفة، واستسلم الضعيف لأهواء القوي وشهواته، واختلعت النظم والقوانين، وتاهت العقول البشرية في أبحر الظلمات وهي تحاول الوصول إلى جذور النفس البشرية ومباتها.

لقد كان للمفاهيم السابقة للطبيعة الإنسانية آثارها البعيدة المدى على المجتمعات البشرية وخاصة في العملية التربوية التي ينمو أبناء المجتمع وترعرعون في ظلها على مدى مراحل العمر المختلفة. لقد كان للتصورات الأفلاطونية أثرها المباشر على التربية إذ أصبح هدفها الأساسي العناية بتدريب العقل وتنميته بالمواد الأساسية المتمثلة بالفلسفة والمنطق والرياضيات، والدراسات المتعلقة بالتراث البشري المشترك. ويصاحب ذلك، الأمور التي تتعلق بالنشاط الجسماني من أعمال يدوية فقد أصبح ينظر إليها نظرة دونية. أضف إلى ذلك أن التربية في ضوء التصور الأفلاطوني يجب أن تكون واحدة في جميع المجتمعات.

أما بالنسبة للذين اعتقدوا بأن الطبيعة البشرية شريرة فقد انعكس ذلك على تربية الإنسان تربية تتسم بالعنف والقسوة، وإيقاع مختلف أصناف العذاب على جسمه وروحه. والذين نادوا بأن الطبيعة الإنسانية خيرة فقد انعكس ذلك على اعترافهم بضرورة جعل الطفل محورا للعملية التربوية. أما فكرة أن الإنسان صفحة بيضاء فقد كان لها أثرها التربوي على العملية التربوية إذ ساد الاعتقاد أن العملية التربوية يجب أن تركز على تدريب الملكات عن طريق الممارسة، والتكرار، والممارسة.

«لقد ترتب على التصور الهادي للإنسان الاتجاه إلى تفسير سلوكه تفسيراً طبيعياً. ولعل أهم هذه التفسيرات التفسير السلوكي القائم على نظرية دارون عن التطور وأصل الأنواع. هذه النظرية التي ترى أن الإنسان يمثل أعلى حلقة في سلم التطور البيولوجي... وأصبح معنى هذا أنه لكي نعرف السلوك الإنساني على حقيقته يجب أن ندرس ونعرف السلوك الحيواني. واتجه العلماء بذلك إلى دراسة هذا السلوك الحيواني لعلهم يستنتجون منه القوانين والنظريات الخاصة بالسلوك

## الإنساني «(١)»

وقد تأثرت أيضا العلوم الإنسانية بالمفاهيم التي تداولها الفلاسفة العقليون والتجريبيون حول الطبيعة البشرية. «فعلما الاجتماع وعلماء النفس الاجتماعي يعتبرون الإنسان حيواناً اجتماعياً... ويرون أنه مخلوق يُسعى إلى السلطة والسيطرة. ومن ثم يوجهون الكثير من اهتمامهم إلى الطرق المتعددة للوصول إلى السلطة كالقوة، والدعاية، والتهديد، والوعود، والضغوط الاقتصادية والاجتماعية التي يؤثر بها الفرد في المجتمع. ويؤثر بها المجتمع في الفرد. بعد هذا نجد الانثروبولوجيين الذين يهتمون بوصف الأنماط البشرية المتعددة... فهم يرون الإنسان كموجود، ذا حاجات بيولوجية واجتماعية أساسية، يتم التعبير عنها وإرضاؤها بطرق متعددة، وذلك طبقاً للظروف البيئية والتاريخية التي يمر بها الإنسان. أما الجغرافيون فيدرسون الإنسان من حيث صلته بالأرض ومن ثم يشيرون إلى أن السلوك البشري محكوم وموجه بعوامل مثل المناخ والطعام، ومدى سهولة المواصلات أو صعوبتها، وتوزيع المصادر الطبيعية... وللمؤرخين نظرة أخرى. فهم يرون أن الإنسان كان يعيش الحاضر بذاكرة الماضي. وتوقع المستقبل، ومن ثم يحاولون فهم المعنى الحقيقي للأحداث الماضية عن طريق إعادة بناء الحياة الواعية للأشخاص الذين صنعوا تلك الأحداث» (٢)

وهكذا ذهب الإنسان بناء على دراساته وتصوراته لطبيعة الإنسان في تطبيق النظريات والأساليب العلمية التي تجزم وتؤكد أن الإنسان انحدر من أصل حيواني مثل نظرية دارون. بل ذهب كارل ماركس إلى إقامة الدليل على أن عقلية الإنسان وليدة الوسط المادي الذي يعيش فيه. كما ذهب فرويد إلى أبعد من ذلك عندما أراد أن يؤكد أن الإنسان ليس منحدرًا من الحيوان فحسب، بل إن عقليته مازالت تحتفظ حتى اليوم ببعض الرواسب من أصله الحيواني. لذلك فإن الإنسان في ماهيته وأساسه حيوان قادر على التقدم.

١- محمد لبيب النجحي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٢٤٤.

2- Philips H. Phenix, Realms of Meaning, New- York, MC Graw-Hill Book Company, Inc. 1964- pp. 17-19.

وقد عبر الكسيس كارل في كتابه - الإنسان ذلك المجهول - عن الدراسات الإنسانية التي حاولت أن توضح لنا طبيعة الإنسان فقال: لقد بذل الجنس البشري مجهودا جبارا لكي يعرف نفسه، ولكنه بالرغم من أننا نملك كنزا من الملاحظات التي كدسها العلماء، والفلاسفة، والشعراء، وكبار الروحانيين في جميع الأزمان، فإننا استطعنا أن نفهم جوانب معينة فقط من أنفسنا... إننا لا نفهم الإنسان ككل... إننا نعرفه على أنه مكون من أجزاء مختلفة. وحتى هذه الأجزاء ابتدعتها وسائلنا، فكل واحد منا مكون من مركب من الأشباح تسير في وسطها حقيقة مجهولة» (١)

وقد انتقد إريك فروم الدراسات السلوكية والنفسية قائلا: إن اهتمام علم النفس الحديث ينصب في أغلب الأحيان على مشكلات تافهة تتمشى مع منهج علمي مزعوم، وذلك بدلا من أن يضع مناهج جديدة لدراسة مشكلات الإنسان الهامة. وهكذا أصبح علم النفس يفتقر إلى موضوعه الرئيسي وهو الروح. وكان معنا بالميكانيزمات وتكوينات رودود

الأفعال والغرائز، دون أن يعنى بالظواهر الأساسية المميزة أشد التمييز للإنسان: كالحب، والعقل، والشعور، والقيم» (٢)

وقد عرف قسم من علماء النفس الذات الإنسانية بطريقتهم الخاصة التي تنسجم مع اعتقاداتهم ومفاهيمهم للذات الإنسانية حيث يعرفها حامد زهران بأنها «الشعور والوعي بكيونة الفرد، كما أنها تنمو وتنفصل تدريجياً عن المجال الإدراكي، وتتكون بنيتها كنتاج للفاعل مع البيئة، وإن الذات تشمل الذات المدركة، والذات من تصور الآخرين، والذات المثالية، وإنها قد تمتص قيم الآخرين وتسعى إلى التوافق والثبات، وتنمو نتيجة للنضج والتعلم» (٣).

وقد عرفت الذات الإنسانية على أنها «مركب من عدد من الحالات النفسية، والانطباعات، والمشاعر، وتشمل ما تتضمنه كلمات أنا، لي، ذاتي، وتمثل في كل

١ - الكسيس كارل، الإنسان ذلك المجهول - تعريب شفيق اسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٣.

٢ - إريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ١١.

٣ - حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٢٥٣.

منا الجوهر الذي يقبع في اساس معاناة الانسان وتجربته ككائن انساني مدرك» (١).  
 اما سعدي بهادر فتعرف الذات الانسانية بانها «هي الجزء الواعي والمدرك من  
 كيان الشخصية الانسانية التي يمكن رؤيتها والتعرف عليها» (٢).  
 ويعرف مفهوم الذات على انه «مفهوم افتراضي شامل يتضمن جميع الافكار  
 والمشاعر عند الفرد التي تعبر عن خصائص جسمية وعقلية وشخصية، وتشمل  
 معتقداته وقيمه وخبراته وطموحاته» (٣).  
 كما يعرفه بورنز على انه «تجريد يطرده الفرد بشأن خصائصه وقدراته،  
 واشيائه، ونشاطاته التي يمتلكها، والتي تحيط بها، والتي تكون مشتقة من خبراته  
 السابقة وقيمه» (٤).

ومما تجدر الإشارة إليه أن علماء النفس قد وجهوا اهتماماتهم إلى دراسة  
 الظواهر النفسية التي يمكن ملاحظتها ودراستها بطريقة موضوعية. فقد تركزت  
 دراساتهم وبحوثهم حول حاجات الإنسان الفسيولوجية، وحاجات الإنسان المتعلقة  
 بتوافقه الاجتماعي والشخصي وفق متطلبات البيئة الاجتماعية والثقافية التي ينشأ  
 فيها. وبذلك أبعدوا الجانب المعنوي الذي يشكل الجزء الأهم في النفس البشرية عن  
 دراساتهم برغم أنه أهم ما يتميز به الإنسان عن الحيوان، هذا بجانب ما ينبعث عن  
 الجانب المعنوي من أهداف وحاجات إنسانية نبيلة تجعل الإنسان نموذجاً فريداً في  
 تكوينه وطبيعته في هذا الكون. لذلك يجب أن توجه كافة الدراسات الإنسانية التي  
 تحاول أن تصل إلى طبيعة الإنسان وخصائصه إلى تناول الإنسان ككل بجانبه المادي  
 والمعنوي وليس جانباً واحداً. هذا بجانب الاعتماد التام على ما وصلنا من الحق  
 سبحانه وتعالى من حقائق متصلة بالإنسان وصفاته. والحق أن الإنسان قد حقق  
 نجاحات باهرة في دراسة الجوانب الفسيولوجية والتشريحية للإنسان، ولكن هذه

١- ميخائيل اسعد، ومالك مخول، مشكلات الطفولة والمراهقة، دار الافاق الجديدة، بيروت  
 ١٩٨٢، ص ٢٣٢-٢٣٣.

٢- سعدي بهادر، من انا؟ البرنامج التربوي النفسي لخبرة من انا الموجهة لاطفال الرياض  
 بين النظرية والتجربة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٣، ص ٤٦.

3- Gersild, A.T. The psychology of Adolescence, 2nd . Ed. New york .  
 The Macmillan Company, 1963. pp. 29.

4- Burns, J.S. The self concept in theory, measurement, Development,  
 and behavior. New york; Longman, Inc. 1979

الدراسات الجزئية للإنسان بالرغم من فوائدها الجمة بالنسبة لنا في حياتنا المعاصرة، فإنها لن تقودنا للوصول الى طبيعة النفس الإنسانية وخصائصها لاعتمادها فقط على الجانب المادي في الإنسان.

### طبيعة النفس الإنسانية وتكوينها في ضوء القرآن الكريم

لقد بين لنا الباري عز وجل القضايا الأساسية المتعلقة بطبيعة النفس الإنسانية وخصائصها في كتابه المنير بصورة واضحة ودقيقة لا تدع مجالاً للشك عند كل من يريد أن يصل إلى لباب تلك القضايا التي مازال أغلبها غامضاً أو غائباً عن أذهان العلماء والباحثين في مجال الدراسات الإنسانية، وتشكل في بعض الأحيان قواعد الاختلاف والتضاد فيما بينهم. فالحق سبحانه وتعالى خاطب النفس الإنسانية في كتابه العزيز بمفردات عدة وهي: الإنسان، والناس، والبشر، والإنس، والعباد، والنفس، وبني آدم. كما بين لنا مراحل خلق النفس الإنسانية، وما جسد فيها من قدرات، وقوى، وملكات، وصفات، وأنواع، والهدف من خلقها. وهذا ما نريد أن نوضحه جميعاً في هذه الدراسة.

### القضية الأولى - خلق الإنسان

في الوقت الذي احتار فيه العلماء والباحثون في دراساتهم حول قضية خلق الإنسان فإن الله سبحانه وتعالى بين لنا بوضوح وجلالة في كتابه الحكيم جميع ما يلزمنا حول قضية الخلق ومكنوناتها. وكما نعلم جميعاً فإن القرآن الكريم هو كلام الله سبحانه وتعالى، لذلك فإن هذا الكتاب الحكيم يتميز عن بقية البحوث والدراسات الإنسانية للإنسان، لأن الحق سبحانه وتعالى خالق الإنسان يعلم وحده خفايا النفس البشرية ومكنوناتها، والنفس البشرية هنا تعني البشر كافة عبر تاريخهم وليس عينة منهم كما يفعل الباحثون في دراساتهم. كما أن الحق سبحانه بين لنا حقيقة النفس الإنسانية وطبيعتها عبر أطوارها الحياتية وامتدادها التاريخي بما فيه الحاضر والمستقبل. هذا بالإضافة إلى أن قول الحق سبحانه وتعالى يخلو من أهواء الباحثين الشخصية والفكرية منها التي ترى في الجدل مورداً فياضاً للابتعاد عن الحقيقة.

لقد بين لنا القرآن الحكيم مجموعة من الحقائق الأساسية المتصلة بخلق الإنسان في مراحل متعددة ابتداء من المرحلة التي لم يكن الإنسان فيها شيئاً مذكوراً حتى

مرحلة التناسل والتكاثر التي نعيشها جميعا مروراً بخلق آدم وحواء عليهما السلام. وسوف نورد هذه الأطوار والمراحل كما وضحاها الأستاذ عبد الرحمن الميداني في كتابه «الأخلاق الإسلامية وأسسها» وهي على النحو التالي: (١)  
١. يشير القرآن الى مرحلة زمنية لم يكن الإنسان شينا فيها مذكورا ثم وجد.  
قال تعالى:

«هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا» (٢)

فقد مر عليه حين من الدهر السحيق في أغوار الزمن الماضي لم يكن للإنسان فيه وجود. وقد جاء البيان على طريقة التساؤل لانتزاع الجواب من منصفى أهل العلم وأهل النظر. والجواب الحتمي: نعم لقد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شينا مذكورا. إذ لو كان له وجود لعرف هذا الوجود.

٢. ويلفت القرآن الكريم النظر إلى أن الماء هو العنصر الأول من العناصر المادية التي تكون منها خلق جسد الإنسان. كما هو العنصر الأول الذي خلق منه كل كائن حادث. ودل على هذه الحقيقة نصوص متعددة من القرآن الكريم.  
قال تعالى:

«وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٤)

قال تعالى:

«وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا» (٥)

١ - عبد الرحمن حسن الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، الطبعة الأولى - دار القلم - بيروت، ١٩٧٩، ص ٣٠٢ - ٣٠٨.

٢ - سورة الإنسان، آية ١.

٣ - سورة الأنبياء، آية ٣٠.

٤ - سورة النور، آية ٤٥.

٥ - سورة الفرقان، آية ٥٤.



٢. كما يلفت القرآن الانتباه إلى أن التراب هو العنصر الثاني من العناصر التي تكون منها خلق جسد الإنسان، فالإنسان الأول كان التراب عنصراً من عناصر تكوين خلقه. قال تعالى:

«إِنَّ بَشَرَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ» (١)

والتراب عنصر من عناصر تكوين كل إنسان بعد آدم إذ من التراب النبات، ومن النبات الغذاء، ومن الغذاء الدم، ومن الدم النطفة، ومن النطفة الجنين.

يقول تعالى:

«وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا» (٢)

ويقول تعالى:

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ لُحْمَ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٣)

ويقول تعالى:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ» (٤)

٤. ويشير القرآن الكريم إلى خلق الإنسان من طين. والطين هو امتزاج عنصري الماء والتراب.

قال تعالى:

«ذَٰلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ» (٥)

وقد وصف الله الطين في بدء خلق الإنسان الأول بأنه طين لازب أي لاصق ببعضه ببعض متماسك لزج.

١ - سورة آل عمران، آية ٥٩.

٢ - سورة فاطر، آية ١١.

٣ - سورة غافر، آية ٦٧.

٤ - سورة الروم، آية ٢٠.

٥ - سورة السجدة، آيات ٦-٩.

قال تعالى:

«إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ» (١)

٥. ثم تأتي بعد مرحلة الطين اللزب مرحلة الحمأ المسنون. والحمأ هو الطين الذي تغير واسود بطول مجاورة الماء والمسنون هو المصدر.

قال تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ» (٢)

٦. بعد ذلك تأتي مرحلة جفاف الطين حتى يصير صلصالا والصلصال هو الطين اليابس غير المطبوخ، هذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارا لأن الفخار مطبوخ بالنار.

قال تعالى:

«خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ» (٣)

٧. ثم تأتي مرحلة نفخ الروح بعد أن صارت الطينة ذات صورة بشرية كاملة.

قال تعالى:

«إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ فإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَسَجَدُوا لَهُ سَاجِدِينَ» (٤)

٨. حتى إذا تم خلق الإنسان الأول آدم عليه السلام يشير القرآن الكريم إلى أن الله سبحانه وتعالى خلق منه زوجة

قال تعالى:

«هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا» (٥)

وقال تعالى:

«خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا» (٦)

١ - سورة الصافات آية ١١.

٢ - سورة الحجر آية ٢٦.

٣ - سورة الرحمن آية ١٤.

٤ - سورة ص آية ٧١ - ٧٢.

٥ - سورة الاعراف آية ١٨٩.

٦ - سورة الزمر آية ٦.

وقال تعالى:

«بِأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» (١)

والحق أن ليس في كتاب الله إشارة إلى كيفية الخلق تلك.

٩. ثم يلفت القرآن الكريم الانتباه إلى خلق السلالات البشرية بعد خلق الإنسان الأول وزوجه.

قال تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ حَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ» (٢)

وإذا كانت كيفية خلق الإنسان الأول غيباً لم يطلع الله الإنسان عليه فإن الحقائق التي تتعلق بخلق السلالات الإنسانية بعد خلق آدم وزوجه بدءاً من مرحلة النطفة ومروراً بمرحلة العلقة فالمضغة فخلق العظام وما يتبع ذلك من بناء اللحم على العظام. هذه الحقائق تخضع لإمكان البحث الإنساني. وقد أصبحت الآن معروفة بل إن البحث العلمي أثبت في جلاء هذه الحقائق.

يبدو بوضوح وجلاء من خلال الآيات الحكيمة السابقة أن الإنسان مكون من الجسم والروح التي نفخها فيه الحق سبحانه وتعالى من روحه. وتجدر الإشارة هنا أن الحق سبحانه وتعالى في مختلف الظروف والأزمان خاطب الإنسان بأكمله وحدة متكاملة بين الجسم والروح، هذه الوحدة التي تكون ذات الإنسان. ولم يخاطب الحق سبحانه وتعالى جزءاً من الإنسان في أي ظرف من الظروف ولا في أي مرحلة من المراحل. وعلى هذا الأساس يجب أن ننظر إلى الإنسان سواء في مجال الدراسات الإنسانية و في مجال التفاعل الاجتماعي.

١ - سورة النساء آية ١.

٢ - سورة المؤمنون آية ١٢-١٤.

### القضية الثانية – الذات الإنسانية والهدف من خلقها

مهما تعددت الآراء والأقوال حول هدف أو مجموعة أهداف الإنسان في هذا الوجود تبقى كلمة الفصل في هذا الموضوع الهام إلى خالق الإنسان، فهو الذي خلقه بهذه القدرات والمواصفات، وخلقته في هذه الصورة البديعة المميزه عن باقي المخلوقات التي خلقها. فقد بين الحق سبحانه وتعالى الهدف الأسمى من خلق الإنسان في كتابه العربي المنير حيث يقول عز من قائل:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» كَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ» (١)

«إن هذا النص الصغير ليحتوي حقيقة ضخمة هائلة، من أضخم الحقائق الكونية التي لا تستقيم حياة البشر في الأرض بدون إدراكها واستيقانها، سواء كانت حياة فرد أم جماعة أم حياة الإنسانية كلها في جميع أدوارها وأعصارها، وأنه ليفتح جوانب وزوايا متعددة من المعاني والرامي تدرج كلها تحت هذه الحقيقة التي تعد حجر الأساس الذي تقوم عليه الحياة، وأول جانب من جوانب هذه الحقيقة أن هنالك غاية معينة لوجود الجن والإنس تتمثل في وظيفة، من قام بها وأداها فقد حقق غاية وجوده، ومن قصر فيها أو نكل عنها فقد أبطل غاية وجوده، وأصبح بلا وظيفة، وباتت حياته فارغة من القصد، خاوية من معناها الأصيل، الذي تستمد منه قيمتها الأولى، وقد انفلت من الناموس الذي خرج به إلى الوجود، وانتهى إلى الضياع المطلق، الذي يصيب كل كائن ينفلت من ناموس الوجود، الذي يربطه ويحفظه ويكفل له البقاء. هذه الوظيفة المعينة التي تربط الجن والإنس بناموس الوجود، هي العبادة لله.. أن يكون هناك عبد ورب، عبد يعبد، ورب يعبد، وأن تستقيم حياة العبد كلها على أساس هذا الاعتبار» (٢)

### القضية الثالثة – الذات الإنسانية والفطرة.

إن الباري عز وجل فطر الإنسان على عقيدة التوحيد به دون غيره من الأنداد التي اتخذها الغافلون من البشر من دون الله سبحانه وتعالى. وهذه الفطرة التي فطرت عليها الذات الإنسانية تنسجم بشكل متناسق ومتزن مع الهدف الأسمى الذي خلق من أجله الإنسان وهو عبادة الباري عز وجل. وتبدو مسألة الفطرة

١- سورة الذاريات، آية ٥٦-٥٧.

٢- سيد قطب، في خلال القرآن، المجلد السادس، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨١، ص ٣٣٨٦ - ٣٣٨٧.

واضحة جلية في مدلول الآيتين الحكيمتين التاليتين:

قال تعالى:

«فَأَنقَضَ وَجْهَكَ لِدِينٍ كَنِيْفًا فَطَرْتَ إِلَهَ الَّذِي فَطَرْتَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١)

قال تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (٢)

«تعرض هذه الآية قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة، تعرضها من زاوية الفطرة التي فطر الله عليها البشر، وأخذ بها عليهم الميثاق في ذات أنفسهم، وذات تكوينهم، وهم بعد في عالم الذر.

إن الاعتراف بربوبية الله وحده فطرة في الكيان البشري، فطرة أودعها الخالق في هذه الكينونة وشهدت بها على نفسها بحكم وجودها ذاته، وحكم ما تستشعره في أعماقها من هذه الحقيقة، أما الرسائل فتذكير وتحذير لمن ينحرفون عن فطرتهم الأولى، فيحتاجون إلى التذكير والتحذير. إن التوحيد ميثاق معقود بين فطرة البشر وخالق البشر منذ كينونتهم الأولى، فلا حجة لهم في نقض الميثاق- حتى لو لم يبعث إليهم بالرسالة يذكرهم ويحذروهم- ولكن رحمته وحدها اقتضت ألا يكلمهم إلى فطرتهم هذه فقد تنحرف، وألا يكلمهم كذلك إلى عقولهم التي أعطاهم لهم فقد تضل، وأن يبعث إليهم رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل» (٢)

#### القضية الرابعة - الذات الإنسانية وجانبها الخير والشر .

إن الحق سبحانه وتعالى الذي بين لنا في كتابه العزيز خلق الإنسان بمراحل مختلفة، كما بين لنا الهدف من خلقه والفطرة التي جسدتها في الذات الإنسانية، فقد بين لنا أيضا أن النفس الإنسانية ركب فيها جانب الفجور والتقوى، حيث يقود جانب الفجور فيها الإنسان إلى اتباع عدوه اللدود إبليس والابتعاد عن النهج الإلهي المنير الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس أجمعين، أما جانب التقوى

١- سورة الروم، آية ٣٠.

٢- سورة الاعراف، آية ١٧٢.

٣- سيد قطب، في خلال القرآن، المجلد الثالث، دار الشروق، بيروت، ١٩٨١، ص ١٣٩١.

الذي وشجت عليه النفس الإنسانية، فيعود ذات الإنسان إلى الإنابة للخط الإلهي والاستقامة عليه واتباع تعليماته في شتى أمور الحياة، فشاء الحق سبحانه وتعالى أن يلهم النفس الإنسانية كلا الجانبين جانب التقوى الذي يؤدي إلى كل ما فيه خير للإنسان وجانب الفجور الذي يقود الإنسان إلى كل ما فيه شر للإنسان.

قال تعالى:

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا» (١)

قال تعالى:

«وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ» (٢)

### القضية الخامسة - الذات الإنسانية وحرية الاختيار .

لقد خص الحق سبحانه وتعالى الإنس والجن دون سائر مخلوقاته بحرية الاختيار بين طريق الحق وطريق الضلالة. لذلك أصبح الإنسان كأننا مميزاً بهذه الحرية التي منحها له الحق سبحانه وتعالى بعد أن وهبه الملكة العقلية التي يستطيع بواسطتها أن يميز بين الحق والباطل، وبعد أن وضح له الحق أنصح توضيح وبأسى ألعاني والدلالات عن طريق بعث الرسل والكتب السماوية، كما بين الباطل والسبل المؤدية إليه، فالإنسان الذي فطر على دين التوحيد وركب في ذاته جانباً الفجور والتقوى، أعطى حرية الاختيار في اتباع أي الجانبين يشاء. والحق سبحانه وتعالى يمد له في كل جانب اختاره بحرية تامة دون إملاء أو فرض من أية قوة أخرى، فهذا الاختيار هو فقط للإنسان، وفي ضوء هذا الاختيار سيحدد مصير الإنسان في الدنيا والآخرة. والآيات الكريمة التالية تدل بوضوح وجلاء على حرية الاختيار التي وهبها الباري عز وجل للإنسان.

قال تعالى:

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُم جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٣)

قال تعالى:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ» (٤)

١ - سورة الشمس، آيه ٧-٨.

٢ - سورة البلد، آيه ١٠.

٣ - سورة يونس، آيه ٩٩.

٤ - سورة يونس، آيه ١٠٨.

قال تعالى:

«إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ وَمَنِ ضَلَّ فَلِنَافْسِهِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا بِغُيُوبِهِ» (١)

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ اتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٢)

قال تعالى:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٣)

هذه نماذج من الآيات القرآنية الحكيمة التي تدل بصورة قاطعة على حرية الاختيار التي وهبها الحق سبحانه وتعالى للإنسان والتي يستطيع من خلالها أن يختار بين الإيمان وبين الكفر، بين الخير وبين الشر، بين اتباع النهج الإلهي وبين اتباع النهج البشري، بين الحق وبين الباطل، بين الدخول في حزب الله والانضمام تحت رايته وبين الانضمام إلى حزب الشيطان والسير على نهجه، فهذا الاختيار من بدايته إلى نهايته هو للإنسان وفي ضوء اختياره يتم حسابه في اليوم الآخر.

#### القضية السادسة – حالات الذات الإنسانية إعتقاداً وسلوكاً

إن طبيعة الذات الإنسانية وما تجسد فيها من قدرات عقلية وحرية اختيار، وحب الشهوات، وجانب الفجور والتقوى، بالإضافة إلى طبيعة الحياة الدنيا، وحقيقة الآخرة وما يحصل فيها من ثواب وعقاب للإنس والجن، جعلت النفس الإنسانية تقسم إلى نوعين: النوع الأول هو الذي اختار أن يسير في ضوء النهج الإلهي الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للعالمين فاتخذ جانب الخير والتقوى الذي وشجت عليه النفس الإنسانية وفي كل مرة يقع فيها الإنسان في خطأ ما فإن توجيه اللوم للذات الإنسانية يكون من شأنه هذه النفس. لذلك سماها الحق سبحانه وتعالى بالنفس اللوامة، وهي التي تلوم ذاتها عندما تقع في خطأ معين.

١- سورة الزمر، آية ٤١.

٢- سورة الاعراف، آية ٢٥ - ٣٦.

٣- سورة البقرة، آية ٢٥٦.

قال تعالى:

«لَا تُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا تُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ» (١)

وهذه النفس اللوامة عندما تبعث للحساب في اليوم الآخر وصفها الحق سبحانه وتعالى بالنفس المطمئنة لما قدمت من أفعال لذاتها في الحياة الدنيا «دار البلاء والفناء» لتتبع في دار الآخرة، فأعمالها الخيرة في الحياة الدنيا جعلتها تطمئن إلى مصيرها في اليوم الآخر.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّاتِي» (٢)

وعندما يقوم الإنسان باختيار جانب الخير الذي ينسجم مع فطرة التوحيد ويزكي نفسه ويرتفع بها عن جانب الشر وسبله. فإنه يكون من المفلحين الفائزين الذين أحسنوا الاختيار.

قال تعالى:

«وَنَفْسٌ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا» (٣)

أما الذين اختاروا السبيل الأخرى وهي جانب الفجور والشر في النفس الإنسانية فإنهم خالفوا الفطرة التي فطرت عليها النفس الإنسانية، كما ابتعدوا عن النهج الإلهي القويم الذي بعثه الحق هدى ونورا للناس أجمعين، فهذه النفس التي اختارت اتباع جانب الشر تأمر بعمل السوء وكل ما يسوق إلى دروب الشر، لذلك سبأها الحق سبحانه وتعالى بالنفس الأمارة بالسوء.

قال تعالى:

«وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (٤)

١ - سورة القيامة، آيه ١ - ٢.

٢ - سورة الفجر، آيه ٢٧ - ٣٠.

٣ - سورة الشمس، آيه ٧ - ١٠.

٤ - سورة يوسف، آيه ٥٣.



فهذه النفس الأمارة بالسوء عندما تبعث للحساب والعقاب في اليوم الآخر وتجذب جميع ما عملت من أعمال سيئة وشريرة محضرا تبدأ بالجدال والحسرة على ما قدمت من أعمال، وتود أن تفتدي ذاتها بكل شيء، ولكن دون جدوى لأن جهنم بانتظارها لتجذب سوء العذاب وأشد الوثاق وكل ما يسؤوها.

وفي ضوء ما تقدم من حقائق حول أنواع الذات الإنسانية فإن الحق سبحانه وتعالى خاطب كلا منهما بصفات مختلفة عن الصفات الأخرى التي وصف بها النفس الأخرى فنجد في كتابه العزيز الأوصاف المتعددة والمتجانسة التي يصف بها الحق سبحانه الذين استجابوا إلى نداءه وزكوا أنفسهم باتباع جانب التقوى والخير، إنه سبحانه وتعالى يصفهم بحزب الله، والفئة المنيبة، والمؤمنين، والمفلحين، والعالمين، والمسلمين، والمتقين، والفائزين، والمتوسمين، وأولياء الرحمن، وعباد الرحمن، والموقنين، والصادقين، وأصحاب اليمين، والمقربين، والصالحين، والمهتدين، والمحسنين، والعاقلين، والصابرين، وأولي الألباب، والمتطهرين، والقانتين، وأولي الأبصار، والمنفقين، والمتسفرين، والشاكركين، والمتوكلين، والأبرار، والمقسطين، وأصحاب الجنة، وأهل الفقه، والراشدين، والطيبين، والخاشعين، والمخبتين، والأوابين، وجميع هذه الصفات المؤثرة المجيدة تدل على حسن أعمالهم الخيرة التي تتفق مع دين الفطرة، دين التوحيد.

أما النوع الثاني من النفوس البشرية فقد وصفها الحق سبحانه وتعالى بأوصاف دقيقة تدل على ما تقوم به من أعمال وأنماط سلوكية متعددة. فجاء وصفهم في كتاب الله سبحانه وتعالى بأنهم حزب الشيطان، والفئة المدبرة، والخراصون، والكافرون، والكاذبون، والضالون، والفاستقون، والمنافقون، والخاسرون، والمستكبرون، والفاجرون، والجاهلون، وأولياء الشيطان، والمسرِفون، والمعرضون، والمدبرون، وأصحاب الشمال، وفئة الغاوين، وجنود إبليس، والمجرمون، والمفسدون، والسفهاء، والمشركون، والمعتدون، والمفترون، والماكرون، والجاحدون، وأصحاب السعير، والغافلون، وأصحاب النار، والساھون، والطاغون، والخبثون، والمرتابون، والمبلسون، والكالحون.

ومما تجدر الإشارة إليه أن أغلب الناس اختاروا بمحض إرادتهم أن يكونوا من الفئة الثانية المناهضة للفطرة الإنسانية، وهي التي اتخذت من عدو الإنسانية وليا من دون الله سبحانه وتعالى. ويبدو ذلك بوضوح في الآيات القرآنية الحكيمة

التالية:

قال تعالى:

«وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون» (١)

قال تعالى:

«ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل فابى أكثر الناس إلا كفورا» (٢)

قال تعالى:

«إن الساعة لأتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون» (٣)

قال تعالى:

«وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك من بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلمم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون» (٤)

قال تعالى:

«وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين» (٥)

قال تعالى:

«اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِراً إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ» (٦)

لذلك فإن القسم الأكبر من الناس الذين صدفوا عن طريق الحق البين واتبعوا شهواتهم وأهواءهم التي استخدمها إبليس وقبيله لإغواء الإنسان وإبعاده عن الصراط المستقيم سيكون مصيرهم في نار جهنم، ويشهد على ذلك قول الحق سبحانه وتعالى:

«ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أذان لا يسمعون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون» (٧)

- ١ - سورة الأنعام، آية - ١١٦.
- ٢ - سورة الأسراء، آية - ٨٩.
- ٣ - سورة غافر، آية - ٥٩.
- ٤ - سورة المائدة، آية - ٤٩.
- ٥ - سورة يوسف، آية - ١٠٣.
- ٦ - سورة غافر، آية - ٦١.
- ٧ - سورة الأعراف، آية - ١٧٩.

قال تعالى:

«وَيَوْمَ يُعْشِرُهُمْ جَمِيعًا بِمَا مَعَشَرَ الْجَنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» (١)

«أكثر من الشيء أو الفعل واستكثر منه إذا أتى بالكثير، واستكثر الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتي بأعيانهم في الدنيا والمحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، وإنما للشياطين والاستكثار مما هم مسلطون عليه وهو إغواء الإنس عن طريق ولايته عليهم وليست بولاية إجبار واضطرار بل من قبيل التعامل بين الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى في اتباعه من الفائدة ويتولى المتبوع امر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع في ولايته عليه وإدارة شؤونه، فللجن نوع التناذر من إغواء الإنس والولاية عليهم، وللإنس نوع من التناذر من اتباع الوسواس والتسويات ليستندوا بذلك للذائد المادية والتمتعات النفسانية. وهذا هو الذي يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم : ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوساوسهم وتسويلاتهم من متاع الدنيا وزخارفها، وتمتعوا منا بما كانت تشتهي أنفسهم حتى آل أمرنا إلى ما آل إليه» (٢)

وهناك حقيقة هامة لابد من الإشارة إليها وهي أن العلاقة بين الفئتين أو النوعين من النفس الإنسانية علاقة تبادلية ومستمرة، فالنفس الأمارة بالسوء قد تعدل عن مسارها الخاطئ وتتبع طريق الحق والنور فتصبح هذه النفس لوامة بالدنيا ومطمئنة في الآخرة إذا ما فارقت الحياة الدنيا وهي مستقرة على سبيل الرشاد والهداية وعلى هذا الأساس كانت مهمة الأنبياء والرسل وهي إخراج الناس من الظلمات إلى النور كما أن مهمة الدعوة هي توضيح سبل الحق للناس وتحريرهم من طرق الضلالة وتوجيههم إلى طريق الحق والنور.

وفي المقابل قد نجد نفوساً مؤمنة قد تركت الإيمان وذهبت إلى طريق الغي والضلال مدبرة عن الحق بعد أن عاشت في ظلاله لتصبح نفساً أماراً بالسوء بعد أن كانت وهي جاثمة على طريق الخير نفساً لوامة، ودليل ذلك يكمن في مخاطبة الحق

١ - سورة الانعام، آية - ١٢٨.

٢ - السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد السابع، ١٩٧١ ص ٣٥٢.

سبحانه وتعالى للذين كفروا بعد إيمانهم في الآيات القرآنية الحكيمية التالية:

قال تعالى:

«... وَمَنْ يَتَّبِدَلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ» (١)

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» (٢)

قال تعالى:

«لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ مَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ» (٣)

وفي ضوء ما أوردنا من حقائق حول قضية أنواع النفس الإنسانية يجب على العلماء والباحثين أن يميزوا بين النوعين عند الشروع بدراساتهم الإنسانية حول الإنسان من أجل الوصول إلى حقيقة الأمر والهدف المنشود الذي تسعى إليه الدراسة. هذا بجانب تسهيل مهمة تعميم نتائج الدراسات لتشمل فقط نوع الفئة التي أجريت عليها الدراسة وليس تعميمها على الناس كافة أو على كلا النوعين من الناس. لأننا وجدنا أن هناك تفاوتاً كبيراً بين النوعين من حيث الاعتقاد وأنماط السلوك والصفات العامة التي تميز كل نوع بالرغم من وحدة الصفات التشريعية والفسولوجية بين الطرفين.

#### القضية السابعة - الذات الإنسانية وقدراتها الذاتية

هناك نوعان من القوى في هذا الوجود، قوة مطلقة وهي التي تنفذ إلى كل ما تريد ولا يحول أمام إرادتها أي حاجز أو مانع لأنها تستطيع أن تفعل كل ما تشاء، ولا تستطيع أن تقف أمام هذه القوة أي قوة أخرى، وهذه القوة بحكم العقل والمنطق واحدة لا يجوز تعددها، لأن تعددها ينفي عنها صفة الطلاقة في الفعل والإرادة لما ينتج من اختلاف في الإرادة بين القوى في حالة تعددها، لذلك فإن القوة المطلقة هي واحدة، وهي الذات الإلهية، لذلك جاء وصف الحق سبحانه وتعالى لذاته بأنه أحد، ولم يضاهاه أحد، والقادر على كل شيء حيث يقول له كن فيكون.

أما بالنسبة إلى النوع الثاني فهي القوة المقيدة وهي التي تجسد فيها من قدرات ما يوصلها إلى حد معين لا تستطيع أن تتعداه، لذلك فهي مقيدة بحكم

١- سورة البقرة، آية ١٠٨.

٢- سورة آل عمران، آية ٩٠.

٣- سورة النوبة، آية ٦٦.

طبيعتها. وهذا النوع متعدد لأن جميع المخلوقات التي نعرفها أو لانعرفها ركبت فيها قدرات معينة تجعلها قادرة على القيام بأعمال معينة محددة، وهناك من الأمور والأعمال التي لا تستطيع أن تصل إليها بحكم قدراتها المقيدة، ويعد الإنسان إحدى هذه القوى المقيدة لأنه مخلوق من مخلوقات الحق سبحانه وتعالى، وكل ما هو مخلوق يعد محدود القدرة والطاقات. لذلك جاء وصف الحق سبحانه وتعالى للإنسان بأنه مخلوق ضعيف، وجاهل، وظلوم، ويبدو ذلك واضحاً جلياً في قول الباري عز وجل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا كَيْلًا ظَلِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا» (١)

«كون الإنسان ضعيفاً لما ركب الله فيه من القوى الشهوية التي لا تزال تنازعه في ما تتعلق به من المشتهايات، وتبعثه إلى غشيانها فمن الله عليهم بتشريع حليه ما تنكسر به سورة شهواتهم بتجويز النكاح» (٢)

«فإذا يريد الله بالناس، حين يبين لهم منهجه، ويشرع لهم سنته؟ إنه يريد أن يتوب عليهم، يريد أن يهديهم، يريد أن يجنبهم المزالق، يريد أن يعينهم على التسامي في المرتقى الصاعد إلى القمة السامقة، وماذا يريد الذين يتبعون الشهوات، ويزينون للناس منابع ومذاهب لم يأذن بها الله، ولم يشرعها لعباده؟ إنهم يريدون لهم أن يميلوا ميلاً عظيماً عن المنهج الراشد، والمرتقى الصاعد والطريق المستقيم» (٣)

قال تعالى:

«إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَنفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا» (٤)

«إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العبر، الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع. وإنها لمخاطبة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة. ومن ثم «كان ظلوماً»

١ - سورة النساء، آية ٢٧ - ٢٨.

٢ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، الجزء الرابع، ١٩٧٤، ص ٢٨٢.

٣ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الثاني، دار الشروق، ١٩٨١، ص ٦٣١.

٤ - سورة الاحزاب، آية ٧٢.

لنفسه «جهولا» لطاقته هذا بالقياس الى ضخامة ما رُج بنفسه لحيله» (١)

ومن دلائل ضعف الإنسان أن الحق سبحانه وتعالى عندما أمر بهبوطه مع عدوه الأشر إبليس، وعده الحق سبحانه وتعالى أن يبعث له هدى يقوده إلى طريق الحق والنور، ويحرره ويشد من ساعده في مقاومة عدوه اللدود.

قال تعالى:

«قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى \* وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى» (٢)

وقد بين الحق سبحانه وتعالى حاجة الإنسان إلى خالقه وغنى الخالق عن مخلوقاته، لأن المطلق لا يحتاج إلى عون مقيد، والمقيد لا بد من أن يحتاج عون غيره، وبالأذاة القوة المطلقة.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ» (٣)

إن الحجج الكبرى التي توضح عجز الإنسان، ومدى قصوره، ومحدودية وسائله والأبعاد التي يستطيع أن ينفذ إليها - تبرز بوضوح وجلاء في تحدي الحق سبحانه وتعالى للذين يقاومون ويعارضون نهج الحق والحقيقة وينكرون وجود الله، ويشككون في كتابه الحكيم ومصدره. إنه سبحانه وتعالى تحداهم بطريقة تدل على ضعفهم، وعلى اتباعهم سبل الشهوة والضلالة، وابتعادهم عن طريق الحق والنور. وهذا التحدي بدأ في السابق، وما زال قائما، وسيبقى في المستقبل. وهذا جميعه يدل على ضعف الإنسان ومصادقية القرآن وكمال مصدره الإلهي، والآيات التالية تبين بوضوح التحدي الإلهي الساطع للإنسان.

قال تعالى:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَاذْعُوا مَنِ اسْتَنْطَعْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٤)

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء الخامس، دار الشروق، ١٩٨١، ص ٢٨٨٥.

٢ - سورة طه آيه - ١٢٣ - ١٢٤.

٣ - سورة فاطر آيه - ١٥.

٤ - سورة هود آيه ١٣.

قال تعالى:

«وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ  
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (١)

قال تعالى:

«أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ  
دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» (٢)

### القضية الثامنة - الذات الإنسانية وحب الشهوات

بين الحق سبحانه وتعالى لنا حقيقة الإنسان على أنه مركب من مجموعة من الشهوات والحاجات التي تدفعه باستمرار إلى القيام بأنماط سلوكية معينة لاشباع تلك الشهوات والحاجات التي جبلت عليها الذات الإنسانية، ومن طبيعة الذات الإنسانية أنها تحب الشهوات وهذا الحب لها يبدو بوضوح في قوله تعالى:

«زَيْنَ لِلنَّاسِ هُبُ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ  
الْمُتَنَظَّرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْكَبَلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرَدِ ذَلِكَ  
مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ» (٣)

هذا بالإضافة إلى أن الحق سبحانه وتعالى قد زين الحياة الدنيا بجميع الأمور التي تشد الإنسان نحوها ليقدر سبحانه وتعالى طبيعة ونوع الاختبار الذي جسده في الحياة الدنيا ليختار الإنسان سبيله وفق الهدف الذي خلق من أجله، والفطرة التي فطر عليها، وحرية الاختيار، وجانبي التقوى والفجور الموجودين داخل النفس الإنسانية، وحب الشهوات، وزخارف الدنيا ومفاتنها، ومسبيل الحق والنور التي وضعاها الله سبحانه وتعالى للبشر من خلال رسله وكتبه. وفي ضوء اختيار الإنسان في دار الفناء لإحدى السبيلين يتحدد مصيره في دار الخلود.

قال تعالى:

«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٤)

ومن المؤسف حقا أن أغلب الناس قد فهموا حقيقة وجودهم في هذا الكون على قاعدة إشباع شهواتهم بأية طريقة، حتى أصبحت الحياة المادية الحديثة هي

١ - سورة البقرة، آية ٢٣.

٢ - سورة يونس، آية ٣٨.

٣ - سورة آل عمران، آية ١٤.

٤ - سورة الكهف، آية ٧.

كل شيء في نظر هؤلاء، فالآمال، والطموحات، والأهداف، والأمنيات، جميعها لا تتعدى إشباع شهواتهم وفق أي قانون أو نظام، كما أصبحت شتى المقييس، والمعايير، والقيم، والأخلاق تقاس بمقدار تلبية تلك الشهوات والرغائب، حتى الدراسات الاجتماعية والنفسية للإنسان ما زالت تدور حول الحاجات المادية للإنسان أما بالنسبة للذين أنابوا واستجابوا للهدى الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى، وهم يمثلون النسبة القليلة من الناس، فانهم يلبون هذه الحاجات الشهوية بالطرق والوسائل التي بينها الحق سبحانه وتعالى من خلال نهجه المنير الذي بعثه لنا هدى ورحمة عن طريق رسله وأنبيائه، وبهذا تنكسر حدة هذه القوى الشهوية عن طريق الحلال الذي بينه سبحانه وتعالى في الحياة الدنيا، ومن ثم يلاقون ما هو أفضل واسمى من الشهوات في انتظارهم في دار السامد والخلود.

قال تعالى:

«قُلْ أُوْنِسْكُمْ بِخَيْرِ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ» (١)

#### القضية التاسعة – الذات الإنسانية والموت

تعد قضية الموت من أكثر القضايا التي شغلت الإنسان عبر تاريخه وكانت وما زالت مبعث حيرته، فهي كالسيف المصلت على رقاب كافة الناس، حيث استحال على الإنسان الفرار من تجربة الموت. فهي تجربة يجب ان يخوضها كل من وهب الحياة، فهذا الأمر فيه قرار إلهي قطعي جازم، ويبدو ذلك واضحاً في قوله تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُجِرَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ سَارَ وَهَما الصَّيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعَ الْغُرُورِ» (٢)

قال تعالى:

«كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» (٣)

١ - سورة ال عمران، آية ١٥ .

٢ - سورة ال عمران، آية ١٨٥ .

٣ - سورة الانبياء، آية ٣٥ .



## القضية العاشرة والأخيرة - الذات الإنسانية والبعث والخلود

تعد قضية البعث والخلود من المسائل الكبرى التي أثارت اهتمام الإنسان عبر تاريخه المديد، لما لهذه القضية من آثار واسعة النطاق على معتقدات الإنسان وأنماط سلوكه في الحياة الدنيا. وإذا ما تأملنا تاريخ البشر مع أنبياء الحق سبحانه وتعالى نجد هذه القضية قد أخذت مكانا بارزا وأساسيا في مادة النقاش والحوار الذي كان يجري بين الطرفين.

كما أننا نلاحظ أن أغلب الناس كانوا يكذبون الأنبياء والرسل بمختلف الطرق والأساليب بما يتصل من معلومات حول قضية البعث والخلود، ومن المؤسف جدا أن أغلب الناس في الوقت الحاضر هم في شك، وريبة، وإنكار لقضية البعث والخلود، ولكن الذي خلق الوجود بكل ما فيه من مخلوقات يبين لنا حقائق تلك القضية، وسوف نختار نماذج من الآيات القرآنية الحكيمة لكثرتها لتوضح لنا الحقائق المتصلة بالبعث والخلود.

قال تعالى:

«وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ فِي يَوْمٍ يُنظَرُونَ» (١)

قال تعالى:

«يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ يَرَاءًا كَانَتْهُمْ إِلَىٰ نُصَبٍ يُوْفُّونَهُمْ حَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرَاهُمْ ذَلَّةً ذَلِكِ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» (٢)

قال تعالى:

«وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ مَّنْ حُشِيَ الرَّحْمَنُ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ» (٣)

قال تعالى:

«وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٤)

١- سورة الزمر، آيه - ٦٨.

٢- سورة المعارج، آيه ٤٣ - ٤٤.

٣- سورة ق، آيه ٣١ - ٣٤.

٤- سورة البقرة، آيه ٣٩.

وخلص القول إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان في هذه الصورة البديعة الفريدة وميزه عن سائر مخلوقاته بحرية الاختيار بعد أن وهبه الملكة العقلية، وبين له الهدف الأسنى من خلقه وهو التوجه بالعبادة إلى الباري عز وجل، وفطره على دين التوحيد، كما ركب فيه جانبي الخير والشر، وبين له سبيل الحق وسبل الضلالة يختار الإنسان بكامل إرادته، بين السبيل المؤدية إلى الحق وسدرة الصواب، والسبيل المؤدية إلى الضلالة والخسران المبين، كما زين الحق سبحانه وتعالى للذات الإنسانية حب الشهوات المتعلقة بالحياة الدنيا. وفي ضوء هذه المعطيات جميعا يخوض الإنسان تجربة الحياة التي تعد الاختبار الدقيق الذي سوف يجتازه جميع الناس إما بالفوز المبين وإما بالخسران العظيم.

كما تبين أن النفوس البشرية كافة سوف تخوض تجربة الموت ومن ثم تجربة البعث للثواب والعقاب وأخيرا سيجد الإنسان مصيره الخالد إما في دار السدام والخلود وإما في نار جهنم.

كذلك أن هناك نوعين من الذات الإنسانية، يتميز كل نوع عن الآخر بالمعتقدات الأساسية، والأنماط السلوكية، وأغلب القضايا الاجتماعية، هذا مع التشابه التام بينهما في الأمور التشريعية والفسولوجية، وهذه القضية بالذات يجب أن تراعى من قبل الباحثين في مجال الدراسات الإنسانية سواء في علم الاجتماع، أو علم النفس، أو شتى المجالات التربوية، أو المجالات السياسية، أو المجالات الاقتصادية، أو المجالات الثقافية، لأن لكل نوع من أنواع الذات الإنسانية أهدافه العامة التي يسعى إلى تحقيقها في الحياة الدنيا، وهذه الأهداف العامة انبثقت من المعتقدات الأساسية لكل نوع، وهذا هو سر الاختلاف.

وهناك ملاحظة هامة لابد من الإشارة إليها وهي أننا تطرقنا في هذه الدراسة فقط إلى أهم القضايا المتصلة بطبيعة الذات الإنسانية وليس إلى جميع القضايا المتعلقة بالذات الإنسانية لصعوبة بحثها جميعا في دراسة واحدة.

## المراجع العربية

- ١- ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١.
- ٢- احمد علي الفنيش، اصول التربية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٨٢.
- ٣- اريك فروم، الدين والتحليل النفسي، ترجمة فؤاد كامل، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٤- الكسيس كارل، الانسان ذلك المجهول، تعريب شفيق اسعد، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٨٢.
- ٥- توفيق الطويل، امس الفلسفة، دار النهضة، القاهرة.
- ٦- حامد عبد السلام زهران، علم نفس النمو، عالم الكتب، القاهرة، ١٩٧٧.
- ٧- معدية بهادر، من انا؟ البرنامج التربوي النفسي لخبرة من انا الموجهة لاطفال الرياض بين النظرية والتجربة، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ١٩٨٢.
- ٨- سيد ابراهيم الجيار، التوجيه الفلسفي والاجتماعي للتربية، مكتبة غريب، القاهرة، ١٩٧٨.
- ٩- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، بيروت، ١٩٨١.
- ١٠- عبد الرحمن حسن الميداني، الاخلاق الاسلامية واسمها، الطبعة الاولى، دار القلم، بيروت، ١٩٧٩.
- ١١- عمر الشيباني، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، الدار العربية للكتاب، ليبيا، ١٩٧٥.
- ١٢- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، القاهرة، ١٩٨٢.
- ١٣- فيليب فينكس، فلسفة التربية، ترجمة وتقديم الدكتور محمد لبيب النجيجي، دار النهضة العربية، ١٩٦٥.

- ١٤- محمد أبو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، مكتبة دار المعرفة، الاسكندرية، ١٩٨٦.
- ١٥- محمد جمعة، تاريخ فلاسفة الاسلام في المشرق والمغرب، مكتبة المعارف، مصر، ١٩٢٧.
- ١٦- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ١٩٧١.
- ١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، الطبعة الاولى، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٨- محمد لبيب النجيجي، مقدمة في فلسفة التربية، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٢.
- ١٩- ميخائيل اسعد، ومالك مخول، مشكلات الطفولة والمراهقة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢.

## المراجع الاجنبية

- 1\_ Gersltd, A.T. The psychology of Adolesence. 2nd Ed. New york.  
The Macmillan Company, 1963.
- 2\_ Burns, J.S. The self concept in theory, meeasurement,  
development, and behavior. New york, Longman, Inc. 1979.
- 3\_ John S. Brubacher, Modern philosophies of Education . New york;  
MC Graw\_ Hill Book , Inc. 1969.
- 4\_ Philips H. phenix, Realms of Meaning. New york: MC Graw \_ Hill  
Book Company, Inc. 1964.
- 5\_ Robert E. Mason, Contemporary Educational Theory. New york:  
David MC kay Company, , Inc. 1972.

## الفصل الرابع

العلاقة بين المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

## العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان

هدفت الدراسة الى توضيح العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان في الاختيار بين الخير وبين الشر، وما يقوم به من أعمال وأفعال في ضوء اختياره.

لقد تم طرح كافة الآراء السابقة حول هذا الموضوع، وبالذات قول الجبرية والقدرية، والأشاعرة، والإمامية. فالجبرية تؤمن أن الانسان مجبور على أعماله وأفعاله، والقدرية تعتقد بالتفويض، والأشاعرة يقولون بفكرة الكسب وهي أقرب ما تكون الى الجبرية، أما الإمامية فيقولون لا جبر ولا تفويض ولكنه أمر بين الأمرين.

وقد خلصت الدراسة الى حقيقة مفادها أن كل شيء يحدث في الوجود لا يتعدى مشيئة الله، أي السماح له بالحدوث وليس الاجبار على حدوثه.

كما أفادت الدراسة أن علم الله سبحانه وتعالى أزلي وأنه لا يحتاج في شيء، فهو يعلم حدوث الأشياء قبل وقوعها، ويقرر في ضوء علمه كل شيء في الوجود. أما بالنسبة الى الانسان فإنه يسعى نحو الخير وسبله ونحو الشر وسبله بملىء ارادته دون أي اجبار أو اكراه بالرغم من علم الله سبحانه وتعالى السابق لوقوع الأحداث ماذا سيختار الانسان. فهذا العلم يدل فقط على قدرة الله وعلمه تعالت وجلت قدرته.

## العلاقة بين المشيئة الإلهية وحرية الإنسان

### مقدمة:

لقد حاول الإنسان منذ فجر تاريخه أن يبحث في القضايا التي تربطه بالوجود سواء المتصلة بالوجود الفيزيقي أم المتصل منها بالوجود الميتافيزيقي. وبعد أن بذل الجنس البشري الجهد الكبير في الحديث والبحث والتأمل في موضوع الذات الإلهية، ذهب بكل قوة وعزم عن طريق التحليل والدراسة للوصول إلى نوع العلاقة بين الذات الإلهية وما لها من قدرات وصفات وبين الإنسان وحرية إرادته في هذا الوجود.

### أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنماط الاعتقاد والسلوك المتباينة المترتبة على حقيقة موضوع الدراسة وما لها من آثار واسعة النطاق على كافة المعتقدات الإنسانية والأنماط السلوكية للإنسان في شتى أموره الحياتية على اختلاف النظم والمدارس الفكرية المتبعة. لذلك فإن موضوع الدراسة كان وما زال محطة أنظار الباحثين والعلماء والفلاسفة على اختلاف مشاربهم الفكرية.

«لم تكن مسألة القضاء والقدر شيئاً جديداً بحثها المعتزلة أو غيرهم من المتكلمين، لأن الفلاسفة اليونانيين قد سبقوهم بذلك وبحثوا أفعال العباد، وأطلقوا على ذلك: مسألة «القضاء والقدر» أو «الإختيار والجبر» أو «حرية الإرادة» وهذه التسميات كلها في معنى واحد، وهو أن كل ما يحدث من الإنسان من أفعال هل هو حر في إحداثها أم مجبور في ذلك» (١).

«تعد مشكلة الجبر والاختيار من أهم المشاكل التي واجهها المفكرون الاسلاميون على اختلاف مشاربهم، لأنها ترتبط بالمسؤولية والجزاء، بالشواب والعقاب، ترتبط بالسلوك الاخلاقي وتحديد الحرية الانسانية، وموقف الانسان في هذا العالم» (٢).

١ - عبد الحلیم قنيس وخالد عبد الرحمن، مسألة القضاء والقدر، دمشق، ١٩٧٩، ص ٣١.

٢ - د. فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، ١٩٨٢، ص ٣٦٣.



«إن مسألة الجبر والتفويض لهما من أهم المسائل النظرية وأقدم المعتقدات التي وقعت محلاً لمعركة الآراء وضلت لشدة غموضها العقول والأفكار، وهي من أهم الأسباب لتشعب المذاهب وتعدد الفرق، والموجب لتكفير أمة اختارها رغم الروابط الدينية التي تربطها من جهة أخرى، وقد ماذت جانباً عظيماً من كتب التأليف والتصنيف، ونالت حظاً وافراً من البحث والتدريس والجدل عند الفلاسفة والسالكين مسلّكهم قبل الإسلام» (١).

لذلك فإن المساهمة العلمية في موضوع هذه الدراسة يساعد الإنسان على فهم علاقته بخالفه ومكانته في الكون، هذا بجانب المساعدة في إزالة بعض الخدافات الفكرية بين المذاهب والفرق الإسلامية حول هذا الموضوع الهام.

### الدراسات السابقة:

نظراً لكثرة الدراسات السابقة للإنسان حول هذا الموضوع على اختلاف المذاهب الفكرية والمدارس الفلسفية التي سلك في ضوئها الإنسان، فإننا سوف نكتفي بعرض الدراسات والآراء التي تبين بوضوح الآراء كافة حول هذا الموضوع، دون اللجوء إلى الإشارة لكافة الدراسات بهدف الابتعاد عن التكرار الممل.

«يرى الابيقوريون أن الإرادة حرة في الاختيار، والإنسان يفعل جميع الأفعال بإرادته واختياره دون إكراه» (٢).

«يرى الرواقيون أن الإرادة مجبرة على السير في طريق لا يمكنها أن تتعدها، والإنسان لا يفعل شيئاً بإرادته، وإنما هو مجبر على فعل أفعاله» (٣).

إن هذا الرأي اليوناني المتفاوت حول موضوع الجبر والاختيار عند الإنسان قد أثر بشكل قوي على آراء المسلمين وكتابهم كما سنلاحظ في الاقتباسات التي تمثل آراءهم حول هذا الموضوع.

أما بالنسبة إلى موضوع الجبر «فقد ذهب إليه جماعة كبيرة من هذه الأمة، وعلى الأخص المتصوفون؛ وقد أطلق عليها اسم الجبرية، ومنشأ فهم هؤلاء

١- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار التيار الجديد، بيروت، لبنان، الطبعة العاشرة، ١٩٨٩، ص ٢٧٤.

٢- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ص ٢١٩.

٣- المصدر السابق، ص ٢٢٩.

لهذه القضية يعود إلى أناس اختلط عليهم الفهم بين واقع القدر، وبين ما ينتج عنه من التسليم به، ونسيان واقع القدر، والاقتصار على ما ينتج عنه من التسليم. فمن جراء هذا الاختلاط وعدم التمييز الدقيق بين المعنيين أو الواقعين نشأت الجبرية» (١).

وقد أورد الشهرستاني تعريفاً للجبرية والجبر وتوضيحاً أصنافها. «الجبر هو نفي الفعل حقيقة عن العبد، وإضافته إلى الرب تعالى. والجبرية أصناف:

١- فالجبرية الخالصة هي التي لا تثبت للعبد فعلاً ولا قدرة على الفعل أصلاً.

٢- والجبرية المتوسطة أن تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة» (٢).

«إن أول من قال بالجبر معاوية بن أبي سفيان، وقال: كل ما يأتيه من الله بقضائه وخلقه، وأن الله جعله إماماً، وولاه الأمر، وتبعه على ذلك ملوك بني أمية، وذلك كي يكون لهم عذر فيما يفعلونه» (٣).

«يقول الجبريون، إن الخالق المطلق لله توجب أن لا يكون أحد من الناس خالقاً آخر. فلو قلنا أن الإنسان يوجد عمله، قبلنا خالقية الإنسان، هذه القاعدة مأخوذة من الأصل القائل «لا مؤثر في الوجود إلا الله» أي أنه لا يوجد من يخالفه وإذا اعتبرنا مصداقية هذا القول، فكيف نستطيع القول بأن الإنسان يوجد عمل الله، والإنسان في جميع أعماله مجبور؟ ولعل هذا التعليل للأصل مشتق من مفهوم الآية الشريفة «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ» - (٤).

«لقد عالج ابن سينا مشكلة الجبر والاختيار في مواضع متفرقة من كتبه، لكن نظراً لأهميتها فقد خصص لها رسالة هي «رسالة القدر» وفي رسالته يرد على كل شيء، يقع من الإنسان أو يقع للإنسان إلى الله سبحانه وتعالى. فهو يقول بالتدبير الإلهي الشامل للكون، وهذا التدبير لا يخرج عنه موجود من الموجودات. فالعالم الذي نحيا فيه عالم محكم أتقن صنعه خالقه. فليس ثمة صدقة أو اختيار، بل ضرورة شاملة، فكل شيء يرد إلى المشيئة الإلهية» (٥).

١- عبد الحكيم قنيس، مصدر سابق، ص ١١٦ - ١١٧.

٢- الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الأول، ص ١٠٨.

٣- المغنلي، الجزء الثامن، ص ٤.

٤- الشيخ الركاوي، خطاب الحرية في النظام الایستولوجي، دار النهضة الإسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠، ص ٢٨٣.

٥- د. فيصل بدير عون، مرجع سابق، ص ٢٦٣.

«وبذلك أصبح الجبريون ينسبون للقدر المعصية مع الطاعة، والتبجح مع الحسن، والشر مع الخير، والرذيلة مع الفضيلة، من غير تمييز ولا إدراك حتى نتج عن ذلك القعود عن عظام الأعمال، وعدم اقتحام الصعوبات والاستسلام المطلق لكل ما يحدث وما يجري من خير أو شر، لأنه في نظرهم مقدور لا يقدر على دفعه إلا الله تعالى، فمن هذا المعتقد الخطأ الذي نتج عن سوء الفهم لحقيقة الايمان بالقدر الذي أمرنا به؛ فقد جر على الأمة أخطر الويلات وأوقع بلاداً بأسرها بأفطع النكبات» (١).

«لا شك في أن الجبرية... لها آثارها السيئة الكثيرة: إذ تشل روح الانسان وإرادته عن أي تأثير. وهي الفكرة التي شدت من عضد الأقوياء الظالمين في نفس الوقت الذي قيدت فيه أيدي الضعفاء والمظلومين. فذلك الانسان الذي سيطر على منصب أو ثروة عامة بطرق غير مشروعة يتحدث عن المواهب الإلهية التي اختصه الله بها وغمره بنعمته بعد أن حرم الضعفاء منها وغمرهم في بحر من الآلام والعذاب. وذلك الذي حرم من مثل هذه المواهب لا يسمح لنفسه أن يعترض، وإلا كان ذلك اعتراضاً على (النصيب والتقسمة) و (التقدير الإلهي) وهو أمر يتطلب الصبر والرضا والشكر لا الاعتراض. فالظالم يرفع عنه مسؤولية أعماله بحجة القضاء والقدر، وباعتبار أنه- أي الظالم- يد الله ويد الله لا تقبل أي طعن فيما تعمل. وبنفس هذا الدليل يتحمل المظلوم كل أنحاء الظلم لأنه يرى أن كل ما يرد عليه إنما هو- وبصورة مباشرة- من الله، فهو آيس من نتيجة أي مقاومة. وهل يمكن مقاومة القضاء والقدر؟ أم هل يمكن فك قبضة الغيب القوية؟ هذا مع أن ذلك يتنافى والمستوى الأخلاقي للمسلم، إذ هو خلاف صفة الرضا والتسليم» (٢).

بينما نجد الرأي المقابل للجبرية يتجسد في اعتقاد المعتزلة حيث قالوا «إن صدور العمل عن الانسان إما بتأثير قدرته أو أن عمله يصدر دون دخل لقدرة الله، إذ أن إرادة الانسان للقيام بالعمل لا تحتاج لداعي» (٣).

١- عبد الحلیم قنيس، مصدر سابق، ص ١١٩.

٢- مرتضى المطهري، الانسان والقضاء والقدر، دار المعارف للطبعوعات، بيروت، ١٩٧٨، ص ٥٦-٥٧.

٣- الشيخ الركابي، مصدر سابق، ص ٢٨٠.

كما أشار الملطي إلى أن القدرية يزعمون أن الحسنات والخير من الله. والشر والسيئات من أنفسهم. لكي لا ينسبوا إلى الله شيئاً من السيئات والمعاصي» (١).

«قال المعتزلة والإمامية: إن أفعال العبد نوعان: نوع تتعلق به إرادة واختيار، كالذهب والإياب، والكتابة والقراءة. ونوع لا إرادة للعبد فيه ولا اختيار كالتنفس والنمو والحركة الدموية. والإنسان مخير غير مسير في النوع الأول، ومسير غير مخير في النوع الثاني» (٢).

وقد استدل أصحاب هذا الاتجاه بالأمور التالية (٣):

١- كل إنسان يشعر من نفسه أنه يؤدي أعماله اليومية باختياره كالذهب إلى المكتب أو الحقل أو المصنع أو السوق. وما إلى ذلك من الأفعال التي إن شاء فعلها. وإن شاء تركها.

٢- لو كنا مكرهين على كل فعل لم يبق فرق بين من أحسن وأساء مع أن الطفل يميز بين من يعطيه الحلوى ومن يؤلمه، وينفر من هذا، ويقرب من ذاك. ولو كانت الأفعال كلها من الله لكانت على نسق واحد لا إساءة فيها ولا إحسان، ولا خير ولا شر.

٣- لو كانت الأفعال صادرة من الله لتبجح منه التكليف، ولانسد باب الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

٤- لو لم تكن فاعلين لكان الله ظالماً للعباد، يخلق فيهم المعاصي ثم يعاقبهم عليها.

«إن أدلة المعتزلة لا تخرج عن قياس الله تعالى على الإنسان وعن قضايا منطقية ومقدمات ونتائج، وليست أدلة عقلية مبنية على الإدراك مأخوذة من الواقع المحسوس أو من دلالات النصوص القرآنية حسب فهم اللغة، فبني رأيهم في مسألة القضاء والقدر على هذا الوجه من الاستدلال، ولهذا كان خطأ، لأن ما بني عليه من الأساس كان خطأ، وحين جاء خصومهم جعلوا رأي المعتزلة أساساً للرد وليس العقل ولا الكتاب والسنة، ولهذا كان كذلك خطأ، وظلوا جميعاً يدورون في دوامة القضاء والقدر على أساس خاطئ من الاستدلال، فكان رأياً خاطئاً» (٤)

١- الملطي، التنبية، ص ١٢٩.

٢- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الإسلامية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ص ١١٩.

٣- محمد جواد مغنية، المصدر السابق، ص ١٢٠.

٤- عبد الحلیم قنيس، مصدر سابق، ص ٢٠.

ومنذ منتصف القرن الأول حين وجد المسلكان الفكريان في هذه المسألة، نهضت جماعة تؤيد حرية الانسان واختياره فأولت الآيات القرآنية التي تدل على رأيها وعرفت بالقدرية، في حين أيدت جماعة أخرى جانب التقدير الغيبي الصارم المتحكم فأولت الآيات القرآنية التي تدعم رأيها وعرفت بالجبرية (١).

«إن مسألة أفعال العباد من المسائل الرئيسية في مذهب الأشعري، وفيه أن أفعال العباد مخلوقة لله وليس للانسان فيها غير اكتسابها؛ أي: أن الفاعل الحقيقي هو الله، وما الانسان إلا مكتسب للفعل الذي أحدثه الله على يدي هذا الانسان» (٢).

أما رأي المتكلمين من أهل السنة فقد كانت لهم وجهة نظر أخرى حول هذا الموضوع يتضح أبعادها في ردهم على المعتزلة والجبرية حيث قالوا: إن الله تعالى أجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لا بقدرة العبد وإرادته، فهذا الإقتران هو الكسب، وقد أيدوا دليلهم العقلي هنا بالآيات القرآنية التي استدلت بها الجبرية على رأيهم، وزادوا على ذلك ببعض الآيات الأخرى. وعدوا أنفسهم قد ردوا على المعتزلة والجبرية... غير أن المتفحص المدقق في آرائهم لا يتعدى أن يقول: إن رأي المتكلمين من أهل السنة متفق معنى ونتيجة مع رأي الجبرية، ومختلف لفظاً ومسلماً. حتى أن مسألة «الكسب» لم يستطعوا أن ينجحوا في التدليل عليها، فلا هي جارية على طريق العقل، إذ ليس لها برهان عقلي، ولا على طريق النقل، إذ ليس عليها دليل شرعي صريح، وإنما هي محاولة - لا فائدة فيها - لتحقيق موقف بين رأي المعتزلة ورأي الجبرية» (٣).

ومعنى الكسب عند الأشاعرة أن للانسان قدرة على الفعل من دون شك، إذ نرى بالوجدان والعيان فرقاً بين المتكلم والأخرس، ولكن توجد إلى جانب قدرة الانسان هذه قدرة الله سبحانه، لأنه قادر على كل مقدور. وبما أنه لا يجتمع قادران على مقدور واحد فلا بد أن يستند الفعل إلى إحدى القدرتين؛ إما إلى قدرة الله وحدها وإما قدرة العبد وحدها. ولما كانت قدرة الله أقدم وأعم وأقوى أسند إليها الفعل. وإسناد الفعل إلى قدرة الله لا يستلزم انتفاء قدرة العبد عليه، بل هي موجودة ومقارنة لقدرته تعالى. وهذا الإقتران بالذات يقال له الكسب، وبه يصح

١ - مرتضى المطهرى، مرجع سابق، ص ٥٢.

٢ - الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين، الجزء الاول، ص ٥٥.

٣ - عبد الحلیم قنيس، مصدر سابق، ص ٣٧ - ٣٨.

التكليف والثواب والعقاب، والمدح والذم، وبه ينزه الله عن الظلم، لأن قدرة العبد على الفعل متحققة في نفس الأمر والواقع» (١).

واستدل الأشاعرة على نظرية الكسب هذه بالأمور التالية:

١- إن فعل العبد مقدور لله، لأن قدرته تشمل كل شيء، وكل مقدور لله فهو خالقه، ينتج أن الله خلق فعل العبد.

٢- لو كان العبد فاعلاً مختاراً لكان شريكاً مع الله، وهو محال.

٣- إن الله يعلم وقوع الفعل من العبد، وعلمه لا ينفك عن المعلوم وإلا لزم انقلاب علمه جهلاً وهو محال» (٢).

وهناك رأي آخر حول هذا الموضوع وهو الرأي الذي سارت عليه الإمامية حيث لا جبر ولا تفويض ولكن الأمر بين الأمرين فيقولون إن أئمة الهدى عليهم السلام قد كشفوا لنا عن وجه الحق واهتدينا بكلامهم إلى الحقيقة التي يستصوبها العقل، وهو حاكم بنسب الجبر والتفويض بالمعنى الذي نذكره لهاتين اللفظتين، وصحة الأمر بين الأمرين. وقد استفادت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنهم قالوا «لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين».

ونعني بالأمر بين الأمرين أن الله تعالى أقدر الخلق على أعمالهم ومكنهم من أفعالهم، فهم يملكون الاستطاعة، لكن هو المملك، ثم أمرهم بالخير، ونهاهم عن الشر، ووعدهم بالثواب على الأول، والعقاب على الثاني، فإذا فعل العبد الخير والطاعة فيسند هذا الفعل إلى الله تعالى، لأن العبد فعله بالقدرة التي ملكها من خالقه، ولأنه قد رضي وأمره به، وينسب أيضاً إلى العبد لأنه قد اختار الخير مع قدرته على الشر. وأما إذا اختار فعل الشر وأتى به العبد فإنه وإن فعله بالقدرة من الله تعالى إلا أنه مع ذلك لا ينسب الشر إلى الله، بل هو مستند إلى العبد وحده ولله الحجة عليه، حيث أنه لم يرض بفعل الشر، بل نهاه عنه، فالخير من الله تعالى لرضاه به وإقرار العبد عليه، حيث أقدره على الخير ولله الحجة لو فعل العبد الشر، لعدم الرضى» (٣).

١- محمد جواد مغنوية، معالم الفلسفة الإسلامية، مصدر سابق، ص ١٢١.

٢- محمد جواد مغنوية، المصدر السابق، ص ١٢١-١٢٢.

٣- محمد جواد مغنوية، المصدر السابق، ص ٢٧٦-٢٧٧.

إن من أبرز الأدلة التي استدلو بها على هذا الرأي ما روي عن الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام لما انصرف من سفين قام إليه شيخ من شهد الواقعة معه، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا أبقتنا من الله وقدر، فقال له أمير المؤمنين: (أجل يا شيخ فوالله ما علوتم تلة ولا هبطتم بطن وإلا أبقتنا من الله وقدر)، فقال الشيخ: عند الله أحسب عثاني يا أمير المؤمنين، فقال: «مهلا يا شيخ لعلك تظن قضاء حتماً وقدرًا لازماً، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والنهي والزجر، ولسقط معنى الوعد والوعيد، ولم تكن على مسيء لائمة ولا لمحسن محمداً، ولكن المحسن أولى بالائمة من المذنب، والمذنب أولى بالاحسان من المحسن، تلك مقالة عبدة الاوثان وخصماء الرحمن وقدرية هذه الامة ومجوسها. يا شيخ إن الله كلف تخييراً ونهى تحذيراً، واعطى على القليل كثيراً ولم يعص مغلوباً، ولم يطع مكروهاً، ولم يخلق السماوات والارض وما بينهما باطلاً. ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (١).

«إن الخلاف الذي دار حول حرية الانسان قد لبس ثوباً فلسفياً بين الأطراف المتنازعة، في الوقت الذي كان كل طرف يتمسك بآيات الكتاب، ويسوقها مساق التأييد لرايه... ولا شك أن هذا ينتهي - في كل ناحية - إلى تحمیل آيات الكتاب ما لا تحتل من المعاني التي يناقض بعضها بعضاً. كل يتعلق بكتاب الله، ويتسح بآياته ليقيم لرايه حجة ويقدم لمذهبه سنداً» (٢).

إن ظاهر الآيات الكريمة يدفع حيناً إلى اعتبار أن الإنسان حر ومسؤول عن حريته هذه. وحيناً توحى بعض الآيات بأن الإنسان لا حول له فيما يقع عليه. إن متابعة دقيقة وشاملة لآيات القرآن الكريم تؤكد أن عدداً كبيراً من الآيات تدل على حرية الإنسان وأنه يختار الفعل الذي يقوم به ويتحمل مسؤوليته، وتؤلف هذه الآيات نسبة كبيرة قياساً للآيات التي طأرها يوحى بالجبر» (٣).

يرى الكاتب نبيل حمدي في كتابه «هل الإنسان مسير أو مخير؟» «أن العبد إذا عقد العزم على الإتيان بالأعمال الصالحة أو الشريرة بكامل حريته واختياره

١- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد الاول، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران، ١٩٧٢، ص ٩٧.

٢- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار الفكر العربي، الطبعة الاولى، ص ٥٥- ٥٦.

٣- الدكتور عبد الله سلوم السامرائي، الله والانسان، بغداد، ١٩٨٣، ص ٢٩٦.

ويسره الله لذلك، وأذن بأن يحدث هذا في ملكه كان هذا التيسير والإذن من الله إيذاناً بأن تخلق الأعمال في ذلك الوقت بعينه وهو وقت إقبال العبد على الإتيان بتلك الأعمال... إن الله عز وجل قد علم ما سيختاره العبد من الأعمال قبل أن يخلقه فقدر له أعماله حتى إذا جاء وقت التنفيذ كانت تلك الأعمال من خلق الله ولكنها باختيار العبد» (١)

لقد تبين بوضوح وجلاء من خلال عرضنا للأراء السابقة أن هناك أربعة آراء حول موضوع الدراسة وهي: القول بالجبر، والقول بحرية الاختيار على الطريقة القدرية، والاعتقاد برفض الجبر والتفويض والقبول بالأمر بين أمرين، وفكرة الكسب الأشعرية. وجميع ادعاء هذه الآراء استدلو على ما ذهبوا اليه عن طريق الآيات القرآنية الكريمة، والاحاديث النبوية الشريفة وقول أئمة الهدى من آل البيت النبوي الطاهر، وأقوال صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وافعالهم.

#### هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة الى توضيح العلاقة بين المشيئة الالهية وحرية الانسان في التوجه نحو الخير أو الشر والاعمال التي يعكسها هذا التوجه على سلوكه.

#### أسئلة الدراسة:

تحاول هذه الدراسة أن تجيب على الأسئلة التالية:

- ١- هل الانسان يسعى نحو الخير وفعله مسيراً أم مخيراً؟
- ٢- هل الانسان يسعى نحو الشر وفعله مسيراً أم مخيراً؟
- ٣- ما هي العلاقة بين علم الله بأفعال الانسان قبل وقوعها وحرية الانسان في عملها؟
- ٤- ما هي العلاقة بين علم الله سبحانه وتعالى وتقديره للأمر في ملكوته؟

#### محددات الدراسة:

تقتصر هذه الدراسة على توضيح حرية الانسان في سعيه نحو الخير والشر، وعلاقة هذه الحرية بمشيئة الله سبحانه وتعالى. وجميع ما يذكر من مصطلحات وموضوعات أخرى هو بهدف التوضيح لهدف الدراسة فقط.

١- نيل حمدي، هل الانسان مسير أو مخير؟، مطابع الاتفاق، الاسكندرية، جمهورية مصر العربية، ١٩٧٨، ص ٥١.



## المشيئة الإلهية :

يجدر بنا قبل تناول موضوع المشيئة الإلهية أن نشير إلى الأخطاء التي وقع بها الإنسان عندما حاول أن يعي القضايا الغيبية ويتفحص ماهيتها عن طريق قدراته الذاتية مما جعله يأتي بالشيء ونقيضه في الوقت نفسه وحول نفس الموضوع، مما أدى إلى ظهور المدارس الفكرية والمذاهب المتعددة، وما عكسته من آثار واسعة النطاق على الإنسان وانهاطه السلوكية في الحياة الدنيا وما متوول إليه مصائرهم في الحياة الآخرة. ومن أبرز الأخطاء التي وقع بها الإنسان، أولاً: أن الإنسان أقحم عقله في القضايا المتصلة بعالم الغيب مع أنها خارجة عن قدرات الإنسان العقلية.

وثاني هذه الأخطاء: أن الإنسان لم يميز بين قدراته المحدودة، وقدرات الله سبحانه وتعالى المطلقة، فهو يحاول بقدراته المحدودة أن يعي القوة المطلقة وما تتمتاز به من علم، وإرادة، وخلق، ومشينة، وعدل... إلى غيرها من الصفات الإلهية. وثالثها: حكم الإنسان على الأمور الغيبية من خلال نظراته الخاصة للمنفعة، والخير والشر معتبداً على خلفيته المحدودة عن الوجود وأسراره. ورابعها: اخضاع القضايا الغيبية وما يتصل بها من أسرار إلى المقاييس الانسانية متناسياً الهوة الهائلة بين علم الخالق وعلم المخلوق. وخامسها: أن الإنسان حاول اخضاع الآيات القرآنية إلى الأفكار الفلسفية بالرغم من أن أقطاب هذه الأفكار يعتقدون أن القدرات الانسانية لا تعجز عن الوصول إلى مكونات الأمور الغيبية، مما أدى إلى سوء فهم آيات القرآن الحكيم. وسادسها: أن الإنسان حاول أن يفهم الآيات القرآنية بمعزل عن بعضها بعضاً مما أدى إلى ظهور التناقض والازدواجية في فهم النصوص القرآنية. وسابعها: ظهور روح المذهبية عند بعض الناس مما جعلهم ينشدون إلى مذهبهم وما يفيد من آراء دون محاولة الاستفادة من الطرف الآخر، بل كان همهم الدفاع عما لديهم من أفكار، وإظهار الشغب والمفتريات على الطرف الآخر. وأخيراً دور قسم من الناس في تشويه الاسلام عن طريق التأويل والتحريف بهدف إثارة الفوضى والخلاف في صفوف الجمع الرسالي الواحد.

لقد أشار الشيخ الركابي في حديثه عن المشيئة والاختيار إلى: «أن تقسيم الإرادة إلى تكوينية وتشريعية يجري ذاته في مسألة المشيئة، وقد ذكرا في القرآن بشكل بين، ولذلك لا يرى بعض الفلاسفة والمتكلمين أي تفاوت بين مسألة الإرادة والمشيئة، وحتى بعض الكتب اللغوية والأدبية لا تفرق بينهما، ولكن الصحيح أن

بينهما فرقاً، وذلك اننا في مسألة الارادة قلنا ان لها مراتب قوية وضعيفة. في حين لا يوجد في المشينة تلك المراتب وهي تشبه التصميم الذي يأتي بعد الارادة. وعلى أي اعتبار فإن المشينة وردت في القرآن في «٢٠٠ مورد» وهذه الموارد تنقسم الى طوائف متعددة منها ما يلي:

الطائفة الاولى: الآيات التي تصرح بأن الاشياء توجد بمشيئة الله تعالى.... والطائفة الثانية: الآيات التي تحكي عن الضلالة.... والطائفة الثالثة: الآيات التي تأتي في مقام بيان سلطة الله المطلقة.... والطائفة الرابعة: الآيات التي تربط العمل بمشيئة الله.... والطائفة الخامسة: بعض الآيات التي تبين الاختلاف في عالم الطبيعة.... والطائفة السادسة: الآيات التي تبين مشيئة الله في حكمه.... والطائفة السابعة: الآيات التي تذهب إلى أن الله إذا أراد هدى وإن لم يرد أضل، كقوله تعالى: (قل الله يضل من يشاء ويهدي اليه من أناب). والطائفة الثامنة والاخيرة: الآيات التي تربط مشيئة الانسان بمشيئة الله، كقوله تعالى: «أن هذه نذكرك فممن شاء انتخذ إلهي وبه سبيلا وما تشاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً»... (١).

ان الانسان المتأمل لجميع الآيات القرآنية الحكيمة التي لها علاقة بالمشيئة الالهية أو بالمشيئة الانسانية يجد أن هناك مفهوماً أساسياً يجمع بين هذه الآيات جميعاً، ألا وهو ان كل ما يجري في ملكوت الله سبحانه وتعالى يحدث داخل حدود المشيئة الالهية، ويبدو ذلك واضحاً جلياً اذا ما عرفنا ان الخلود في الجنة والنار إلا ما شاء الله، ويوم ينفخ في الصور يصعق من في السماوات والارض إلا من شاء الله، وإنا ان شاء الله لفاعلون أو لمهتدون، والله يضاعف لمن يشاء، ولا نحيط بشيء من علمه الا بما شاء، وفضله يؤتيه لمن يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والله يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء ويزيد في الخلق كيف يشاء، ويبسط السحاب في السماء كيف يشاء، ويقر في الارحام ما يشاء، ويختار من يشاء من عباده لتبليغ رسالته للناس، ويمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ويصيب بالصواعق من يشاء، ويورث الارض لمن يشاء من عباده، ويصورنا في الارحام كيف يشاء، ويؤتي الحكمة لمن يشاء، ويؤتي ملكه لمن يشاء. هذا بجانب ان الحق سبحانه وتعالى لو شاء لمنع حدوث بعض الامور التي تجري في ملكوته ولكنه سبحانه

١ - الشيخ الركابي، مصدر سابق، ص ٢٩١ - ٢٩٤.

وتعالى عما يصفون شاء ان يسمح لتلك الاحداث ان تكون في ملكوته وجميعها داخل حدود مشيئته. ويبدو ذلك ساطعاً جلياً فيما تفيد الآيات القرآنية من معان واضحة حيث لو شاء الله لذهب بسمعهم، ولو شاء لجعل الباء أجاجا والزرع حطاما، ولو شاء لاستبدلنا بقوم آخرين، ولو يشاء الله لانتصر منهم، ولو شاء يجعل منا نحن البشر ملائكة، ولو شاء الله لجعلنا أمة واحدة، ولو شاء لآتى كل نفس هداها، ولو شاء لطمس على أعينهم، ولو شاء الله ما فعلوه، ولو شاء الله ما أشركوا... والى غيرها من الامور التي لو شاء الله سبحانه وتعالى لما حدثت. والآيات الثلاث التالية تدل بوضوح على ما ذكرنا.

قال تعالى:

«إِنْ نَشَأْ نُزِيلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا حَاضِرِينَ» (١)

قال تعالى:

«أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَائِبًا» (٢)

قال تعالى:

«وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٣).

والنوع الثالث والأخير من الآيات القرآنية الحكيمة التي تربط مشيئة الانسان بمشيئة الحق سبحانه وتعالى لتقرر بوضوح ان إرادة الانسان ومشيئته في كافة ظروفها واختياراتها تجري ضمن المشيئة الالهية. وهذا هو النوع من الآيات الذي كان مثار الخلاف والالتباس عند قسم كبير من الناس. وسوف نقوم بتوضيح هذه الآيات القرآنية عندما نتناول موضوع الانسان وحرية الاختيار في الصفحات القادمة بهدف منع التكرار الممل. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يعطي الانسان حرية الاختيار بين الخير والشر، وهذا ما سنقوم بتوضيحه ان شاء الله في هذه الدراسة.

### علم الله:

ان العلم الأزلي الالهي ليس منفصلا عن السببي والمسببي في العالم. ان العلم الالهي علم بالنظام، وما يقتضيه العلم الإلهي هو هذا العالم مع هذه الانظمة، فالعلم

١ - سورة الشعراء، آية ٤

٢ - سورة الفرقان، آية ٤٥

٣ - سورة يونس، آية ٩٩

الالهي مباشرة وبلا واسطة لا يتعلق بوقوع حادثة ولا بعدم وقوعها؛ وإنما يتعلق العلم الإلهي بالحادثة من علتها وفاعلها الخاص وليس تعلقه بها بشكل مطلق غير مرتبط بأسبابها وعللها. وإن العلة والأسباب متفاوتة. فبعضها عليته وفاعليته طبيعية وبعضها عليته شعورية، وبعضها مجبر قاهر والآخر مختار. وما يوجبه العلم الإلهي الأزلي هو صدور أثر الفاعل الطبيعي من الفاعل الطبيعي، وأثر الفاعل الشعوري من الفاعل الشعوري، وأثر الفاعل المجبور من الفاعل المجبور، وأثر الفاعل المختار من الفاعل المختار، ولا يقتضي العلم الإلهي أن يصدر أثر الفاعل المختار من ذلك الفاعل قهراً وجبراً؛.... فإن العلم الأزلي الإلهي علم بالنظام أي بصدور المعلولات من عللها الخاصة بها. ولما كانت العلة متفاوتة في النظام العيني الخارجي فأحداها طبيعية والآخرى شعورية، وإحداها مختارة والآخرى مجبورة؛ فإن النظام العلمي على هذا الأساس هو بمعنى أن كل فاعل موجود في العالم العلمي كما هو موجود في العالم العيني الخارجي. والعلم الإلهي الذي يتعلق بصدور أثر من فاعل، هو بمعنى أنه تعلق بصدور أثر الفاعل المختار من الفاعل المختار، وبصدور أثر الفاعل المجبور من الفاعل المجبور. وما يقتضيه العلم الإلهي ويوجبه هو صدور فعل الفاعل من الفاعل المختار وفعل الفاعل المجبور من الفاعل المجبور، لا أن العلم الإلهي يوجب أن يكون الفاعل المختار مجبوراً أو الفاعل المجبور مختاراً» (١).

يرى الشيخ الركابي أن علم الله لا يكون علة في صدور العمل. وذلك لأن انكشاف الواقعيات لله هي نفس العلم لا الرغبة في العمل، ولأن الاعمال التي يكون الله عالماً بها لا تقوم بها، إذ لا أثر طبيعي وواقعي لها، وذلك لأن كشف الحوادث ومانر الموجودات يقع في علم الله، وهذا شبيه بالمرآة التي لا تعكس صورتها» (٢).

«استدل بعض الجبريين بعلم الله قائلين؛ أن الله يعلم حركاتنا وسكناتنا وهذا يجعل الأمر يدور بين اثنين؛ إما أن نكون مجبورين، أو أن علم الله يتبدل جهلاً» (٣).

«إن ما من شيء في هذا الوجود إلا قدره الله تعالى وعلمه، فلا يقع شيء من

١ - مرتضى المطهرى، مرجع سابق، ص ٢٤٣ - ٢٤٥.

٢ - الشيخ الركابي، مرجع سابق، ص ٢٩٥.

٣ - المرجع السابق، ص ٢٩٤.

الانسان أو عليه من خير أو شر إلا كما علم الله تعالى ذلك أزلاً.... وإذا كان الله تعالى عالماً بكل شيء في الازل، ومقدراً لكل ما سيجري مستقبلاً في اللوح المحفوظ؛ فإن ذلك لا يجوز أن يلاحظ في أمور الحياة ولا في تصرفات الناس، ولا في أي عمل يقدم عليه بشر، وإنما يلاحظ في ذلك على أساس مفهوم ما أحله الله أو حرمه في شرعه ودينه، ونحن لم نؤمن إلا بذلك... أما أن نتصور كل فعل شراً كان أم خيراً على أنه مقدور لله تعالى ولا مرد له إلا هو؛ فإن هذا من سوء الاعتقاد... وفساد الرأي... وانحلال العزم.... عدا أنه ليس من الاسلام في شيء» (١).

إن جميع الآراء السابقة تشير بوضوح إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين بجميع ما يجري في ملكوته. وإذا ما تأملنا الآيات القرآنية الحكيمة التالية فإننا سوف نصل إلى نفس اليقين وهو أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء يحدث في ملكوته:

قال تعالى:

«قُلْ إِنْ تُضِفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يُعَلِّمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٢).

قال تعالى:

«اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً» (٣).

قال تعالى:

«وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ» (٤).

قال تعالى:

«أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» (٥).

قال تعالى:

«يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً» (٦).

١- عبد الحلیم قنہس، مصدر سابق، ص ٢١٧ - ٢١٩.

٢- سورة آل عمران، آية ٢٩.

٣- سورة الطلاق، آية ١٢.

٤- سورة الانعام، آية ٥٩.

٥- سورة التوبة، آية ٧٨.

٦- سورة طه، آية ١١٠.

واضح من الآيات الحكيمة السابقة ان الله سبحانه وتعالى لا يعزب عنه شيء في كل ما يجري في ملكوته وما يتصل بجميع مخلوقاته. وقد صور هذا العلم بطريقة يسهل على الانسان تخيلها وفهمها حيث قال عز من قائل:

«قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا» (١)

قال تعالى:

«وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٢)

كما ان الحق سبحانه وتعالى أطلعنا على حقيقة هامة مفادها أنه سبحانه وتعالى قد اطلع الانسان على جزء من علمه ليتناسب مع دور الانسان في هذا الوجود.

قال تعالى:

«وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (٣).

لقد حاول الانسان بعلمه القليل ان يعي ويحلل ويدقق في علم الله الذي لا يحده حدود فأوقع نفسه في التناقضات التي لا يجمع بينها إلا الجاهل بحقيقة الاشياء ومكوناتها، وهذا ما فعله الانسان عندما اراد ان يخضع علم الله سبحانه وتعالى الى علمه البسيط وخلفيته حول الاشياء المحسوسة بالنسبة له. لذلك فان الحق سبحانه وتعالى وجه خطاباً لهذا الانسان بهذا الخصوص حيث يقول سبحانه وتعالى:

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (٤)

فالحق سبحانه وتعالى يعلم ما يجري في ملكوته حيث لا يخفى عليه شيء، كما انه لا يفاجأ في شيء فهو علام الغيوب، يعلم الامور قبل وقوعها من اصحابها، كيف لا، وهو علام الغيوب والخالق لكل المخلوقات، وكل شيء يجري في ملكوته

١- سورة الكهف، آية ١٠٩.

٢- سورة لقمان آية ٢٧.

٣- سورة الاسراء آية ٨٥.

٤- سورة الاسراء آية ٣٦.

وفق مشيئته؟ فعلم الخالق سبحانه وتعالى لأفعال مخلوقاته قبل ان تصدر عنهم يدل فقط على قدرة الله سبحانه وتعالى وعلمه اللامتناهي . بينما الانسان فإنه يسعى نحو الشر وطرقه ونحو الخير وطرقه وما يتصل بهما من أفعال وانماط سلوكية بناء على ما يختاره الانسان ببلء ارادته، لأن الانسان لا يعلم ما يعلمه الخالق سبحانه وتعالى من افعال الانسان المتصلة بالخير والشر . وأود أن اسوق مثالا لأقرب الصورة الى ذهن القارئ العزيز . عندما ينتهي أستاذ الجامعة من القاء محاضراته ويطلب من الطلبة الانصراف من القاعة ، فاذا كان الاستاذ يعلم تمام المعرفة إلى أين سيذهب كل طالب بعد الخروج من قاعة الدراسة ، فهل هذا يدل على ان الاستاذ أجبرهم على الذهاب الى الأماكن التي قصدوها ، أم يدل على علم الاستاذ بحدوث اعمال طلبته قبل حدوثها . فعلى هذا الأساس فإن الحق سبحانه وتعالى لم يفاجأ بعدم سجود ابليس عندما أمره بالسجود لسيدنا آدم ، كما أنه لم يفاجأ بوقوع سيدنا آدم وحواء في الشرك الذي نصبه لهما ابليس عن طريق احاييله وتسويلاته لهما وهما في الجنة ، كما أنه لم يفاجأ بعدم ايمان أبي لهب وزوجته ، هذا بجانب علمه التام بأن قوم سيدنا نوح لن يؤمن منهم الا من قد آمن ، وايضاً لم يفاجأ بهزيمة الروم وانهم سوف يغلبون في بضع سنين .

ان كل هذه الامور وغيرها معلومة الى الله ، عادم الغيوب قبل صدورها من مصادرها المباشرة . لذلك فإن العلم الالهي الازلي سواء أكان بالنظم ، أي بصدور المعلومات من عللها الخاصة بها ام بجميع ما يحدث من المخلوقات من اعمال وافعال مباشرة ، فإن الانسان يسعى نحوها ويقوم بها ببلء ارادته بالرغم من علم الله الدقيق لشتى هذه الافعال والاعمال الصادرة من البشر . لقد ظن الجبريون ان علم الله سبحانه وتعالى للاشياء قبل حدوثها ينعكس على حرية الانسان ، فمن هنا رفعوا لواء الجبرية .

أما بالنسبة الى علاقة علم الله سبحانه وتعالى بتقديره لكل ما يجري في ملكوته ، أي علاقة علم الله سبحانه وتعالى بالقضاء والقدر ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقدر كل ما يجري في ملكوته بناء على علمه الدقيق بجميع ما يحدث ، وسوف يحدث في ملكوته .

فالحق يشير إلى ان العلم يسبق القدر ، فيقدر الله سبحانه وتعالى كل ما يريد بناء على علمه الذي يصعب علينا نحن البشر الاحاطة به ، لأن المقيد لا يستطيع ان

يلم بالمطلق، ولا يستطيع المخلوق ان يحيط بكل شيء يتصل بخالقه، والا عكست الصورة فاصبح المقيد مطلقاً، والخالق مخلوقاً، فهذا فيه افتئات كبير على الحق والحقيقة. ان حقيقة ما ذكر في السطور السابقة يكمن في الادلة القرآنية التالية:

قال تعالى:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (١)

يبدو بوضوح قول الحق سبحانه وتعالى في رده على الملائكة، بأنه يعلم ما تعلم الملائكة، فهذا يدل على ان هذا القرار، وهذا التقدير بني على علم الله الذي لا تعرفه الملائكة، هذا بجانب ان الحق سبحانه وتعالى بعلمه الدقيق عرف مسبقاً ان ابليس لن يسجد لآدم بالرغم من طلب الحق سبحانه وتعالى منه ذلك، وان ابليس لن يطلب التوبة والانابة الى خالقه، بل انه سوف يطلب ان يكون من المنظرين ليثار لنفسه من آدم وذريته عن طريق الاغواء وتزيين الشهوات. كما ان الحق سبحانه وتعالى يعلم علم اليقين ان آدم سوف يعصي امره ويتبع تسويلات ابليس وأحاييله ليكون سبباً في اخراجه من الجنة. بناء على هذا العلم للأشياء قبل وقوعها من ابليس وآدم وحواء قرر المولى عز وجل ان يجعل الانسان خليفة في الارض. أما بالنسبة الى طلب الباري عز وجل من ابليس السجود لآدم فيبدو واضحاً جلياً في الآية الحكيمة التالية:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» (٢).

اما بالنسبة الى تبليغ الحق سبحانه وتعالى لسيدنا آدم بعداوة ابليس وتحذيره منه فيبدو واضحاً بنقاء في قوله عز من قائل:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ \* فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (٣).

١ - سورة البقرة آية ٣٠.

٢ - سورة الاعراف، آية ١١-١٢.

٣ - سورة طه، آية ١١٦-١١٧.



وعلى هذا الأساس فإن الحق سبحانه وتعالى قدر جميع ما يجري في ملكوته بناء على علمه الأزلي. وهذا هو الفارق الجذري بين الخالق لكل شيء وبين أحد مخلوقاته وهو الإنسان الذي يصير أن يستوعب ويعي الذات الإلهية وكل ما يتصل بها من قدرة وإرادة وعلم، وهذا هو مبعث التخبط والتناقض، والانحطاط الفكري، لأن استيعاب العقيد للمطلق يعني تشويه وتحطيم معالم القوة المطلقة لكي يتم استيعابها من القوة المقيدة. وزيادة في إيضاح علاقة العلم بالقدر فأنني أود أن اضرب مثلاً في كيفية تقدير الحق سبحانه وتعالى للأمور بناء على علمه. إن الحق سبحانه وتعالى يعلم مسبقاً بأن فلاناً من الناس يقوم بعملية القتل بملء إرادته فيجعل الله سبحانه وتعالى هذا العمل سبباً في نهاية المقتول. مثلاً رفض إبليس بملء إرادته السجود لسيدنا آدم، واتباع آدم وزوجه لتسويات إبليس بارادة حرة.

### الإنسان وحرية الاختيار:

يقرر الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه شفاء العليل في الباب التاسع والعشرين: أن الإنسان يعيش في هذا الوجود بين قضائين: كوني وشرعي، فيقول: «فما كان من كوني فهو متعلق بربوبيته وخلقه، وما كان من ديني فهو متعلق بالآهية وشرعه، وهو كما أخبر عن نفسه سبحانه له الخلق والأمر، فالخلق: قضاؤه وقدره وفعله، والأمر: شرعه ودينه، فهو الذي خلق وشرع وأمر، وأحكامه جارية على خلقه قدرأ وشرعاً، ولا خروج لأحد عن حكمه الكوني القدري، وأما حكمه الديني الشرعي فيقتضيه الفجار والفساق، والأمران غير متلازمين، فقد يقضى ويقدر مالا يأمر به ولا يشرعه، وقد يشرع ويأمر بما لا يقضيه ولا يقدره، ويجتمع الأمران فيما وقع من طاعات عباده وإيمانهم، وينتفي الأمران فيما يقع من المعاصي والفسق والكفر، وينفرد القضاء الديني والحكم الشرعي فيما أمر به وشرعه ولم يفعله بالمأمور، وينفرد الحكم الكوني فيما وقع من المعاصي. إذا عرف ذلك فالتضاء في كتاب الله نوعان: كوني قدري، كقوله تعالى: «فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ» وقوله سبحانه وتعالى: «وَقَضَيْنَا إِلَيْهِمْ بِأَلْحَقَّ»، وشرعي ديني، كقوله تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ»، أي: أمر وشرع، ولو كان قضاء كونياً لما عبد غير الله» (١).

الإنسان في نظام الوجود... يملك نوعاً من الحرية والاختيار وله إمكانيات في

١ - عبد الحلیم قنہس، مصدر سابق، ص ١٥١ - ١٥٢.

فعالياته وتلك الامكانات ليست متوفرة للموجودات الاخرى حتى للحيوانات. ولأن النظام العيني يستمد وجوده من النظام العلمي، وان منبع العالم الكياني هو العالم الرباني؛ فإن العلم الازلي المتعلق بأفعال الانسان وأعماله هو بمعنى أنه يعلم من الأزل: من هو الذي سوف يطيع باختياره وحرية ومن هو العاصي كذلك. والذي يوجبه ذلك العلم ويقتضيه هو ان يطيع ذلك المطيع بإرادته وان يعصي ذلك العاصي بإرادته. وهذا هو معنى قول اولئك القائلين بأن «الانسان مختار بالإجبار» فلا يمكنه ان لا يكون مختاراً، فليس للعلم الازلي أي دخل في سلب الحرية والاختيار ممن قرر له في النظام العلمي والنظام العيني ان يكون مختاراً وليس له أي دخل في سلب الاختيار والحرية الانسانية بأن يجبره على الطاعة والمعصية» (١).

«ان الانسان خلق مختاراً حراً، بمعنى أنه أعطي فكراً وإرادة. فليس الانسان في أعماله كالحجر تدرجه فيتدحرج ويسقط متأثراً بجاذبية الارض دون أن تكون له أية إرادة، او كالنبات ليس له إلا طريق واحد، فبمجرد توافر شروط معينة ينمو بالشكل المعتاد. أو كالحيوان الذي يؤدي أعماله بتأثير غريزي. كذا ان الانسان يجد نفسه دائماً على مفترق طرق ليختار منها ايها شاء بملء حرية ووفق مشيئته ونوعية تفكيره، وليس مجبوراً على سلوك أحدها لا غير، وانما الذي يعين أحد الطرق هو اسلوب فكره واختياره، وهنا تبرز مقومات الشخصية والصفات الاخلاقية والروحية، والمسبقات التربوية والوراثية، والمقاييس العقلية والنظرات البعيدة للانسان، فيعلم إلى أي حد يرتبط المستقبل السعيد أو الشقي بتلك العوامل، وبالتالي بالطريق الذي يختاره بنفسه» (٢).

لقد ثبت بالدليل القاطع ان الانسان يعيش في هذه الحياة ضمن دائرتين اثنتين لا ثالث لهما، أما الدائرة الاولى: فهي التي تنفذ فيها إرادة الله تبارك وتعالى ومشيئته الكونية التي لا راد لها إلا هو سبحانه، وفيها جعل الانسان يسير بحسبها وعلى مقتضاها سيراً مجبراً لا إرادة له فيها ولا اختيار... وأما الدائرة الثانية: فهي التي تنفذ فيها إرادته ومشيئته الشرعية، وفيها جعل الله تعالى الانسان يسير فيها سيراً اختيارياً، بحيث لا مكره له فيها ولا مجبر. فما كان من إرادته ومشيئته الكونية فلا خروج لأحد عنها، وما كان من إرادته ومشيئته الشرعية فإنه سبحانه

١ - مرتضى المطهرى، مرجع سابق، ص ١٤٥.

٢ - مرتضى المطهرى، مرجع سابق، ص ٧٣.

يطاع فيها ويعصى. فالاحوال والافعال التي تحصل مع الانسان أو منه ضمن الدائرة التي تسيطر عليه، فإنه ليس له شأن بوجودها، وهي قسمان: قسم يقتضيه نظام الكون والحياة مباشرة، وقسم لا يقتضيه ذلك مباشرة. أما ما يقتضيه نظام الكون والحياة مباشرة، فهو الذي يجعل الانسان خاضعاً له، ويسير على مقتضاه سيراً جبرياً، لأنه يسير وفق نظام لا قدرة ولا طاقة له في مخالفته أو الخروج عنه. فحياته ووجوده مرتبطان ارتباطاً وثيقاً بذلك النظام. فقد أتى إلى هذه الحياة على غير إرادة منه، وسيذهب عنها على غير إرادة منه أيضاً، وهو لا شأن له بشكل جسمه من حيث اللون أو الطول أو القصر أو الجمال أو عدمه، كما لا دخل له بكونه ذكراً أم أنثى، فهو في كل ذلك وأشباهه مسير لا مخير. وذلك لأن الله تبارك وتعالى جعل هذا وأمثاله خاضعاً لإرادته ومشينته الكونية التي تتمثل في نظام الكون والحياة... فنحن نرى الانسان ضمن هذه الدائرة التي تسيطر عليه، يسير منها بأعمال لا يقدر على التخلي عنها... وأما الدائرة الثانية التي يسيطر عليها الانسان فإنها الحالات التي يقوم بأفعاله فيها بكامل إرادته واختياره ورضاه. وذلك لأن الانسان كائن بشري: عاقل مدرك مفكر، ينطلق في كل تصرف يتصرفه، وفي كل عمل يعمل لاشباع غرائزه وحاجاته العضوية، ومن خلال تفكيره وإدراكه، وبدافع من إرادته التي فطره الله عليها، وبهذه الإرادة التي يتمتع بها كل انسان يتحقق له فيها الاختيار بين الأبدال، فهو ان شاء ان يشبع حاجاته العضوية من مأكّل ومشرب وملبس وغير ذلك من مال حلال طيب، أو من حرام خبيث، فانه لا مجبر له على شيء من ذلك» (١).

بعد أن أشرنا إلى بعض الآراء التي تشير إلى حرية الانسان في الكون، وصلة تلك العلاقة بمشيئة الله سبحانه وتعالى. لا بد لنا من ان نوضح حرية الانسان واختياره في هذا الكون في ضوء ما أخبرنا به الحق سبحانه وتعالى عن طريق انبيائه وكتبه ورمسه بالرغم من وضوح الدلالات الساطعة وثبوت الحجج القاطعة على صحة ذلك، إذ يعد وجود الكتب السماوية ومهمة الانبياء والرسل من الدلالات الأولية على تمتع الانسان بحرية الاختيار. إن وجود القرآن الكريم بكل ما يحتوي من آيات حكيمة تدل على حرية الاختيار، ولكننا سوف نوضح حرية الانسان في الاختيار، بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين الانضواء تحت راية حزب الله

١ - عبد الحليم قنيس، مصدر سابق، ١٤١ - ١٤٤.

أم الانضواء تحت راية إبليس من خلال ملر حنا لعدة مسائل أساسية وهي :

### المسألة الأولى :

لقد خلق الحق سبحانه وتعالى جميع المخلوقات سواء أكانت حيوانية أم نباتية، أم من الجمادات، أم من الملائكة، أم من المخلوقات التي لا نعرف خلقها جميعاً طاعة لعبادته تكويناً خاد الانس والجن فانه خلقهما سبحانه وتعالى لعبادته تشريعاً وليس تكويناً. ونعني بكلمة تكوين، أي أن من طبيعة المخلوق الذي خلق على الطاعة التكوينية أن يكون طائعاً إذ إنه لا يقوى ولا يستطيع إلا أن يكون طائعاً فقط. أما المخلوق الذي خلق تشريعاً لعبادة الله فان الحق سبحانه وتعالى أودع فيه قدرات، ومطاعات، وملكات تجعله اما ان يتبع الشرع المرسل اليه فيعبد الله، واما ان لا يتبع الشرع الذي ارسل اليه فيعصي أوامر الحق سبحانه وتعالى. ويبدو ذلك ساطعاً مشرقاً في قوله عز من قائل:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا (١).

ونحن نعلم جميعاً أن إبليس وهو أصل الجن عنده من القدرات التي شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجسدها فيه على أن يرفض أمر الله سبحانه وتعالى ويبدو ذلك بوضوح في قوله تعالى:

«وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ» قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّا خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٢).

أما بالنسبة الى قدرة الانس على طاعة الله وعلى عدم طاعته التي شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجسدها في الانس فتبدو واضحة جلية في قوله عز من قائل:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى» فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى. إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى. وَإِنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى. فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى. فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ. وَغَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (٣).

١ - سورة الذاريات، آية ٥٦ - ٥٧.

٢ - سورة الأعراف، آية ١١ - ١٢.

٣ - سورة طه، آية ١١٦ - ١٢١.

واضح من الآيات السابقة ان الجن والانس عندهما القدرة التي جسدها الباري عز وجل فيهما على الاقبال على طاعة الله أو الادبار عنها. ولو خلقا تكويناً للطاعة كبقية المخلوقات الاخرى لما كان في استطاعتهم ان يعصيا امر الحق سبحانه وتعالى ولكنه شاء لهما ان يفعا ذلك. فهما يقومان بجميع الامور المتصلة بجانب الطاعة أو عدمها في ضوء حريتهما داخل حدود مشيئته، إذ سمح لهما بذلك.

### المسألة الثانية :

تنشأ هذه المسألة من المسألة الاولى إذ ان الخلق التشريعي للطاعة التي خلق عليها الانس والجن تقتضي من الحق سبحانه وتعالى ان يبين لهما معالم الطريق القويم لكي يمارسوا حرية الاختيار التي وهبها لهما عن طريق رسله تعالت وجلت قدرته، ويظهر ذلك بجلاء في قوله عز وجل:

«يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُزِدُّونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَفْسًا دُخَانًا وَقَدْ هَدَوْا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ» (١).

### المسألة الثالثة :

تدور هذه المسألة حول الانسان والهدى الذي أرسله اليه الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بهذا المخلوق لكي يقرر ويختار أي السبيلين يريد، ولكل سبيل مصيره الخاص به، ففي الوقت الذي يكون مصير الذين اتبعوا الهدى الالهي جنات النعيم، فان جهنم ستكون موطأ للذين أدبروا وصدفوا عن الهدى الالهي ليتبعوا عدو البشرية الأشهر ابليس عن طريق تزيين الشهوات والملذات لهم. ويظهر وضوح هذه المسألة بصفاء للذي يود ان يرشف من عين الحقيقة في قول الباري عز وجل:

«فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٢).

ولقد بين لنا الرحمن الرحيم، اللطيف بشؤون خلقه وعباده ان هذا الهدى سوف يأتي عن طريق الانبياء والرسل.

١- سورة الانعام، آية ١٣٠.

٢- سورة البقرة، آية ٢٨ - ٢٩.

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ\* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١).

ان مهمة رسل الحق سبحانه وتعالى للبشر لا تتعدى دائرة البشرى للذين آمنوا والنذير للذين صدفوا عن طريق الهدى والنور بعد توضيحه لهم. فلا إكراه ولا إكراه، ولكن توضيح لمعالم الهدى وبشرى ونذير.

قال تعالى:

«وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٢)

قال تعالى:

«رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» (٣).

#### المسألة الرابعة:

تختص هذه المسألة بالعلاقة بين الانسان والشیطان ذلك ان إبليس (الشیطان) اعتقد ان سبب هلاكه وخروجه من رحمة الله يكمن في وجود سيدنا آدم عليه السلام بحجة انه لولا وجود آدم لبقى إبليس على حالته العبادية الفريدة من نوعها للحق سبحانه وتعالى، إذ كان يعرف بطاؤوس الملائكة، ولكنه فسق عن أمر ربه ورفض الامتثال لدعوته، عندما طلب من الملائكة جميعاً ان تسجد لسيدنا آدم عليه السلام. لذلك فانه يود ان يثار لنفسه من سيدنا آدم وذريته، وتبدو دلالات التهديد والوعيد ساطعة جليلة في قول الباري عز وجل:

«قَالَ يَا إِبْلِيسَ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونُ مَعَ السَّاجِدِينَ\* قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَنِي مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ\* قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ\* وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ\* قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ\* قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ\* إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ\* قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَقْبَضْتَنِي فِي الْأَرْضِ وَالْأَعْيُنُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ\* إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ» (٤)

١ - سورة الاعراف، آية ٣٥ - ٣٦.

٢ - سورة الانعام، آية ٤٨.

٣ - سورة النساء، آية ١٦٥.

٤ - سورة الحجر، آية ٣٢ - ٤٠.

«يبدو بوضوح من الآيات السابقة التهديد والوعيد الذي أطلقه الشيطان لذرية آدم مدلا على عدواته الأبدية للانسان في مختلف العصور والأزمان، وأنه سيتبع كل ما في وسعه، وما عنده من أساليب ليجنبهم طريق الحق والخير المتمثل في اتباع الصراط المستقيم، ويزين لهم الحياة الدنيا بجميع محاسنها وزخرفها ليكونوا من الضالين عن طريق الحق والخير» (١).

إن الحق برحمته الواسعة ولطفه العظيم مع الانسان لم يكله إلى قدراته ليتعرف على هذه العداوة العاتية التي يكنها له عدوه اللدود، فقد أبلغه بهذه العداوة وحذره من اتباع خطوات عدوه وتسويلاته له من خلال تزيين الشهوات والملذات الدنيوية على حساب الحقائق الوجودية والنظم الأخلاقية المتجسدة في الهدى الذي أرسله البارئ عز وجل للانسان عن طريق الانبياء والرسل. لقد أبلغ آدم وهو في الجنة ونهاه عن طاعة عدوه كما أخبر ذريته على هذا الكوكب ونهاهم عن اتباع عدوهم والاذعان الى همزات الشياطين وتسويلاتهم. ويتضح ذلك في قول الحق سبحانه وتعالى:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى\* فَكُنَّا بِهَا آدَمَ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجُكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى» (٢).

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ مِنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» (٣).

قال تعالى:

«إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ» (٤).

على الرغم من وضوح البلاغ الذي أرسله الهادي عز وجل الى الانسان فإن أغلب الناس تلبية لرغباتهم وشهواتهم اتبعوا عدوهم الشيطان وهو يزين لهم تلك

١- د. حسن الحجارى، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، الاردن، ١٩٨٩، ص ١٦٠.

٢- سورة طه، آية ١١٦-١١٧.

٣- سورة الاعراف، آية ٢٧.

٤- سورة فاطر، آية ٦.

الشهوات والمفاتن التي تعج وتبوج بها الحياة الدنيا حتى أصبح ولياً لهم من دون الله الذي خلق فسوى وأثار السبيل لكل إنسان لبيب لينيب إلى خالقه وما جاء عنه من هدى ورحمة للعالمين. لذلك فإن الباري عز وجل قرع الإنسان على هذا الاختيار القامد الذي يتبع الإنسان فيه عدوه اللدود، فخاطبه قائلاً:

«وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّبِعُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أُولِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا» (١).

واضح من الآيات السابقة أن الإنسان بمقدوره أن يختار اتباع النهج الإلهي الذي يمثل جانب الخير أو يختار الابتعاد عن الهدى الإلهي واتباع همزات الشيطان وتسويادته في تزيين الشهوات والملذات على حساب الحق والحقيقة.

#### المسألة الخامسة :

تتناول هذه المسألة طبيعة الذات الإنسانية وما ركب فيها الخالق سبحانه وتعالى من قدرات وملكات سواء الفسيولوجية منها أم القدرات العقلية. لقد وهب الحق سبحانه وتعالى الذات الإنسانية الملكة العقلية التي يستطيع بواسطتها أن يميز بين الخير والشر، بين طريق الرحمن وسبيل الشيطان، بين الحق والباطل. وفي حالة تعرض هذه الملكة لخلل ما فإن التكليف يسقط عن الإنسان البصاف لعدم تمكنه من التمييز وفقدانه حرية الاختيار بين الخير والشر. هذا بجانب أن الحق سبحانه وتعالى مكن الذات الإنسانية من الاختيار بين الالتزام بجانب التقوى الذي جبلت عليه الذات الإنسانية، والالتزام بجانب الفجور الذي جبلت عليه أيضاً. فالذات الإنسانية جبلت على جانبي الخير والشر فيستطيع الإنسان أن يتبع أو يركز على أي الجانبين يشاء، ويبدو ذلك واضحاً بجلاء في قول الباري عز وجل:

«إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا»  
 إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرَ وَإِنَّمَا كَفَرَ (٢)

قال تعالى:

«لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ أَن يَشْكُرْ أَوْ يَكْفُرْ عَلَيْهِ أَهَدٌ أَلَمْ نَكُنْ مِنْ دُونِ الْإِنْسَانِ أَعْدًا ثُمَّ لِنَبْلُوَهُ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ»  
 وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (٣).

١ - سورة الكهف، آية ٥٠.

٢ - سورة الإنسان، آية ٢-٣.

٣ - سورة البلد، آية ٤-١٠.



قال تعالى:

«وَيْفَسَ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَّاهَا وَقَدْ ضَلَّتْ مَنْ دَسَّاهَا» (١).

لقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى أن الذات الانسانية ركب فيها جانباً الفجور والتقوى. حيث يقود جانب الفجور فيها الانسان الى اتباع جانب الشر المتمثل في اتباع عدوه اللدود إبليس والابتعاد عن جانب الخير، المتمثل بالنهج الإلهي المنير الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للناس أجمعين. أما جانب التقوى الذي وشجت عليه النفس الانسانية فيتقود ذات الانسان في حالة اتباعه الى الإنابة للهدى الالهى الذي بعثه هدى ورحمة وذكرى للعالمين، واتباع تعليماته في شتى أمور الحياة. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يلهم النفس الانسانية كلا الجانبين. وأي جانب من الجانبين يريد الانسان يسعى اليه بحريته التامة التي وهبها له الحق سبحانه وتعالى. ان ممارسة الانسان لهذه الحرية لا تتعدى المشيئة الالهية لأن الله سبحانه وتعالى وهبه هذه الحرية. فتعني هنا مشيئة الله سبحانه وتعالى انه سمح للانسان ان يختار اي الجانبين يريد، فأى شيء يختاره الانسان يكون ضمن حدود المشيئة، لان الحق سبحانه وتعالى لو شاء ما أعطى الانسان هذه الحرية وما ركب فيه جانبي الفجور والتقوى، وغدا كبقية المخلوقات الاخرى التي خلقت تكويناً للطاعة، كما أنه لو شاء لسلب منه هذه الحرية التي وهبها إياه.

قال تعالى:

«لَعَلَّكَ يَاجُزُّ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» إِنَّ نَاشِئُ نَزَلَ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ» (٢).

#### المسألة السادسة:

إن الحق سبحانه وتعالى خلق الحياة وما فيها من مفاتن وزخارف وشهوات ومتع دنيوية، كما خلق الموت وجميع مستلزمات الحياة الدنيا فقط ليختبر الانسان ماذا سيفعل في الحياة الدنيا، هل سيتبع جانب الشر في نفسه، ويتخذ من عدوه إبليس ولياً وينأى بنفسه عن البارى عز وجل من خلال الاعراض عن نهجه القويم، أم أنه سوف يتبع جانب الخير في ذاته، ويسلك في ضوء تعليمات الهدى الالهى

١ - سورة الشمس، آية ٧ - ١٠.

٢ - سورة الشعراء، آية ٣ - ٤.

الذي أرسله رحمة وبشرى للعالمين؟ ويبدو وضوح الهدف من خلق الحياة والموت جلياً مشرقاً في قوله عز من قائل:

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» (١).

قال تعالى:

«فَلَعَلَّكَ بَاطِلٌ خَفِيَ عَلَى نَفْسِكَ عَلَى أَتَارِهِمْ أَنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (٢).

لقد شاءت حكمة الحق سبحانه وتعالى ورحمته وتلطفه بالإنسان ان يبين له حقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الهدف من خلقها، إذ مطلب منه تشريعاً وليس تكويناً أن يفهم الحياة الدنيا على حقيقتها وألا يتخدع بمظاهرها الجذابة فتأسره داخل أطرها، بل يستخدمها للوصول الى الاهداف النبيلة العليا المتمثلة في الفوز العظيم في الحياة الآخرة.

قال تعالى:

«وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ» (٣)

قال تعالى:

«اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاوُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ» (٤)

### المسألة السابعة:

لقد خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان لطاعته وعبادته تكليفاً وليس قصراً كبقية المخلوقات، وهذا النوع من الخلق أعطى الإنسان حرية الاختيار بين طاعة الله سبحانه وتعالى وعبادته في كل ما يريده في ضوء نهجه القويم وبين أن يلحد بالله وينكر وجوده نهائياً ويتبع كل ما يحلو له من مدارس فكرية وأنماط سلوكية

١- سورة الملك، آية ٢.

٢- سورة الكهف، آية ٦-٧.

٣- سورة القصص، آية ٧٧.

٤- سورة الحديد، آية ٢٠.

**قال تعالى:**

قال تعالى:

ان هذا الهدى الذي وعد به الحق سبحانه وتعالى هو دين الاسلام الذي هتف ونادى به جميع الانبياء والرسل على مراحلهم المختلفة، وشاء الحق سبحانه وتعالى لهذا الهدى ان يكون كاملا في عهد آخر الانبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً.

قال تعالى :

وأى إنسان يتخذ من غير الاسلام نهجاً ومعتقداً في حياته الدنيا فلن يقبل الحق سبحانه وتعالى ذلك منه إطلاقاً ويعد من الخاسرين الذين لم يفوزوا في اختبار الحياة الدنيا. فيكون اختيارهم خاطئاً ومخالفاً لما أمرهم به الله سبحانه وتعالى.

فقال تعالى:

«وَمَنْ يَسْتَعِزَّ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآفِرَةِ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ» (٤)

١- سورة آل عمران، آية ٨٥.

قال تعالى: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا هَاءُ هُمْ الْعِلْمَ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (١).

ان الذي يقرأ كتاب الحق سبحانه وتعالى من أوله الى آخره يعلم علم اليقين ان هذا الكتاب يخاطب انساناً عنده القدرة على الاختيار بين الخير والشر، بين الحق والباطل، بين اتباع النهج الإلهي أو اتباع النهج الشيطاني، ولو لم يكن بمقدور المخاطب في هذا الكتاب القدرة على الاختيار لبطل جميع ما في هذا الكتاب من آيات وما احتوت عليه من حكم، وعلوم، وأوامر ونواه. ولكننا سوف نختار بعضاً من الآيات القرآنية لكثرتها التي تدل على حقيقة اختيار الانسان للسبيل التي يريد.

قال تعالى: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَهَابًا بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَفِيضُوا يُفَاغَتْوا بِهَا كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» (٢).

قال تعالى: «وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاعْبُدْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ قَبْلاً هَاجَتْ مِنَ الْحَقِّ بِخُلُقٍ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَا جَاوَزُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الصِّرَاطَ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» (٣).

قال تعالى: «وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَتَأْتِ تَكْرَهُ النَّاسَ هَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ» (٤).

قال تعالى: «لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَبِيحٌ عَلِيمٌ» (٥).

١ - سورة آل عمران، آية ١٩.

٢ - سورة الكهف، آية ٢٩.

٣ - سورة المائدة، آية ٤٨.

٤ - سورة يونس، آية ٩٩.

٥ - سورة البقرة، آية ٢٥٦.

إن الحق سبحانه وتعالى لو شاء لجعل الناس كافة مؤمنين ولكنه تعالت وجلت قدرته شاء للانسان ان يمارس حرية الاختيار، لذلك فان حرية الاختيار لا تخرج عن مشيئة الله. فالذي يؤمن والذي يكفر عندما يمارس حرية اختياره، يكون كله جميعاً في ظلال المشيئة، يعنى السماح له إما بالإيمان وإما بالكفر، إما باختيار جانب الخير وإما جانب الشر. فتعني هنا مشيئة الله سبحانه وتعالى السماح، والاذن المعطى للانسان في ممارسة حريته في الاختيار بين السبيلين. ولكن قسماً كبيراً من الناس خلط بين المشيئة الإلهية، وعلم الله الازلي لكل ما يجري في ملكوته، وقضاء الله وقدره، وإرادة الانسان فنتج عن هذا الخلط فهم خاطئ لحرية الانسان، حيث ذهبوا الى فهم بعض النصوص القرآنية التي توضح حرية الانسان بالمشيئة الإلهية بصورة خاطئة. وسوف نورد بعضاً من هذه الآيات، وسنرى سوياً ماذا تعني بصورة دقيقة، وللحق فإنها منسجمة مع بقية الآيات القرآنية الحكيمة.

قال تعالى:

«مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا\* وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا\* كَلَّا نُمَدِّدُ هُوَآءَ وَهُوَآءَ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا» (١).

قال تعالى:

«إِنْ سَعَيْتُمْ لَشَتَّىٰ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ\* وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ\* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ\* وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ\* وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ\* فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ» (٢).

قال تعالى:

«إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا\* وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا\* يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا» (٣).

قال تعالى:

«كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ\* وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ السَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» (٤).

١- سورة الاسراء، آية ١٨ - ٢٠.

٢- سورة الليل، آية ٤ - ١٠.

٣- سورة الانسان، آية ٢٩ - ٣١.

٤- سورة المدثر، آية ٥٤ - ٥٦.

قال تعالى:

«فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» وهذا صراطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ» (١)

إن جميع هذه الآيات وما يضافها من آيات قرآنية أخرى تدل على أساسيتين هامتين؛ الأولى: أن الحق سبحانه وتعالى يبين لنا أن الإنسان يمارس حريته في ضوء مشيئة الله سبحانه وتعالى، أي بالسماح له بممارسة هذه الحرية. أما بالنسبة إلى الأساسية الثانية فإن الحق سبحانه وتعالى يساعد الإنسان حسب اختياره، فالذي يريد الدنيا على حساب الآخرة يعطيه منها ويزيده بعداً عن سبيل الخير طالما رغب في المضي قدماً على ما هو عليه من انحراف عن جانب الخير، وكذلك بالنسبة للإنسان الذي يختار جانب الخير وينبذ جانب الشر، فإن الحق سبحانه وتعالى يساعده في ذلك طالما سعى برغبته وأرادته نحو الخير وطرقه. وتحقيق بنا أن نشير في هذا المقام إلى حقيقة هامة مفادها أن حرية الإنسان في الاختيار بين الخير والشر قائمة في الحياة الدنيا فقط، وليس كما يفهمه بعض الناس، أو أرادوا أن يفهموا حرية الإنسان أنها تتعدى إلى أمور أخرى سواء في الدنيا أو في الآخرة. كما نود أن نشير إلى أن الإنسان يستطيع أن يبدل في اختياراته، فقد يختار جانب الخير ومن ثم يبتعد عنه ويقبل على جانب الشر، والعكس صحيح. لذلك فإن الباري عز وجل خاطب المؤمنين ألا يرتدوا عن دينهم، كما خاطب الذين أسرفوا على أنفسهم في عمل الآثام وأنباط الفسق مبتعدين عن طريق الرحمن إلى العودة، والآنبة إلى طريق الحق والخير المتمثل في الدين الذي ارتضاه تبارك وتعالى للعالمين. ودليل ذلك يبرز بوضوح سامع في الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ» (٢)

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ

١ - سورة الانعام، آية ١٢٥.

٢ - سورة آل عمران، آية ٩٠.

يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (١)

قال تعالى:

«قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» وَاتَّبِعُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَاسْلُمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يُبَاتِ بِكُمْ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ» (٢)

وعلى هذا الاساس كانت مهمة الانبياء عليهم صلوات الله جميعاً وما زالت عليه مهمة من تبعهم باحسان الى يوم الدين.

### المسألة الثامنة والأخيرة

إن الله سبحانه وتعالى خلق الانسان تشريعاً لعبادته وزوده بكل ما يلزمه من أمور وحقائق لكي يعبد الله طوعاً في ضوء ما جسد فيه من قدرات عقلية وما وضعه له عن طريق الانبياء والرسل ليتعرف على نهج الخير ويتبعه، ونهج الشر ويتباعد عنه، كما أعطاه فرصة ليفوز في الاختبار وهي الحياة الدنيا ليقيم الحجة على الانسان بما سيختاره من السبيلين. ثم وضع تبارك وتعالى ان الثواب والعقاب سيكون في اليوم الآخر بناء على اختيار الانسان في دار الاختبار: الحياة الدنيا. فمن الضروري جداً أن نوضح هنا ان الثواب والعقاب سيكون فقط على الامور والقضايا التي كان فيها الانسان حر الإرادة في اختياره، مثل اختيار طريق الخير أو طريق الشر وما يتبع ذلك من انماط سلوكيه ومعتقدات فكرية، أما الجوانب الاخرى التي لا تخضع لإرادة الانسان فلا يحاسب عليها الانسان إطلاقاً لأنها خارج طوق حريته، مثل: أذكر هو أم انثى، قصير أم طويل، أبيض أم أسود، فقير أم غني؟، وإلى غيرها من الامور التي لا تخضع الى اختيار الانسان وارادته.

أما بالنسبة الى عقاب اعداء الله الذين ضل سعيهم في الدنيا فيبدو واضحاً مشرقاً في قوله عز وجل:

«وَيَوْمَ يُنْفَخُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَبِيرًا وَوَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي مَعَكُمْ بِأَنَّكُمْ تَتْلُونَ كِتَابِي الَّذِي أَنزَلْتُ وَأَتْلُوهُ فَأَقُولُ لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا أَنِ امْكُثُوا فِي الْجَنَّةِ مُكْثًا وَأُولَئِكَ الَّذِينَ يَخْلَوْنَ فِيهَا بِلَا غَوْلٍ مُّتَبَعِينَ وَأَقُولُ لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا لِلَّذِينَ أَقْرَبُوا لَا تَقْرَبُوا أَمْوَالَهُمْ لِيَسْهَبَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ فَتَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ كَمَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ يَوْمَ الْبَيْعِ وَفِي يَوْمَ الْبَيْعِ تَأْكُلُ أَمْوَالُ الْغَافِلِينَ وَإِنِّي مُخَوِّفٌ قَوْمَكُم مِّنْ مَّوَدَّةِ بَيْنِكُمْ لِيُطِيعُوا أَمْرًا مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (٣)

١- سورة المائدة، آية ٥٤

٢- سورة الزمر، آية ٥٣ - ٥٤

٣- سورة فصلت، آية ١٩ - ٢١

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ  
بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا» (١).

أما بالنسبة للذين أنابوا واستقاموا على الهدى الذي أرملة الباري عز وجل  
رحمة وبشرى للعالمين فإن ثوابهم على ذلك سيكون في جنات السلام والخلود،  
وذلك هو الفوز العظيم.

قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَحَسَبُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ  
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَكُونُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا  
حَرِيرٌ» (٢).

قال تعالى:

«ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ» يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِيفَاتٍ مِنْ  
ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهُىهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا  
خَالِدُونَ» وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» (٣)

إن أعمال الإنسان التي يقوم بها في الحياة الدنيا بمحض إرادته هي التي سوف  
تقوده إما إلى جنات الفردوس وإما إلى نار جهنم وبئس المصير، ودليل ذلك يكمن  
في قول الباري عز وجل:

«يَوْمَئِذٍ يُصْدَرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ» فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ  
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ» وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ» (٤)

### نتائج الدراسة:

لقد خلصت الدراسة إلى عدة نتائج أساسية مفادها أن كل ما يجري في ملكوت  
الخالق سبحانه وتعالى يحدث ضمن المشيئة الإلهية، كما أن الحق سبحانه وتعالى شاء  
أن يعطي الإنسان حرية الاختيار بين الحق والباطل، بين الخير والشر، وأنه سيجد  
ثوابه أو عقابه بناء على هذا الاختيار في الحياة الدنيا. كما أفادت الدراسة أن علم الله  
سبحانه وتعالى الأزلي، أي معرفة الأحداث قبل وقوعها من أصحابها «لأنه سبحانه

١ - سورة النساء، آية ٥٦

٢ - سورة الحج، آية ٢٣

٣ - سورة الزخرف، آية ٧٠ - ٧٢

٤ - سورة الزلزلة، آية ٦ - ٨



وتعالى لا يفاجأ بشيء» لا تؤثر على حرية الاختيار عند الانسان، بل تدل على قدرة الحق سبحانه وتعالى وعلمه اللامتناهي. وبينت الدراسة أيضاً ان الحق سبحانه وتعالى يقدر الامور في ملكوته بناء على علمه للأحداث قبل ظهورها عن اسبابها. لذلك فإن الانسان يسعى نحو هذه الامور التي تدخل مناط التكليف بحرية كاملة لأنه لا يعلم أي شيء عنها قبل حدوثها. أي أن حرية الانسان في مجالات التكليف لا تتأثر بعلم الله وتقديره للامور لأنها تعد غيباً بالنسبة للانسان في الوقت الذي تكون معلومة منذ الأزل لله سبحانه وتعالى. وهذه من الفروقات الهامة بين الخالق والمخلوق. وفي ضوء هذه النتائج نستطيع أن نفهم كافة الآيات القرآنية على نسق واحد وتكامل فريد من نوعه، كما نستطيع أن نفهم بشكل دقيق أحاديث المصطفى صلوات الله عليه وسلامه.

قال تعالى:

«وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَمَبُّوا الْعِمَى عَلَى الْهُدَى فَأَهْلَكْنَاهُمْ  
مِاعِقَةَ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا  
يَتَنَقُّونَ (١).

## المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- حسام الدين الوسي، دراسات في الفكر الفلسفي الاسلامي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- ٣- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.
- ٤- د. حسن الحيارى، التصور الاسلامي للوجود، دار البشير، عمان، الاردن، ١٩٨٩.
- ٥- السيد محمد حسين الطباطبائي، البيزان في تفسير القرآن، المجلد الاول، دار الكتاب الاسلامي، ايران، ١٩٧٢.
- ٦- الشهرستاني، الملل والنحل، الجزء الاول.
- ٧- الشيخ الركابي، خطاب الحرية في النظام الايستمولوجي، دار النهضة الاسلامية، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.
- ٨- عبد الحليم قنيس وخالد عبد الرحمن، مسألة القضاء والقدر، دمشق، ١٩٧٩.
- ٩- الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميين، الجزء الاول، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٠- عبد اللطيف محمد العبد، دراسات في الفلسفة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٩.
- ١١- د. عبد الله سلوم السامرائي، الله والانسان، بغداد، ١٩٨٢.
- ١٢- د. علي شلق، العقل الفلسفي في الاسلام (الفرق والاحكام)، دار المدى للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٣- علي عبد المعطي، قضايا الفلسفة العامة ومباحثها، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٤.

- ١٤- عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، دار الفكر العربي، الطبعة الاولى.
- ١٥- د. فواد كامل قدح، حقائق الوجود، المطبعة الجديدة، ١٩٦٧.
- ١٦- د. فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، جامعة عين شمس، ١٩٨٢.
- ١٧- محمد ابو ريان، تاريخ الفكر الفلسفي في الاسلام، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، ١٩٨٦.
- ١٨- محمد باقر الصدر، فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨٠.
- ١٩- محمد جواد مغنية، الشيعة في الميزان، دار التيار الجديد، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٩٨٩.
- ٢٠- محمد جواد مغنية، معالم الفلسفة الاسلامية، الطبعة الثانية، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.
- ٢١- مرتضى المطهري، الانسان والقضاء والقدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٧٨.
- ٢٢- مصطفى عبدالرزاق، تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٦.
- ٢٣- المغني، الجزء الثامن.
- ٢٤- الملطي، التنبيه.
- ٢٥- د. مهدي فضل الله، من اعلام الفكر الفلسفي الاسلامي، الدار العالمية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٢.
- ٢٦- نبيل حمدي، هل الانسان مسير أم مخير؟، مطابع الاتفاق، الاسكندرية، ١٩٧٨.
- ٢٧- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- ٢٨- يوسف كرم، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار القلم، بيروت، ١٩٨٢.

الفصل الخامس

الحكمة

## الحكمة

هدفت الدراسة الحالية الى التعرف على مفهوم الحكمة واهميتها بالنسبة للانسان في كلا الدارين. كما تناولت انواع الحكمة ومصادرها وعلاقة الحكمة بالعلم، وعلاقة الداعية بالحكمة. وقد اعتمدنا في ذلك على القرآن الحكيم بعد أن عرضنا آراء الباحثين والمؤلفين، وتوصلت الى ان هناك نوعان من الحكمة: الحكمة المطلقة وهي للحق سبحانه وتعالى، والحكمة المقيدة وتقسم الى الحكمة النقلية ومصدرها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والحكمة المكتسبة، وهي التي يستطيع أن يصل اليها الانسان عن طريق البحث والدراسة للمجالات المعرفية. وان هناك علاقة طردية عالية بين الحكمة والعلم. اضع الى ذلك ان الانسان بحاجة ماسة الى الحكمة بنوعيتها اذا ما اراد ان يجتلي سر وجوده ويحقق اهدافه في ضوء ذلك.

## الحكمة

### المقدمة

تعد الحكمة من أكثر الكلمات التي شدد انتباه الانسان وتفكيره عبر تاريخه المديد لها لها من وقع خاص على النفس الانسانية، وما تعكسه من فوائد جمة على حاضر الانسان ومستقبله في الحياة الدنيا والآخرة. فكل انسان منا يتوق إلى أن يوصف من قبل الآخرين بهذه الكلمة التي تشكل مصدر اعتزازه وتحقيق ذاته من وجهة نظره أمام أبناء جنسه. فالحكمة بجانب كلمة الحرية تعدان من أكثر المصطلحات التي تشرئب لها النفوس البشرية سواء عند الذين نالوا نصيباً منها أم الذين ما زالوا يلهثون وراء نصيبهم. والحق ان الانسان هتف ونادى عبر تاريخه بهاتين الكلمتين بشتى الطرق والاساليب التي عرفها طيلة تقدمه الحضاري. ولكن الذين عاشوا في ظلالها أناس قليلون، وتاريخ الانسانية يشهد على صحة ذلك من كثرة المظلومين، والمضطهدين، والسفهاء، والجهلاء. والدليل الأقوى يكمن في قول الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عندما وصف أكثر الناس بأنهم لا يعلمون، وفاسقون، وظالمون، وجاهلون.

### تعريف الحكمة:

الحكمة ليست بالشيء السهل البسيط الذي يمكن أن يحصل عليه الانسان دون بذل الجهد الحثيث في طلب العلم والرجوع إلى المصادر المعرفية التي تفيض بالحكمة ونورها. فالحكمة كما يصفها اللغويون تعني العدل، الحلم، ما يمنع من الجهل، ما يمنع من الفساد، كل كلام موافق للحق، وضع الشيء في موضعه، صواب الأمر وسداده.

وعن جعفر الصادق عليه السلام قال «الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمره الصدق، وما أنعم الله على عبده بنعم أعظم، وأرفع، وأجزل، وأبهى من الحكمة» (١)

يرى ابن مينا أن الحكمة «صناعة نظر يستفيد منها الانسان تحصيل ما عليه الوجود كله في نفسه، وما عليه الواجب مما ينبغي أن يكسبه فعله لتشرق بذلك نفسه

١ - الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ص ٤٠٤.

وتستكمل وتصير عالماً معقولاً مضاهياً للعالم الموجود، وتستعد للسعادة القصوى بالآخرة. وذلك بحسن الطاقة الانسانية» (١)

والحكمة عند سيد قطب رحمة الله عليه تعني «ثمرة التعليم بالقرآن الكريم، وهي ملكة يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها الصحيحة، ووزن الأمور بموازينها الصحيحة وإدراك غايات الأوامر والتوجيهات» (٢)

يرى الطباطبائي، رحمه الله، الحكمة أنها «القضايا الحقة المطابقة للواقع من حيث اشتغالها على سعادة الانسان كالمعارف الحقة الالهية في المبدأ والمعاد، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساهمها بسعادة الانسان، كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية» (٣)

«وقد عدد صاحب البحر المحيط تسعة وعشرين رأياً في الحكمة منها: الإصابة في القول والعمل، ومنها الفهم، ومنها الكتابة، ومنها إصلاح الدين وإصلاح الدنيا» (٤)

«فالحكمة هي نفاذ البصيرة إلى سنن الحوادث ومجريات الامور، واتقان العمل، والتصريف دون صدام مع قوانين الظواهر، وفي ضوء ظروف العصر الذي تواكب» (٥)

وفي ضوء هذا المفهوم السامق للحكمة ذهب الفلاسفة إلى تعريف الفلسفة عندما ارادوا إعلاء شأنها على أنها حب الحكمة.

### انواع الحكمة:

في ضوء التعريفات السابقة للحكمة، فالحكمة تحتاج إلى العلم الكامل والشامل والدقيق للشيء الذي يريد أن يتخذ الانسان فيه رأياً مديداً لا ينتابه خطأ أو فساد. هذا بجانب الالتزام التام بها هو حق دون تأثير العواطف والجوانب الأخرى

١- بدر عون، الفلسفة الإسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٢، ص ٢٩٦.

٢- في ظلال القرآن، المجلد الاول ص ١٣٩.

٣- الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني، ص ٣٩٥.

٤- عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الاسلام، بيروت، دار الكتاب اللبناني ١٩٧٤، ص ٢٢٨.

٥- ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الإسلامية، عمان، جمعية عمال المطابع التعاونية ١٩٧٨، ص ٥١.

في اتخاذ القرار الحكيم. ونحن نعلم جميعاً أن الإنسان يتصل بهذا الوجود الفيزيقي (عالم الشهادة) والميتافيزيقي (عالم الغيب). وقد حاول قسم من الناس التعرف إلى طبيعة الأشياء ومكوناتها التي تتصل بعالمنا الفيزيقي والميتافيزيقي عن طريق النهج الإلهي (الدين الإسلامي) والقسم الآخر من الناس ذهب إلى طريق الاعتماد على العقل الإنساني مما أدى إلى ظهور المدارس الفكرية الفلسفية المتعددة. والشيء الذي لا بد من إبرازه في هذا المقام أن الإنسان لا يستطيع أن يجتلي جميع الحقائق المتصلة بالعالم الفيزيقي، هذا بجانب عجزه الساطع في التعرف إلى شتى المعلومات والمعارف التي ينطوي عليها العالم الميتافيزيقي، وذلك يعود لكون الإنسان مخلوقاً، وكل ما هو مخلوق مقيد، والمقيد له حدود لا يستطيع أن يتعداها. لذلك فإن الإنسان مهما وصل إلى درجات متقدمة من العلم والمعرفة لا يمكن أن يصل إلى درجة الحكمة المطلقة التي يستطيع بواسطتها أن يسير على نور وهدى في جميع الأمور المتعلقة بعالم الشهادة وعالم الغيب. هذا بجانب الشهوات التي وشجت عليها النفس الإنسانية وما تبليه من ضغوط على الإنسان بهدف الابتعاد عن الحق واتباع الشهوات والاهواء الذاتية.

فالحكمة المطلقة لن تكون إلا للقوة المطلقة التي تفعل ما تريد ولا يحد حدودها شيء فهي مطلقة الإرادة والحرية، فهذا النوع من الحكمة للخالق سبحانه وتعالى فهو العليم الحكيم الذي خلق كل شيء والفعال لما يريد، والذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات والأرض، وقد أعطى كل شيء قدره، ولا يفوته شيء ولا يصدر عنه إلا الحق تعالت وجلت قدرته عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

وفي مقابل هذه الحكمة المطلقة هناك الحكمة الجزئية أو المقيدة، وهي التي يستطيع الإنسان أن يصل إلى لبابها ويتفياً ظلالها البانعة ويلوذ بها من شر عدوه السرمدي إبليس وجنده، ويفوز بنعيم الدنيا والآخرة. وهذا النوع من الحكمة لا يستطيع الإنسان أن يصل بطاقاته الذاتية إلى المعلومات كافة، ومجموعة المعارف، ومكونات الأمور المتعلقة بعالم الغيب والشهادة والتي تعد من مستلزمات هذه الحكمة. لذلك فإن الحكمة المقيدة أو الجزئية تنقسم إلى قسمين: فالقسم الأول يدعى الحكمة النقلية، وهي التي بعثها لنا الحق سبحانه وتعالى عن طريق كتبه ورسله لكي نعيش في ضوئها ونهتدي بنورها في الحياة الدنيا والآخرة. ولا يوجد مصدر لهذا النوع من الحكمة سوى النهج الإلهي، لأن هذه الحكمة خارج متناول قدرات الإنسان



الذاتية، فليس للانسان بد من أن يأخذها من مصدرها الاساسي، وإذا ما حاول ان يبحث عنها بمسائل وطرق اخرى فمن المحال ان يصل اليها لأنها خارج قدرات البشر. أما القسم الثاني من الحكمة فيدعى الحكمة المكتسبة، لأن الانسان يستطيع ان يصل الى هذا النوع بقدراته الذاتية التي جسدها الحق سبحانه وتعالى فيه، وذلك عن طريق البحث والدراسة وطرق ابواب المعرفة المختلفة ليجتلي شتى الحقائق والمعلومات المتعلقة بفرع أو أكثر من فروع المعرفة. فإذا ما وصل الى هذا المستوى يطلق عليه كلمة حكيم في هذا الفرع المعرفي أو ذاك.

### أهمية الحكمة:

ان الانسان عبر تاريخه وحاضره ومستقبله بحاجة ماسة الى كلال النوعين من الحكمة، الحكمة العقلية والحكمة المكتسبة، لكي يعي حقيقة نفسه، وحقيقة وجوده على هذا الكوكب، وحقيقة الحياة الدنيا، وحقيقة الآخرة وما ينتظره فيها من مصير. ومما يجدر الاشارة اليه ان الانسان بشكل عام قد نأى بجانبه عن الحكمة العقلية التي بعثها الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بعباده ليأخذ بيدهم الى طريق النور والسودد، بالرغم من أن هذه الحكمة جاءت من عند العليم الحكيم ذي الحكمة المطلقة الذي لا يصدر عنه سوى الحق، والعدل، والصواب، والعلم، والذي لا يفوته شيء من جميع الأمور ومكنوناتها. أما بالنسبة الى الحكمة المكتسبة فقد بذل الانسان جهداً عظيماً في مجالات البحث والتنقيب والدراسة وطرق ابواب العلوم المتعددة بهدف الوصول الى جميع ما تصل اليه ملموحاته واهدافه. والحق ان الانسان قد نجح عبر تاريخه نجاحاً مذهلاً في كشف الحقائق المتصلة بالعالم الفيزيقي هذا بجانب الاختراعات العلمية الحديثة التي يشهدها العالم في هذا القرن.

ولكن الانسان كما ذكرنا آنفاً بحاجة ماسة لكلال النوعين وخاصة الحكمة العقلية لأن الانسان الذي يصدف عنها يعد جاهلاً مهماً أوتي من العلوم التي تؤهله ان يمتلك قدراً كبيراً من الحكمة المكتسبة. وذلك يعود الى ان الحكمة العقلية تتصل بقضايا الانسان المتصلة بكلال الدارين، دار الفناء (الحياة الدنيا) ودار الخلود (الآخرة) وما تعكسه من آراء وقرارات صائبة تتعلق بشؤون الانسان في كلتا الدارين. أما بالنسبة للحكمة المكتسبة فهي تتصل فقط بالحياة الدنيا وامورها، وكما نعلم فإن الحياة الدنيا تعد مدخلاً للدار الآخرة، فكل ما تحتوي عليه من متع وزينة تعد متاعاً قليلاً إذا ما

قورنت بما تحتوي عليه دار السلام والخلود. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى وصف الانظمة كلها والناس كافة الذين يصدفون عن النهج الالهي وما ينطوي عليه من حكمة نقلية بأنهم يرتعون في مراعي الجاهلية، وانهم جاهلون. فالانسان الذي يعرف شتى العلوم المتصلة بالحياة الدنيا من علم الفضاء، وعلم الطب، وعلم الفيزياء بأنواعه، وعلم الكيمياء بأنواعه، وبقية العلوم التي عرفها عبر تاريخه الحضاري وليس له نصيب من الحكمة النقلية يعد جاهلاً، لأنه جهل الحقائق الكبرى المتصلة بالانسان ومطبعة خلقه، واهداف وجوده، ومكانته في الكون، والانسان ومصيره في اليوم الآخر. لذلك وصف الحق سبحانه وتعالى هؤلاء بالجهل والجاهلية كما يبدو لنا جلياً في الآيات الحكيمية التالية:

قال تعالى

«قُلْ أَتَغَيِّرُ اللَّهَ تَمْرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ» (١)

قال تعالى

«أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ» (٢)

«ان معنى الجاهلية يتحدد بهذا النص. فالجاهلية -كما يصفها الله ويحددها قرآنه- هي حكم البشر للبشر لأنها هي عبودية البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض الوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بالوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله. إن الجاهلية -في ضوء هذا النص- ليست فترة من الزمان ولكنها وضع من الأوضاع. هذا الوضع وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية، المقابلة للإسلام، والمناقضة للإسلام. والناس في أي زمان وفي أي مكان - إما أنهم يحكمون بشريعة الله -دون فتنة عن بعض منها- ويقبلونها ويسلمون بها تسليماً، فهم إذن في دين الله. وإما أنهم يحكمون بشريعة من صنع البشر - في أي صورة من الصور - ويقبلونها فهم إذن في جاهلية، وهم في دين من يحكمون بشريعته، وليسوا بحال في دين الله. والذي لا يبتغي حكم الله يبتغي حكم الجاهلية، والذي يرفض شريعة الله يقبل شريعة الجاهلية، ويعيش في الجاهلية» (٣)

١ - سورة الزمر آية ٦٤ .

٢ - سورة المائدة، آية ٥٠ .

٣ - في خلال القرآن، الجزء الثاني، ص ٩٠٤ .

## العلم والحكمة :

ومما يجدر الاشارة اليه ان الحكمة تبنى على العلم اليقيني الثابت الذي لا ينتابه شك او جهل بغض النظر عن نسبة الشك أو الجهل لأنها مهما كانت ضئيلة فإنها تفسد الحكمة. ولا يمكن بأي حال من الاحوال ان تشيد الحكمة على فرضيات، ونظريات، وظنون، وتأملات، وتوقعات. لأن الحكمة تعني اتخاذ القرار أو الرأي السديد المبني على معلومات دقيقة ثابتة لا تحتل الخطأ. لقد شاء الحق سبحانه وتعالى ان يبعث لنا الحكمة عن طريق كتبه ورسله دون توضيح جميع المعلومات ومجموعة المعارف التي بنيت عليها تلك الحكمة. وقد يكون السبب وراء ذلك يعود الى عدم قدرة الانسان على فهم واستيعاب تلك المنظومة الواسعة من المعلومات والمعارف. وإما قد يكون السبب لعدم قدرة اغلب الناس على اتخاذ الآراء الحكيمة حتى لو عرفوا تلك المعلومات لما وشجت عليه النفس الانسانية من الجدل والمناورة، وحب الالتفاف على الحقائق التي لا تناسب الاهواء الذاتية. هذا بجانب ان الباري عز وجل شاءت ارادته أن ينيب له ويستقيم على صراطه المستقيم المسلمون من البشر عن طريق ايمانهم به ومخافتهم منه دون رؤيتهم له أو للامور الغيبية التي جعلها بعزته وجادلته غيباً.

ان القرآن الكريم وصفه الحق سبحانه وتعالى بالحكيم لأنه يحتوي على الآيات القرآنية الحكيمة التي انبثقت عن حكمته سبحانه وتعالى والتي اسست على العلم اليقيني الثابت الذي لا ينتابه باطل ولا يتخلل اليه شك. ولو كان القرآن كما يدعي الخراصون بعيداً عن العلم لثبت بطلانه على مر السنين، ونجح الانسان في ساحة التحدي التي رسمها القرآن الكريم للناس الذين لا يؤمنون بهذا القرآن ومصدره الالهي. ومن الاسس الاساسية والمعجزة لهذا القرآن انه ينطق بالعلم والحق على مر العصور مع اختلاف الانماط الحضارية والابداعية للانسان، لأنه لا ينتابه جهل، أو ضعف، أو شك يخشى ان يكتشف من خلال التقدم العلمي والحضاري للانسان، لذلك ليس غريباً أن نجد القرآن الحكيم يقدم المعلومات للانسان ويخاطبه في مطلع القرن الهجري الاول بالأسلوب والطريقة نفسها التي يخاطب بها الانسان في مطلع القرن الخامس عشر مع الاختلاف الحاد في المعلومات، والعلوم، والتقدم الحضاري بين الانسان في كلا القرنين، وسيبقى يخاطب ويقدم نفس المعلومات للأجيال القادمة بالطريقة نفسها والاسلوب مع تقدمها العلمي الهائل الذي سوف تحققه مع مرور

السنين. فجميع ذلك يدل على أن جميع ما في القرآن اسس وشيد على علم قاطع ذي دلالة ثابتة. لذلك اخبرنا الباري عز وجل ان هذا الكتاب الحكيم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه لأنه جاء من عند العليم الحكيم.

قال تعالى

«إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّ لَكُنَّا لَهُمْ عَزِيزٌ ۖ لَا يَأْتِيهِمُ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (١)

وكيف يعوز القرآن الحكيم العلم وهو من عند العليم الخبير الذي وسع علمه السموات والارض ومن فيهن، ولا يغيب عنه شيء ولا يفوته شيء. فهو العلام الحكيم الذي لا يصدر عنه الا الحق، لعلمه الشامل بجميع ما في الوجود من موجودات، فالحق سبحانه وتعالى وصف لنا ذاته بأنه يعلم كل شيء، وان علمه قد وسع ما في الوجود من اسرار، ومكنونات، ومعلومات، فلا يعزب عنه شيء من الأشياء كافة.

قال تعالى

«إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا» (٢)

فالقرآن الكريم جاءنا من عند العليم الحكيم بشتى القضايا والامور المتعلقة بالوجود وامراره وجميع العلوم المتصلة بجميع موجوداته. وقد تم تفصيل هذا الكتاب المنير بناء على العلم الالهي المديد الذي لا تحده بداية او نهاية، المحيط بكل شيء في الوجود ومحتوياته.

قال تعالى

«وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٣)

والحق ان العلم الذي جاء به القرآن الكريم للانسان بجانب الحكمة التي ينطوي عليها، لا يمكن للانسان ان يصل بطاقاته الذاتية لهذا العلم الذي ارسله المولى عز وجل بمثابة الهدى والنور للانسان عبر تاريخه ليخرجه من الظلمات الى النور.

١- سورة فصلت، آية ٤١-٤٢.

٢- سورة طه، آية ٩٨.

٣- سورة الاعراف، آية ٥٢.

قال تعالى: «إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ» الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ \* عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ» (١)

فالإنسان كغيره من المخلوقات له حدود ومطاقات معينة جسدها فيه الخالق سبحانه وتعالى، ولا يستطيع أن يتجاوز هذه الطاقات والقدرات مهما حاول أن يأخذ بالأسباب لأنه ذو طاقات محدودة تقف واجمة عند حدود معينة. فالعلم الذي وصل للإنسان عن طريق القرآن الكريم لا يستطيع الإنسان بأية حال من الأحوال أن يصل إلى هذا العلم معتبداً على قدراته ومطاقاته الذاتية. ودليل ذلك يكمن في أن الأمور التي لم يتم تعليمها للإنسان من خلال القرآن الكريم بقيت مجهولة بالنسبة للإنسان، وستبقى على هذه الحالة حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها. ومن هذه الأمور التي شدد انتباه الإنسان وفشل في الوصول إلى ماهيتها، الروح التي تسكن جسده. لقد حاول الإنسان بشتى الطرق والوسائل للوصول إلى ماهية الروح ولم ينجح في ذلك، حتى ذهب الناس إلى توجيه الأسئلة للرسول الكريم صلوات الله عليه وسلامه مستفسرين عن الروح وماهيتها. فجاء القول الفصل من الحق سبحانه وتعالى ليبين أمر الروح ويوضح أن الإنسان ما وصله من العلم الإلهي إلا القليل.

قال تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» (٢)

فالإنسان المسلم الذي يؤمن بالنهج الإلهي القويم، وينطلق في شتى أموره الحياتية منبياً مستقيماً لهذا النهج المنير، يجب أن يؤمن إيماناً جازماً بالحكمة النقلية التي جاءت عن طريق القرآن الكريم وسنة نبينا الحبيب، وينعم في نورها ويعيش في ظلها، هذا بجانب بذل الجهود الحثيثة في طلب العلم، والبحث والتنقيب، والدراسة في شتى العلوم المتعلقة بالحياة الدنيا للوصول إلى منابع الأساسية للحكمة المكتسبة، والتي يستطيع أن يصل إليها الإنسان بقدراته الذاتية التي جسدها فيه الحق سبحانه وتعالى. وبهذا يكون الإنسان في هذه الحالة قد استفاد من الحكمتين النقلية والمكتسبة بما يعود عليه بالفائدة في كلتا الدارين.

١ - سورة العلق، آية ٣-٥.

٢ - سورة الاسراء، آية ٨٥.

أما بالنسبة للذين يقحمون انفسهم وعقولهم في الامور التي لا يقوى عليها الانسان لأنها خارج ملوق وسائله وقدراته فإنهم يصدفون عن الطريق القويم الذي يقود الانسان الى سدرة الحق والصواب. ان الحق سبحانه وتعالى نهى عباده المخلصين عن الخوض في الامور التي لا يستطيع علم الانسان ان ينفذ اليها، لما يعكسه من آثار سلبية على حقيقة الامور والقضايا التي يجب أن تشكل اساس الاعتقاد السليم عند الانسان الذي يقف عند حدود الطاقة الانسانية.

قال تعالى:

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا» (١)

ومما يؤسف له حقاً ان كثيراً من الناس قد ذهبوا الى الحديث، والتأمل، واثارة الشكوك والظنون حول القضايا التي تعد خارج قدرات البشر، لقد تحدثوا عن الامور الغيبية ومكنوناتها وكأنها واقع محسوس، مما أدى بهم الى الاعتقاد بالامور والقضايا المتناقضة التي لا يجمع بينها جامع سوى الفلتات الذهنية، والتخرصات الظنية، وتأملات اصحاب الشهوات وتخيلاتهم، فقد تعددت بهم السبل والآراء حتى ابتعدوا عن حقيقة الأمر وسداده.

ان الذين يصلون الى درجات متقدمة من العلم هم اقدر الناس على التيقن من حقيقة القرآن الحكيم وما يحتوي عليه من علم الهي. فهم الذين يعرفون تمام المعرفة ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون بأي حال من الاحوال إلا من عند الحق سبحانه وتعالى وذلك لأنه يحتوي على علوم وحكمة لا يمكن للانسان ان يصل اليها عن طريق قدراته الذاتية. لذلك ليس غريباً ان نجد عشرات العلماء الافذاذ من مختلف التخصصات المعرفية ومن مختلف شعوب الكرة الارضية قد ساقهم علمهم الى الايمان بالقرآن الحكيم مصدراً ومضموناً.

قال تعالى:

«هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (٢)

١ - سورة الاسراء، آية ٣٦.

٢ - سورة آل عمران، آية ٧.

ويجدر بنا بعد الذي قدمناه من حقائق حول القرآن الحكيم ومصدره الالهي ومحتواه الذي يزخر بالعلم والحكمة النقلية. ان نشير الى اعداء الحق والحقيقة الذين يعدون القرآن العربي الحكيم وسنة نبينا الامين مبعثاً للتخلف والانحطاط وحاجزاً يحول دون التقدم ومجاعة الامم الاخرى. اننا قد لا نلومهم كثيراً على هذا السلوك طالما اننا نعرف تمام المعرفة انهم يجهلون حقيقة القرآن الكريم وما ثبت من سنة رسولنا الكريم. انهم فهموا الاسلام كتاباً وسنة من خلال الممارسات المشوهة التي يقوم بها لفيف من الناس هنا وهناك، إذ أسست هذه الممارسات الشاذة على التأويلات الجائرة للنصوص القرآنية والدس في سنة نبينا الكريم وتأويلها بما ينسجم مع اهوائهم واهواء ساداتهم عبر تاريخهم الطويل في تعاملهم مع النهج الاسلامي. لذلك امسى الاسلام مشوهاً في اذهان عامة الناس. انه لا بد من التمييز الواضح بين الاسلام الحقيقي الذي يشيد بنيانه الساطع على الكتاب الكريم والسنة النبوية في شتى امور الحياة وبين الممارسات التي يقوم بها الناس والتي تتصل فقط ببعض الامور الاسلامية تاركين وراء ظهورهم الامور التي تشكل الهيكل الاساسي والبنية الأساسية الخلقية للمجتمع الاسلامي. فالاسلام الحقيقي هو منارة العلم ومحطة انظار العلماء والباحثين، ولا ينتج عنه الا مجتمعاً اسلامياً يتميز بالعدل، والايتار، والتعاون، والتماسك، والحب، والتضحية، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والى غيرها من السمات الاسلامية الغراء التي تعكس ذاتها داخل المجتمع المسلم. أما ما نراه من ظلم، وكذب، وفسق، وفجور، وخيانة، وغش في هذه المجتمعات الحالية فهي نتيجة للانحرافات الحادة التي استقرت في اذهان الناس وليس لها أية علاقة بالنهج الاسلامي المنير.

ولكن شياطين الانس والجن ومن استهوته طريقتهم ذهبوا الى نصب شركاء العدا للحق، والعلم، والحكمة النقلية التي يفوح بها النهج الاسلامي عبر تاريخ البشرية. ولو اراد الحق سبحانه وتعالى لما فعلوا ذلك. ولكن حرية الاختيار التي وهبها الحق سبحانه وتعالى للانس والجن دون سائر مخلوقاته جعلتهم يمارسون شتى الاساليب والطرق المشبعة بالعداء والكراهية للنهج الاسلامي الذي يفيض بالعلم والحكمة. ومن اساليب العدا السرمدية التي يكنها هذا الفريق ضد الحق واتباعه، اثاره الشكوك والمفتريات حول النهج الاسلامي المنير. وقد تجد هذه المناورات المنحرفة قبولاً تاماً عند الذين في قلوبهم مرض والذين غرتهم الحياة الدنيا

بزخرفها وزينتها. ودليل هذه العداوة يبدو ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل:  
«وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَجَبٍ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَكَوْشَاءَ رَبِّكَ مَا فَعَلُوهُ قَدْ أَفْرَحُوا بِمَقْتَرِهِمْ وَمَا يَفْتَرُونَ \* وَلِتَمَّعِيَ إِلَيَّ أَفْسَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَيَبْرِضُونَهُ وَيُفْتَنُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ» (١)

### مصادر الحكمة:

لقد شاعت حكمة الحق سبحانه وتعالى أن يبعث لنا الرسل والأنبياء تترى بالكتاب والحكمة لينير للإنسان السبل ويتركه يختار بنفسه بعد أن جسد فيه الملكة العقلية ووجه حرية الاختيار. والشيء المؤسف حقاً أن الإنسان بشكل عام عبر تاريخه مع الأنبياء والرسل كان منابذاً للحكمة التي بعثها الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفاً بمبادئه. بهدف مساعدتهم على اختيار أفضل السبل المؤدية إلى سعادة الحق والصواب في الدارين؛ الأولى والآخرة. فقد ذهب الإنسان إلى الاستهزاء بالرسل والاستخفاف بهم وبكل ما جاءوا به من عند الحق سبحانه وتعالى. حتى الكتاب الحكيم الذي بعثه لنا الحق سبحانه وتعالى كان موضعاً لتكذيبهم وإثارة شكوكهم. وقد بين لنا الباري سبحانه وتعالى أن القرآن الكريم قد جاءنا من لدن حكيم، خبير، عليم لا ينتابه الباطل مطلقاً لأنه أسس بنيانه على علم، وخبرة، وحكمة الهية لا يعزب عنها شيء.

قال تعالى

«أَلَمْ يَكُنَّا لَهُ كِتَابٌ أَهْكِمْتَ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ» (٢)

قال تعالى:

«تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ» (٣)

وطالما أن القرآن الكريم قد بني وأسس على علم الله سبحانه وتعالى وحكمته المطلقة فإن الحكيم سبحانه وتعالى وصف لنا كتابه الكريم، بالحكيم، وآياته، بالحكمة. كيف لا وهي تنطق بالحق البين الذي لا يتسلل إليه الشك أو الخطأ، أو الفساد.

١ - سورة الانعام، آية ١١٢ - ١١٣.

٢ - سورة هود، آية ١.

٣ - سورة الزمر، آية ١.



قال تعالى:

«أَلَمْ تَلِكْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ» (١)

قال تعالى:

«يَس \* وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ» (٢)

لقد كانت مهمة خاتم الانبياء والمرسلين صلوات الله عليه وسلامه مثل غيره من الانبياء والرسل تعليم الانسان الكتاب والحكمة لينير له سبل السلام، والوفاء، والمحبة، والايتار، والتضحية، والتعاون، والاخاء، والعدل، والفوز بنعيم الدنيا والآخرة. ولقد لقي صلوات الله عليه من الاساءة، والتكذيب، والتطريد، والتشهير، وحبك المؤامرات لقتله -فقط- لأنه يود أن يزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ويوصلهم الى مدرة الحق في الدنيا والآخرة. وبدلاً من تقديم جزيل الشكر والامتنان للحق سبحانه وتعالى لعبثه فيهم رسولا منهم مخلصاً لهم واميناً على اسرارهم واماناتهم، ونموذجاً يحتذى بخلقه وعطفه ورحمته، ذهبوا الى منابذته والوقوف في طريقه بشتى السبل والطرق الشريرة التي عرفها البشر.

قال تعالى:

«لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٣)

قال تعالى:

«هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٤)

ومما يهيج الاسباب ويفجر القلوب دماً، أسفاً وندماً أن المسلمين قد ابتعدوا عن مصدر الحكمة النقلية المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة عندما حاولوا البحث عن المعلومات والاسباب والمسببات التي تتركز عليها الحكمة النقلية مما جعلهم يتحتمون العقل الانساني بأمور خارج طوق وسائله مما أثار بينهم الاختلافات

١ - سورة يونس، آية ١.

٢ - سورة يس، آية ٢-١.

٣ - سورة آل عمران، آية ١٦٤.

٤ - سورة الجمعة، آية ٢.

الطائفية وتعددت آرائهم واعتقاداتهم حول القضية الواحدة، حتى تاهت بهم السبل وتقطعت بهم الأسباب، فكان من الأجدر بنا معشر المسلمين أن نعيش بنعيم الآيات القرآنية الحكيمة وفي ظلال السنة النبوية الطاهرة دون تأويل النصوص وإخراجها عن مسارها القويم، والتأويلات الجائرة للسنة النبوية الشريفة، وبعد الاعتماد الكلي على مصدر الحكمة التقليدية (الكتاب والسنة النبوية) يجب أن توجه جميع الطاقات لنيل العلوم والمعارف المتعلقة بالحكمة المكتسبة التي تتصل بشتى الأمور والقضايا المتعلقة بالحياة الدنيا ليقوم الإنسان المسلم بمهام الخلافة في الأرض على أفضل نموذج وأحسن سبيل.

ولكن الهوى الذي تموج به النفوس البشرية كان وراء الانحراف الحاد عند المسلمين، حيث ذهب رجال الهوى والشهوة الى تحرير الفتاوى الجائرة والدس في السنة النبوية الشريفة بما ينسجم مع أهواء أسيادهم لتثبيت دعائم الحكم والسلطان للذين لا يستحقونه، والذي منحت له الظروف أن يجتلي تاريخ المسلمين وكيف تعاملوا مع الاسلام. لا يفاجئ بما يفرزه الواقع الهابط من أمور تدل على الفساد العظيم الذي يستشري في جسد ابناء المجتمع؛ إذ نجد التخطيط الواضح والتناقض الصارخ بين الشعارات الاسلامية والوطنية المرفوعة من جهة وبين الممارسات الشاذة التي يمارسها ابناء المجتمع في شتى أمورهم الحياتية. وهذا التناقض الذي دفع أمير الشعراء أحمد شوقي ليستنكر هذا الوضع حيث يقول:

شعوبك في شرق البلاد وغربها	كأصحاب كهف في عميق مبات
بايمانهم نوران ذكر وسنة	فما بالهم في حالك الظلمات

في الوقت الذي حاول فيه دعاة الاصلاح الى توضيح هذا التناقض للناس وحثهم على الاعتماد على مصدري الحكمة التقليدية، الكتاب والسنة النبوية، ولملحح التناقض جانباً بين الاعتقاد والسلوك، ذهب المرجفون والذين في قلوبهم مرض الى إثارة الشكوك والأقاويل الباطلة حول الاسلام عن طريق التعريض لكتاب الله على أنه لا يناسب هذه المرحلة الحديثة من الحضارة الانسانية وأنه بحاجة الى تحديث ليناسب ظروف المرحلة الحالية، والشيء المذهل حقاً الذي يكشف مدى تخبطهم، وعدم وعيهم وحقدهم على الاسلام أنهم عدوا القرآن الحكيم والسنة النبوية الشريفة مثالا للتخلف والرجعية، وانهما يحولان دون التقدم الحضاري الحالي الذي تشهده الشعوب المعاصرة. فقد طالبوا علناً بالتخلي عن مصدر الحكمة

النقلية ليتسنى لهم ما ترنوا له النفوس وتطيب له خواطرهم.

وفي ظلال هذه البعاطيات الحاقدة ظهرت مجموعة من الكتاب لتقدم الاسلام الحديث والمعاصر بطريقة تنم على ضعف هؤلاء الكتاب في فهم حقيقة الاسلام من جهة وفهم حقيقة المجتمعات الحالية من جهة أخرى.

ان السبيل السليمة لعلاج ما نحن فيه من ضعف وفساد يكمن في ازالة التناقض بين ما ترفع من شعارات وما تمارس من انماط سلوكية، وذلك عن طريق الاعتماد الكلي على مصدري الحكمة، الكتاب الحكيم والسنة النبوية الطاهرة، وشحن الهمم في طلب العلم والمعرفة في شتى دروب المعرفة والقضايا الحياتية التي نعيش وبهذا العمل نكون قد سعدنا بنعيم الحكمتين، الحكمة النقلية، والحكمة المكتسبة.

### الحكمة والدعوة:

ان الدعوة الى النهج الاسلامي ليست بالأمر السهل اليسير الذي يستطيع القيام به كل انسان بغض النظر عن طاقاته وقدراته وحصيلته معارفه. فالدعوة لهذا النهج كانت مهمة اصفياء البشر الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليعلموا الناس الكتاب والحكمة، ويبشروهم وينذروهم لقاء اليوم الآخر وما سيكون فيه من ثواب وعقاب، كل حسب ما عملت يده في الحياة الدنيا. وبعد أن ختم الممدد الرسالي بخاتم الانبياء والرسل أصبحت هذه الدعوة مهمة أمناء الرسل، وهم الفقهاء المخلصون الذين أنابوا واستقاموا للنهج المنير، ولا يخشون في الحق لومة لائم لفهمهم الساطع السليم لحقيقة النهج الاسلامي وما يعكسه في نفوس اتباعه من أنماط سلوكية وفكرية متميزة، ملؤها الصدق، والأمانة، والاخلاص، والتضحية لمبادئ هذا النهج. فالذي يود أن يدعو للنهج الاسلامي لا بد له من الوقوف على جميع الحقائق العلمية التي ينطوي عليها والحكمة التي يفيض بها النهج ليغدو قادراً على فهم حقيقة هذا النهج الذي يغرس في اذهان اتباعه فهماً دقيقاً للحياة الدنيا وما تجسد فيها من مفاتن وشهوات، وحقيقة الآخرة وما ينتظر الانسان فيها من ثواب وعقاب، وطبيعة النفس الانسانية وخصائصها، ونظرة الانسان الى الحقيقة وكيف تعامل معها عبر تاريخه، ودور العقل الانساني في الوصول الى الحقيقة، ومعرفة الخلافات الجوهرية واسبابها بين النهج الاسلامي والنهج البشري المتمثل في المدارس الفكرية والمذهبية التي ابتدعها الانسان عبر تاريخه.

ان جميع هذه القضايا تشكل في نفس الداعية فهماً حقيقياً متميزاً تمكنه في اختيار أفضل وانجح الاساليب وطرق الحوار في دعوة أخيه الانسان الى الحق الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى للعالمين.

أما إذا كان هناك نقص عند الداعية في فهم طبيعة النهج الإلهي وخصائصه التي تميزه عن غيره من الأطر الفكرية فإن هذا النقص سوف يعكس نفسه في سلوك الداعية ومدى فهم البدعويين لطبيعة النهج وخصائصه مما يؤدي بالتالي الى سوء فهم النهج الاسلامي على حقيقته في اذهان الناس وظهور الانتقاسات الفكرية بينهم، وتتعدد بهم السبل، حيث يغدو كل حزب بما لديهم فرحون.

فالدعوة الى النهج الاسلامي تحتاج من الداعية ان يكون ملماً بشتى الامور والمعلومات، والعلوم التي تمكنه من ان يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وان يجادل بالتي هي احسن مصداقاً لقوله تعالى:

«ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ» (١)

«على هذه الاسس يرسي القرآن الكريم قواعد الدعوة ومبادئها، ويعين مسانئها وطرائقها، ويرسم المنهج للرسول الكريم، وللدعاة من بعده بدينه القويم، فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن. ان الدعوة، دعوة الى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه. فليس للداعي من دعوته الا أنه يؤدي واجبه لله، لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة، ولا على من يهتدون به، وأجره بعد ذلك على الله.

والدعوة بالحكمة، والنظر في احوال المخاطبين وظروفهم والقدرة الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها. فلا تستبد به: الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواء وبالموعظة الحسنة التي تدخل الى القلوب برفق، وتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الاخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية. فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ، وبالجدل بالتي هي احسن، باد

١ - سورة النحل، آية ١٢٥.

تحامل على المخالف ولا ترذيل له وتقييح حتى يطمئن الى الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل ولكن الاقتناع والوصول الى الحق، فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه الا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة، وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها عند الناس، فتعد التنازل عن الرأي تنازلاً عن هيبتها واحترامها وكيانها والجدل بالحسنى هو الذي يطمئن من هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة، وان الداعي لا يقصد الا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء اليها في سبيل الله، لا في سبيل ذاته ونصرة رأيه وهزيمة الرأي الآخر، ولكي يطمئن الداعية من حماسه واندفاعه يشير النص القرآني الى أن الله هو الاعلم بمن ضل عن سبيله وهو الاعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للحاجة في الجدل انما هو البيان والأمر بعد ذلك لله» (١)

ويرى العلامة الطباطبائي رحمه الله في هذا الموضوع «والتأمل في هذه المعاني يعطي أن المراد بالحكمة -والله أعلم- الحجة التي تنتج الحق الذي لا مرية فيه ولا وهن ولا ابهام، والموعظة هي البيان الذي تلين به النفس، ويرق له القلب لما فيه صلاح السامع من العبر، وجبيل الثناء ومحمود الأثر ونحو ذلك.

والجدال، هو الحجة التي تستعمل لقتل الخصم عما يصير عليه وينازع فيه من غير أن يريد به ظهور الحق.... فينطبق ما ذكره تعالى من الحكمة، والموعظة، والجدال، بالترتيب على ما أسطرحوا عليه في فن الميزان بالبرهان والخطابة والجدل غير أنه سبحانه قيد الموعظة بالحسنة، والجدال بالتي هي أحسن ففيه دلالة على أن من الموعظة ما ليست بحسنة ومن الجدل ما هو أحسن وما ليس بأحسن ولا حسن، والله تعالى يأمر من الموعظة بالموعظة الحسنة ومن الجدل بأحسن» (٢)

ومن المؤسف حقاً أن نجد كثيراً من الذين يدعون الى الله لا يتبعون هذا النهج الرسالي النبيل الذي يدعوهم الى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي احسن، فذهبوا الى الدعوة بطريقتهم الخاصة التي تعكس مقدار حماسهم تارة ومقدار أقحامهم العقل في أمور لا يقوى عليها العقل الانساني بحجة الواقع الذي نعيش وطبيعة الظروف والملابسات الفكرية والاجتماعية والسياسية التي يعيشون تحت وطأتها تارة أخرى. هذا بجانب عدم الإلمام التام بالنهج الاسلامي عند قسم

١- في ظلال القرآن، الجزء الرابع، صفحة ٢٣٠١ - ٢٣٠٢.

٢- الميزان في تفسير القرآن، المجلد الثاني عشر، صفحة ٢٧١ - ٢٧٢.

منهم مما جعلهم يتخبطون يميناً ويساراً تبعاً للظروف المحيطة بهم ومن الأفضل لنا جميعاً ان نترك مهمة الدعوة للذين أوتوا نصيباً من العلم والحكمة من الحق سبحانه ليكونوا خير الداعين إلى هذه السبيل، وهذا النهج الاسلامي المنير، ويكون همنا الوحيد في التفكير والتخطيط في كيفية الالتفاف حولهم ومناصرتهم على اعدائهم ليشقوا طريقهم في تثبيت دعائم العدل في الأرض عن طريق تطبيق مبادئ الاسلام بين الناس وبهذا التفكير الجاد والسلوك السليم يكون كل فرد منا قد تبوأ مكانه الطبيعي في مناصرة الحق واهله، والذود عن الاسلام والدفاع عن مبادئه حسب ما أتاح الله سبحانه وتعالى من قدرات وامكانيات، وهذه السبيل هي التي توصلنا إلى ما نرني إليه أفئدة المسلمين في فجاج الكرة الأرضية.

#### الخلاصة:

فالحكمة تعني اختيار القرارات وتبني الآراء واختيار الاساليب والطرق السلوكية في ضوء معرفة تامة أسست على علم ثابت لثتى الجوانب المتعلقة في الشيء الذي يود الانسان أن يختار فيه قراراً، أو يتبنى رأياً، أو يتخذ نهجاً سلوكياً، والانسان بحاجة ماسة إلى الحكمة في جميع القضايا الأساسية المتصلة في الدنيا والآخرة فهو يحتاج إلى كلا النوعين من الحكمة، الحكمة العقلية ومصدرها الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة، والحكمة المكتسبة ومصدرها أمهات الكتاب ودور المعرفة، والجهد البشري الحثيث في طلب المعرفة، وهناك علاقة تامة بين الحكمة والعلم حيث تبنى الحكمة على علم ثابت لا يشوبه نقص بأي حال من الأحوال. والذي يود أن يدعو إلى النهج الالهي لا بد له من أن يتمتع بقدر من الحكمة يستخدمها في دعوته للناس ويختار أفضل الاساليب والطرق المؤدية إلى تحقيق أهدافه.

## المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابو السعود العمادي، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- ٣- أبو القاسم الزمخشري، الكشاف، دار المعرفة، بيروت.
- ٤- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران، ١٩٧٢.
- ٥- حسن إبراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب، الرياض، ١٩٨٥.
- ٦- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، ١٩٨٠.
- ٧- عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الاسلام، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٤.
- ٨- فيصل بدير عون، الفلسفة الاسلامية في المشرق، مكتبة الحرية الحديثة، ١٩٨٢.
- ٩- ماجد عرسان الكيلاني، تطور مفهوم النظرية التربوية الاسلامية، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، ١٩٧٨.
- ١٠- محمد باقر الصدر، المدرسة القرآنية، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ١٩٨١.
- ١١- محمد حسين فضل الله، اسلوب الدعوة في القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٢- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٣- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

الفصل السادس

الإسلام والقومية



## الإسلام والقومية

تهدف هذه الدراسة الى توضيح العلاقة بين الاسلام والقومية ، لما لهذه العلاقة من اثار واسعة النطاق على مجريات الاحداث على المستويين العالمي والإقليمي حاضراً ومستقبلاً . وقد أشار الباحث الى حقيقة الاسلام ومبادئه الاساسية ، كما بين حقيقة القومية عن طريق عرض الاقتباسات التي تمثل اراء زعماء القومية على اختلاف قومياتهم . واخيراً وضع الباحث علاقة الاسلام بالقومية منذ عهد سيدنا نوح عليه السلام حتى يومنا هذا . وقد تبين ان شعار القومية يمثل أقدم شعار رفعه الانسان مقابل الهدى الذي وعد الحق سبحانه وتعالى به ذرية آدم . وما زال هذا الشعار يرفع لنفس الهدف والغاية .

## الإسلام والقومية

### المقدمة :

تعد العلاقة بين الإسلام والقومية من أهم المواضيع التي يجب إمالة اللثام عن حقيقتها، لما لهذه العلاقة من آثار واسعة النطاق على مجريات الأحداث في دول العالم بشكل عام ودول العالم الثالث بشكل خاص. وبالرغم من قدم هذه العلاقة، فإنها ما زالت غامضة في أذهان أغلب الناس، لذا استغلت أبشع أنواع الاستغلال من الذين لا يريدون إلا الشر والسوء للإنسان والإسلام. وقد تراكمت الأحداث التاريخية عبر التاريخ وازدادت حدة في هذه الأيام انعكاساً لما استقر في أذهان الناس من معلومات خاطئة حول نوع هذه العلاقة. وقد استغل المستشرقون هذه العلاقة بشتى الأساليب والطرائق عن طريق إذكاء الشعور القومي بين الأقوام التي تدين بالإسلام بهدف الوصول إلى ما تتوق له الأنفس الأجنبية الحاقدة على الإسلام أولاً وعلى الشعوب التي تدين بالإسلام ثانياً. ومن المؤسف حقاً أنهم قد حققوا الهدف الذي كان بالنسبة لهم بمثابة الأمنية التي يريدون أن ينظروا من خلالها إلى الإسلام وهو مشوه في أذهان المسلمين وإلى الأقوام التي تدين به وهم تبع لهم في مختلف مجالات الحياة. وهذا ما تحقق لهم بالكامل في القرن العشرين بعد إثارة النعرات القومية والطائفية بين الأقوام الذين كانوا يدينون بالإسلام في ظلال الخادقة العشوائية، حتى ذهب المسلم من هؤلاء الأقوام يحارب أخاه المسلم مخالفاً بذلك النصوص القرآنية الكريمة منشداً إلى نظرية العرق التي زرعها أعداء الإسلام والشعوب في نفوس المسلمين، بهدف القضاء على الإسلام واستغلال الشعوب التي تدين به. وهذا ما حصل فعلاً إذا ما تأملنا وعد بلفور ومعاهدة سايكس بيكو وما انعكس عنهما في أذهان الناس في هذه المنطقة من منطلقات فكرية. فكلهم يلعنهما كالأعداء ويحافظ على ما جاء فيها من إثارة نعرات إقليمية وعرقية فعلاً وسلوكاً، هذا بجانب الحفاظ التام على الحدود المصطنعة التي شيدت بناء على ما جاء في المعاهدتين السابقتين. وقد يجري بنا سياق الحديث لنرى في الجهة الأخرى ماذا حدث للمسلمين الأتراك بعد أن أشرنا باقتضاب إلى ما حدث لإخوانهم العرب المسلمين، بعد هزيمة دولة الخلافة في تركيا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، حين لم يكتف أعداء الإسلام والشعوب بتقسيم المنطقة العربية إلى مناطق نفوذ تابعة للإنجليز والفرنسيين، هذا بجانب إرساء

قواعد دولة إسرائيل على حساب الشعب العربي الفلسطيني المسلم، وإنما ذهبوا ليعضوا شروطهم التي تعكس عداوتهم للإسلام واللغة العربية، إذ أملى الإنجليز شروطهم الأربعة، المعروفة بشروط كروزون. وهذه الشروط هي:

١- أن تقطع تركيا صلتها بالإسلام

٢- أن تلغي الخلافة

٣- أن تتعهد بإخماد كل حركة يقوم بها أنصار الخلافة

٤- أن تختار تركيا لنفسها دستوراً مدنياً بدلاً من الدستور العثماني المستمد من أحكام الشريعة الإسلامية والقائم على قواعدها. (١)

لذلك اختارت تركيا الدستور المدني السويسري، واستخدمت الحروف اللاتينية بدلاً من الحروف العربية، ومنعت إقامة الأذان باللغة العربية، ومنع تعليم الدين والقرآن في المدارس، تنفيذاً لهذه الشروط. ولذلك ظهر الاتجاه القومي عند مختلف الأقوام التي تدين بالإسلام في قارتي آسيا وأفريقيا وظهرت انعكاسات الأفكار الغربية التي تحاول هدم الإسلام في شتى مناحي الحياة في تلك الدول التي وجدت نفسها تحت أقدام عدوها منهوكة القوى عسكرياً واقتصادياً وحضارياً بسبب الفكر القومي السام الذي نفثه الغرب في أذهان أبناء الأمة الواحدة، ليجد كل قوم منهم مصيره البائس أمام الهجمة الغربية الشرسة على كل ما يعتز به من حضارة وتاريخ وثقافة، وليجد أبناء كل قوم أنهم أصبحوا تبعاً لسادتهم في كل سمة من سمات العصر.

إن الشيء المذهل حقاً أن نجد بعض الأقدام الجاهلة أو المأجورة، والأفواه الحاقدة أو المعبأة دون علمها قد ذهبت جميعها لتنادي بإعدام الإسلام وتعاليمه وكل من يتخذ نهجاً متذرعين أن سبب تخلفهم في شتى مناحي الحياة يعود إلى هذا النهج الإلهي النبيل، فلم يكفهم أنهم كانوا أدوات في أيدي أعداء الأمة الإسلامية عندما استخدموا في إثارة النعرات القومية والإقليمية بهدف القضاء على الأمة الإسلامية، بل إنهم مصرون على هذه المكانة الوضيعة في خدمة أعداء الإسلام لهدم أركان الإسلام وكل من ينادي باتخاذ نهجاً حياتياً بعد أن نجحوا على أيدي سادتهم في تمزيق جسد الأمة المسلمة. فكلنا يعرف أن الإسلام الحقيقي هو المحارب فسي

١- د. عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، جمهورية مصر العربية، صفحة ١١٤.

شتى أجزاء المنطقة العربية والإسلامية بشكل لم يسبق له مثيل في تاريخ الحضارة الإنسانية.

إن التناقض الذي تعج به المجتمعات العربية والإسلامية يعود بشكل كبير إلى سوء الفهم للعلاقة التي تربط الإسلام بالقومية، سواء أكانت القومية عربية أم أعجمية. ولما لهذا الموضوع من آثار واسعة النطاق على حاضر الأمة الإسلامية ومستقبلها فإننا سوف نتناول هذا الموضوع بالبحث والدراسة الموضوعية للوصول بعون الله إلى حقيقة هذه العلاقة وما يترتب عليها من اعتقادات وممارسات. لذلك فإننا سنعرض في هذه الدراسة نبذة تاريخية موجزة عن الإسلام والتعريف به وسمات المجتمع المسلم، ونبذة تاريخية عن القومية وسمات المجتمع القومي، ونبذة تاريخية موجزة عن العلاقة بين الإسلام والقومية.

### حقيقة الإسلام

تجدر بنا الإشارة في هذه الدراسة إلى حقيقة الإسلام كما وضحتها الحق سبحانه وتعالى في كتابه المنير، علنا في هذا التوضيح نسهم بالقدر المستطاع في توضيح الفرق الشاسع بين الإسلام والقومية بشكل عام، والإسلام والعروبة بشكل خاص. وقد استبدل بالمفهوم الحقيقي للإسلام مفاهيم غريبة عن أسس الإسلام بهدف الوصول إلى ما تشرب له النفوس من ملذات وأطماع شهوية على حساب المفهوم الحقيقي للإسلام وتعاليمه المؤثرة المجيدة. وقد حاول جم غفير من الكتاب والمؤلفين والساسة والمفكرين الاستخفاف بعقول العامة في تمبيح المفاهيم الحقيقية للإسلام والاستبدال بها مفاهيم شاذة تناسب أهواءهم وأطماعهم الدنيوية بعد أن ألبسوها أزياء إسلامية مملوءة بالزيف والخداع. إنه لا بد من الإفصاح عن مدلول هذه الكلمة بكل السبل والطرق المتاحة بعد أن أصبح الإنسان الملتزم بما يملية عليه الإسلام من عقائد وأنواع سلوك، يشار إليه على أنه رجعي تارة، ومتطرف تارة أخرى، هذا بالإضافة إلى وصفه بالتخلف والتزمت، والتشدد، والتعصب وإذا ما حاول هذا الإنسان أن يدفع عن نفسه هذه التهم المفروضة بالحجة والبرهان مستنداً بذلك إلى ما جاء في الكتاب الحكيم، وجد نفسه أمام عدو أشر يمتلك القدرة على إلصاق شتى التهم والادعاءات الباطلة حوله، هذا بالإضافة إلى إنزال شتى أنواع العقوبات والتهديدات إذا ما رفض الاستقطاب نحوهم عن طريق شرائه بالأموال وإغوائه بالمراكز الوظيفية. تبدأ هذه المناورات غير الأخلاقية بالمطاردة والاستجواب

مروراً بتضييق سبل العيش عن طريق الطرد من الوظائف حتى تنتهي في بعض الأحيان إلى الإهانة في أقبية السجون وتقديم الأعناق إلى أعواد المشانق. والعجب الذي لا يربو عليه عجب أن كل هذه الأعمال المخزية التي تعجز الكلمات عن وصف وحشيتها وقبحها تحدث على مرأى ومسمع الناس كافة تحت شعارات القومية والإسلام. وبهذه الأعمال الفوغائية المتناقض بعضها مع بعض التي اباحت دم الأبرياء والمخلصين من أمة محمد، يكون أصحاب القرارات ومنفذوها قد برهنوا على صدق ولائهم لأعداء الإسلام، وعلى هذه الجرائم البشعة استحقوا الحماية الأجنبية لهم من شعوبهم المغلوبة على أمرها. ولكي يخفوا هذه الحقيقة - حقيقة ولائهم لأعداء أمتهم - ذهبوا إلى الحديث وإلقاء الخطب والأهازيج الوطنية التي تظهر وطنيتهم وحُبهم لأمتهم وعقائد مجتمعاتهم ليضلوا بها السواد الأعظم من الناس. وإن التاريخ الإسلامي يغص بالمعلومات الجمة الوفيرة عن علماء التوحيد وأبناء القرآن البررة الذين دفعهم إيمانهم إلى ركوب الأخطار عن طريق كشف العابثين المشومين لحقيقة الإسلام، وكان ثمن ذلك أن قدموا أعناقهم ضاحي للحق والدفاع عن بيضة الإسلام. وقد كتبت جميع فضائلهم وتم تحريرها إلى مثالب بهدف الاستخفاف بقول العامة والسيطرة عليها بالأوهام والمفتريات التي تحررها وسائل إعلامهم.

إن الحديث قد يطول إذا أردنا أن نصف الممارسات اليومية للأفراد والجماعات في المجتمعات التي تعج وتموج بالتناقضات حول الإسلام والقومية، ولكننا سوف نكتفي بهذا العرض الموجز السريع للوصول إلى المراد، دون الإسهاب والإطناب.

إن الإنسان شهد على نفسه بالحقيقة الأولى التي ينادي بها الإسلام قبل وجوده التاريخي والمادي على سطح الكرة الأرضية، إنه شهد بالوهمية الحق تبارك وتعالى وهو في السموات العلى، وهو في عالم الذر عندما أشهد الحق سبحانه وتعالى ذرية آدم على أنفسهم، فشهدوا له بالربوبية والألوهية.

قال تعالى:

«وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» (١)

١ - سورة الاعراف، آية ١٧٢.

وبعد أن تقرر إذن الهبوط لأدم وحواء وعدوهما إبليس إلى الأرض، وعد الحق سبحانه وتعالى بنى آدم أن يبعث لهم النهج السديد الذي يقودهم إلى سدرة الحق والصواب ويخفف عنهم شقاء الحياة الدنيا والفوز بنعيم الآخرة. إن الهبوط من السماء إلى الأرض يشكل العناء والتعب والكد والمكابدة، والشقاء للإنسان، ولكن الإنسان لم يذعن إلى توجيهات الحق سبحانه وتعالى عندما أمره أن يتخذ الشيطان عدواً وأن لا يقرب الشجرة التي أمره بالابتعاد عنها. فكانت مخالفته لأوامر الله سبحانه وتعالى السبب وراء هبوطه مع عدوه الأشر إبليس عليه لعنة الله ولعنة اللاحقين. فجاء هذا الوعد من الحق سبحانه وتعالى لأدم وذريته بمثابة العطف والرحمة الإلهية لهذا المخلوق الضعيف أمام عدوه إبليس ليتبع الهدى الذي سيرسله الحق سبحانه وتعالى للإنسان على سطح الكرة الأرضية ليقوي من قدرته على مقاومة وساوس وأحباب عدوه السرمدي الذي لا يفارقه قيد لحظة.

قال تعالى:

«قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ تَّبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (١)

إن هذا الهدى الذي يمثل النجاة الحقيقية للإنسان على هذا الكوكب ويخلصه من شرور عدوه ويقوده إلى الفوز بنعيم الدنيا والآخرة سيصل إلى الإنسان عن طريق الرسل الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليكونوا منذرين ومبشرين للإنسان.

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ يَتْلُوْنَ عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا فَتَمَنَّيْ أَتَقْبَلُ وَأُصْلَحُ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ \* وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٢)

إن الهدى الذي جاء به الأنبياء والرسل من عند ربهم للإنسان هو الإسلام الذي هتف ونادى به جميعهم دون استثناء ابتداءً بسيدنا نوح عليه السلام وانتهاءً بخاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم؛ لذلك جاء فصل الخطاب في قول الحق سبحانه وتعالى كدليل جازم على أن الدين عند الله الإسلام فقط ومن يتبع غيره ديناً

١ - سورة البقرة، آية ٣٨ - ٣٩.

٢ - سورة الاعراف، آية ٢٥ - ٢٦.

يعد من الخامسرين.

قال تعالى:

«إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ» (١)

وقال تعالى:

«وَمَنْ يَسْتَعِزْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (٢)

لذلك ليس غريباً أن نجد كلمة مسلم وأسلم ومسلمين قد نادى بها أو وصف بها أناس منذ سيدنا نوح عليه السلام، وليس كما يفهمه السواد الأعظم من الناس في هذه الأيام بأن كلمة مسلم بزغت إلى حيز الوجود في حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. وسوف نورد الأدلة القرآنية القاطعة التي توضح أن الأنبياء والمرسلين كان هدفهم الوحيد توصيل رسالة الإسلام إلى الناس ليبشروهم بالجنة إذا ما أنابوا واستقاموا لهذا النهج الإلهي المنير، وينذروهم من عقاب جهنم إذا ما صدقوا عن طريق الحق والنور المتجسدة في دين الحق وهو الإسلام.

### الدليل الأول:

ان سيدنا نوح عليه السلام أول من نادى وهتف باسم الإسلام، فقد بعثه الباري عز وجل إلى قومه يدعوهم إلى الإنابة والاستقامة وتفويض أمورهم لخالقهم تعالت وجلت قدرته، وقد مكث فيهم تسمانة وخمسين عاماً وهو يدعوهم إلى ان يسلموا للحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (٣)

وقال تعالى:

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ

١ - سورة آل عمران، آية ١٩.

٢ - سورة آل عمران، آية ٨٥.

٣ - سورة الاعراف، آية ٥٩.

وَشُرَكَائِكُمْ لَمْ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُون \* فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجَرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ» (١)

### الدليل الثاني:

أما بالنسبة إلى سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام فإنه كان حنيفاً مسلماً بالرغم مما دار حوله من خلاف بين الطوائف المتعددة. وكل من يسلم وجهه لله يكون قد اتبع ملة سيدنا إبراهيم عليه السلام.

قال تعالى:

«مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا» (٣)

### الدليل الثالث:

وإيماءة إلى سيدنا يعقوب عليه السلام فقد وصى أبناءه أن يعبدوا دين الآباء والأجداد المتبثل في دين الإسلام وأن يسلموا ويفوضوا أمورهم للحق سبحانه وتعالى.

«وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ\* أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَكَ مُسْلِمُونَ» (٤)

### الدليل الرابع:

حقيق بنا في هذا المقام أن ننوه بقصة سيدنا سليمان عليه السلام مع الملكة بلقيس، إذ تدور أحداث القصة حول طلب سيدنا سليمان من الملكة بلقيس وقومها أن يأتوا مسلمين، وكيف كان رفضهم لهذا الطلب في بادئ الأمر ثم كيف أعلنت الملكة

١ - سورة يونس، آية ٧١ - ٧٢.

٢ - سورة آل عمران، آية ٦٧.

٣ - سورة النساء، آية ١٢٥.

٤ - سورة البقرة، آية ١٢٢ - ١٢٣.



«قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَإِئِيَّ الْفُتْيَإِ إِلَى كِتَابٍ كَرِيمٍ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لَا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأُتُونِي مُسْلِمِينَ» (١)

«قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاُسْتُمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» (٢)

إنه حري بنا أن نعلم أن الباري عز وجل عندما أرسل المرسلين للإنزال العقوبة على قوم لوط المفسرين باستثناء المسلمين منهم، لم يجدوا سوى بيت واحد فقط من المسلمين، وهو بيت سيدنا لوط عليه السلام خلا امرأته التي كانت من الغابرين. وهذا دليل ساطع على أن سيدنا لوطاً كان مسلماً يدعو إلى الإسلام.

### الدليل السادس:

«رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ» (٤)

107

### الدليل السابع :

إنه لتحقيق بنا أن نذكر نداء سيدنا موسى عليه السلام لقومه وما حدث مع سحرة الطاغية فرعون عندما أعلنوا جهرًا إسلامهم متحدين بذلك فرعون وجنده. مما أثار حفيظة فرعون عندما شاهدهم بأم عينه وهم يعلنون إيمانهم برب موسى وهارون بعدما حصص الحق أمام أعينهم وتبين لهم أن السحر لا يغني عن الحق شيئًا. فقد توعدهم بجميع صنوف العذاب بسبب إسلامهم برب موسى وهارون، علماً بأنه كان يعدمهم منذ لحظات قليلة أن يكونوا من المقربين إذا كانت لهم الغلبة على سيدنا موسى عليه السلام. وما كان من السحرة في هذا الموقف الجازم إلا أن توجهوا للرحمن عز وجل ليثبتهم على إسلامهم وأن يتوفاهم مسلمين. أما نداء سيدنا موسى عليه السلام لقومه فيبدو جلياً في قول الحق سبحانه وتعالى:

«وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَقَلِّبْهُ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ» (١)

وأما بالنسبة إلى دعاء سحرة الطاغية فرعون فيظهر بجلاء في قوله عز من قائل:

«وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ» (٢)

### الدليل الثامن :

وحرى بنا أن نشير إلى حوار بين سيدنا عيسى عليه السلام عندما دعوا الحق سبحانه وتعالى أن يكون شاهداً على إسلامهم وقبولهم دعوة سيدنا عيسى عليه السلام ويبدو ذلك ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل في الآيتين الكريمتين التاليتين:

قال تعالى:

«وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الصَّوَارِيزِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٣)

وقال تعالى:

«فَلَمَّا أَهَسَّ عَيْسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الصَّوَارِيزُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (٤)

١ - سورة يونس، آية ٨٤.

٢ - سورة الاعراف، آية ١٢٦.

٣ - سورة المائدة، آية ١١١.

٤ - سورة آل عمران، آية ٥٢.

## الدليل التاسع:

تجدر الإشارة إلى أهل الكتاب واعترافهم بأنهم كانوا مسلمين وإقرارهم بذلك قبل نزول القرآن على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسماهم به. ويظهر ذلك بوضوح في قوله عز من قائل:

«الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا نَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ وَإِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ» (١)

كما أن القرآن الكريم قد أنار السبل لكل من أراد أن يصل إلى سدره الصواب في دعوة أهل الكتاب ومناقشتهم لإنارة الطريق أمامهم وتوضيح الحقائق لهم كما أشار الحق سبحانه وتعالى في كتابه المكنون بوجوب الإيمان بجميع الكتب السماوية وعدم التفريق بين الرسل والإقرار بأن الله واحد وأن الجميع له مسلمون. وتبدو هذه المعلومات المؤثلة ظاهرة جلية في قول الباري عز وجل في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَالْحَقُّ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِمْ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ» (٢)

قال تعالى:

«وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الصَّالِحِينَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ» بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ» (٤)

١- سورة القصص، آيه ٥٢ - ٥٣.

٢- سورة العنكبوت، آيه ٤٦ - ٤٧.

٣- سورة البقرة، آيه ١١١ - ١١٢.

٤- سورة البقرة، آيه ١٣٥ - ١٣٦.

## الدليل العاشر:

بعد أن أشرنا في الأدلة السابقة إلى الحلقات الإسلامية التاريخية التي كان يمثلها رسل الله ومن آمن بهم من أقوامهم عن طريق إسلامهم للحق سبحانه وتعالى، فلا مندوحة لنا من الإشارة إلى خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وسلم الذي بعثه الباري عز وجل ليكمل دين الإسلام الذي يمثل الهدى الذي وعد الحق سبحانه وتعالى به بني آدم عندما أمر بهبوط آدم وزوجه إلى الأرض. وقد أمر عليه الصلاة والسلام أن يعرض عن كل ما تشكل في أذهان الناس من انحراف في عقائدهم وكل ما يدعون إليه من دون الله سبحانه وتعالى، كما أمر أن يسلم وجهه فقط لرب العالمين دون مهادنة أو مواربة، أو التقاء في منتصف الطريق مع الذين لم ينبؤوا بعد للهدى الإلهي، ويبدو ذلك بوضوح في قول الحق سبحانه وتعالى:

«قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِي الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» (١)

في ضوء ما تقدم من أدلة وما رافقتها من آيات بينات يبدو بوضوح وجلاء أن جميع الأنبياء والمرسلين بعثهم الحق سبحانه وتعالى إلى الإنسان عبر تاريخه بالهدى الإسلامي الإلهي النير ليضيء له السبيل في الدنيا والآخرة ويقوي من ساعد الإنسان على مقاومة إبليس وجنده من الجن والإنس. وقد أراد الباري عز وجل أن يبدأ هذا النهج الإلهي النير بسيدنا نوح عليه السلام، مروراً بجميع الأنبياء والمرسلين حتى بعث للناس جميعاً خاتم الأنبياء والمرسلين بالقرآن الكريم في اللغة العربية، ليكون هذا القرآن وسنة الرسول الكريم الهدى الإلهي الكامل الشامل للناس جميعاً؛ لذلك فإن الإسلام بدأ بسيدنا نوح عليه السلام ومن آمن معه من قومه، وجميع الأنبياء والرسل ومن آمن معهم من أقوامهم فقد كانوا يمثلون الحلقات الإسلامية عبر تاريخ الإنسان، حتى أراد الحق سبحانه وتعالى أن يختم الهدى الرسالي بخاتم الأنبياء والمرسلين، وأن تكون الرسالة التي جاء بها للناس كافة وناسخة لكل ما قبلها من رسالات وكتب سماوية؛ لذلك فإن المسلم هو الذي يتبع القرآن الكريم وسنة الرسول الكريم بعد بعثته صلوات الله عليه.

وهناك حقيقة سامقة لا بد من الإشارة إليها لما استقر في أذهان الناس من معلومات ومدرجات خاطئة حول الإسلام، إن الإسلام إنابة واستقامة وتفويض

١ - سورة غافر، آية ٦٦.

الأمر للحق سبحانه وتعالى واتباع كتابه الحكيم وسنة نبيه الأمين في شتى مجالات الحياة، فهو سبيل الخير الذي يمكن أن يختاره الإنسان أو ينبو عنه بكامل إرادته؛ لذلك فإن الإسلام لا يورث عن طريق الأبوة والمصاهرة، والعشرة الزوجية، وأي نوع من أنواع القرابة. فقد يكون الأب مسلماً والابن غير ذلك، وقد يكون الابن مسلماً وأبوه غير ذلك، وكذلك بالنسبة إلى مختلف أنواع القرى. فالإسلام للناس كافة لمن أراد أن يعتد فيه ويسلك في ضوئه، فهو ليس حكراً لقوم دون قوم، أو جماعة دون جماعة. ودليلنا على ما ذكر يبدو ماطعاً منيراً في الآيات القرآنية الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١)

وقال تعالى:

«وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَهْكُمُ الْحَاكِمِينَ» قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِن أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ» (٣)

وقال تعالى:

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِن عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَكَانَتْهُمَا قَسَمٌ لِّغِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِلِينَ» (٤)

وقال تعالى:

«تَبَتَّ يَدَا أَبِي هَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جَهَنَّمَ حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ» (٥)

١ - سورة سبأ، آيه ٢٨.

٢ - سورة هود، آيه ٤٥ - ٤٦.

٣ - سورة التوبة، آيه ١١٤.

٤ - سورة التحريم، آيه ١٠.

٥ - سورة المسد .

بينت لنا الآيات السابقة بعض أنواع القربى لبعض الأنبياء والمرسلين الذين اختلطوا نهجاً غير الإسلام، فلم تنفعهم نوع القربى الدموية التي تربطهم برسل الحق سبحانه وتعالى لأن الإسلام ليس إراثاً لأحد لكي يوزع على ورثته من أصحاب القربى. كما أن الحق سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الحكيم أن الذين يتقاعسون عن تطبيق قواعد النهج الإسلامي واتباع تعليماته سيستبدل بهم أناسا آخرين يكونون أفضل منهم في تطبيقه كاملاً. ويبدو ذلك في قوله عز من قائل في الآيات الكريمة التالية:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْسَلْنَاكُمْ بِالْحَبَايِزِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَرْضِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلٌ إِلَّا يَنْفِرُوا يُعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (١)

وقال تعالى:

«هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلْ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ مِنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ» (٢)

وقد ذكر ابن كثير في تفسيره للآية السابقة عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما تلا هذه الآية:

«وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم» قالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إذا تولينا استبدل بنا ثم لا يكونوا أمثالنا؟ قال فضرب بيده على كتف سلمان الفارسي رضي الله عنه ثم قال: «هذا وقومه ولو كان الدين عند الثريا لتناولوه رجال من الفرس» (٣)

وفي ضوء ذلك نجد الفهم السديد للإسلام عند ابن الإسلام وفارسه، إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام عندما وصف الإسلام بالكلمات التالية: «الإسلام هو

١- سورة التوبة، آيه ٣٨ - ٣٩.

٢- سورة محمد، آيه ٣٨.

٣- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، صفحة ١٩٦، دار المعرفة، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٦.

التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل الصالح» (١)

وبعد كل ما ذكر كيف يعقل عاقل بأن الإسلام يورث من إنسان إلى آخر عن طريق مراكز إخراج شهادات الميلاد، أو من جيل إلى آخر دون الاعتقاد والتسليم للنهج الإلهي وانعكاس ذلك الاعتقاد والتسليم في شتى مناحي الحياة. إن السواد الأعظم من المسلمين ألفوا مع مرور الزمن وتداخل العادات والتقاليد المحلية والأجنبية، هذا بجانب الغزو الفلسفي السابق والغزو الثقافي الحالي، أموراً كثيرة في شتى المجالات، بعيدة كل البعد عن الإسلام وتعاليمه ولكنها من المؤسف جداً قد استقرت في أذهانهم على أنها تتفق مع الإسلام وتعليقاته، لذلك كانت الكتابة عن الإسلام وطبيعته، ودار الإسلام وخصائصها، والدولة الإسلامية وميزاتها، والمجتمع المسلم وسماته تعد من أصعب المهام التي يمكن أن يقوم بها الإنسان.

بعد أن فرغنا من الحديث عن حقيقة الإسلام وتاريخه لا بد لنا من الإشارة إلى سمات المجتمع المسلم في الوقت الذي اختلطت فيه الأوراق، وتاهت الأقدام عن جادة الطريق. واستقرت الأضداد في أذهان عامة الناس، وظهرت الأقدام المأجورة التي استغلت هذه المعطيات للنيل من الإسلام وأهله. إن هذه المعطيات الغريبة شكلت مفهوماً شاذاً في أذهان الناس عن الإسلام والمجتمع المسلم. لذلك ليس غريباً أن نجد بعض المجتمعات والأفراد تعلن ظاهراً أنها مع الإسلام وأتباعه، وهي في حقيقتها تشوه الإسلام وتحاربه وتضييق الخناق على أتباعه بالطرائق كافة التي توصل إليها البشر. ونصبت من نفسها شرطياً أميناً على خدمة مصالح أعداء الإسلام في ديار المسلمين.

وقبل أن نوضح خصائص المجتمع المسلم لا بد من الإشارة إلى بعض آراء السلف الصالح في هذا الموضوع لنصل إلى المراد بعون الله دون الإسهاب والإطناب.

يرى الطباطبائي رحمه الله: «أن التاريخ الإسلامي - فيما عدا فترة قصيرة منه - لا يمثل الإسلام في كثير من خطوطه .... ولا يصح أن نحمل الإسلام تبعات أخطاء المسلمين على امتداد التاريخ الإسلامي» (٢)

١ - نهج البلاغة، الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت، صفحة ٢٩.

٢ - الطباطبائي، نظرية السياسة والحكم في الإسلام، الدار الإسلامية، بيروت، ١٩٨٢، صفحة ٥٣.

ويرى سيد قطب رحمه الله: «أن الإسلام تصور مستقل للوجود والحياة، تصور كامل ذو خصائص متميزة، ومن ثم ينبثق منه منهج ذاتي مستقل للحياة كلها، بكل مقوماتها وارتباطاتها، ويقوم عليه نظام ذو خصائص معينة... هذا التصور يخالف مخالفة أساسية سائر التصورات الجاهلية قديماً وحديثاً. وقد يلتقي من هذه التصورات في جزئيات عرضية جانبية، ولكن الأصول التي تنبثق منها هذه الجزئيات مختلفة عن سائر ما عرضته البشرية من نظائرها.... وليست وظيفة الإسلام إذن أن يصطلح مع التصورات الجاهلية السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهلية القائمة في كل مكان... لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل... فالجاهلية هي الجاهلية، الجاهلية هي الإنحراف عن العبودية لله وحده وعن المنهج الإلهي في الحياة، واستتباط النظم والشرائع والقوانين والعادات والتقاليد والقيم والموازين من مصدر آخر غير المصدر الإلهي... فالجاهلية هي عبودية الناس للناس، بتشريع بعض الناس للناس ما لم يأذن به الله، كأنه ما كانت الصورة التي يتم بها هذا التشريع... والإسلام هو عبودية الناس لله وحده بتلقيهم منه وحده تصوراتهم وعقائدهم، وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم والتحرر من عبودية العبيد... لذلك فإن هناك نظاماً واحداً هو النظام الإسلامي وما عداه من النظم فهو جاهلية... وإن هناك شريعة الله وما عداها فهو هوى... وإن هناك حقاً واحداً لا يتعدد، وما عداه فهو ظلال... وإن هناك داراً واحدة هي دار الإسلام، تلك التي تقوم فيها الدولة المسلمة، فتهيمن عليها شريعة الله، وتقام فيها حدوده، ويتولى المسلمون فيها بعضهم بعضاً... فلا وطن للمسلم إلا الذي تقام فيه شريعة الله، فتقوم الروابط بينه وبين سكانه على أساس الارتباط في الله، ولا جنسية للمسلم إلا عقيدته التي تجعله عضواً في الأمة المسلمة في دار الإسلام، ولا قرابة للمسلم إلا تلك التي تنبثق من العقيدة في الله، فتصل الوشيعة بينه وبين أهله في الله... منذ جاء الإسلام لم يعد وطن المسلم هو الأرض، إنما عاد وطنه دار الإسلام، الدار التي تسيطر عليها عقيدته وتحكم فيها شريعة الله وحدها، الدار التي يأوي إليها ويدافع عنها ويستشهد لحمايتها ومد رقعته... والأرض التي لا يهيمن فيها الإسلام ولا تحكم فيها شريعته هي دار الحرب... يحاربها المسلم ولو كان فيها مولده وفيها قرابته، وأمواله ومنافعه. وكذلك حارب محمد صلى الله عليه وسلم - مكة - وهي مسقط رأسه وفيها عشيرته وأهله، وفيها داره ودور أصحابه وأموالهم التي تركوها. فلم تصبح دار إسلام له ولأمته إلا حين دانت للإسلام



ومطبقت فيها شريعته... إن الامة التي يكون من الرعييل الأول فيها ابو بكر العربي وبادل الحبشي، ولسلمان الفارسي، وصهيب الرومي وإخوانهم الكرام، والتي تتوالى أجيالها على هذا النسق الرائع... الجنسية فيها هي العقيدة، والوطن فيها هو دار الإسلام، والحاكم فيها هو الله، والدستور فيها هو القرآن... إنه لا إسلام في أرض لا يحكمها الإسلام ولا تقوم فيها شريعته، ولا دار إسلام إلا التي يهيمن عليها الإسلام بمنهجه وقانونه، وليس وراء الايمان إلا الكفر، وليس دون الإسلام إلا الجاهلية» (١)

ويرى أبو الأعلى المودودي عليه رحمة الله أن خصائص الدولة الإسلامية هي:

١- ليس لفرد أو أسرة أو طبقة أو حزب أو لساير القاطنين في الدولة نصيب من الحاكمية. فإن الحاكم الحقيقي هو الله، والسلطة الحقيقية مختصة بذاته تعالى وحده، والذين من دونه في هذه المعمورة إنما هم رعايا في سلطانه.

٢- ليس لأحد من دون الله شيء من أمر التشريع والمسلمون جميعاً ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً لا يستطيعون أن يشرعوا قانوناً ولا يقدر أن يغيروا شيئاً مما شرع الله لهم.

٣- إن الدولة الإسلامية لا يؤسس بنياها إلا على ذلك القانون المشرع الذي جاء به النبي من عند ربه مهما تغيرت الظروف والأحوال والحكومات التي بيدها زمام هذه الدولة، ولا تستحق طاعة الناس إلا من حيث إنها تحكم بما أنزل الله وتنفذ أمره تعالى في خلقه. (٢)

إن كل من سنحت له الظروف أن يطلع على كتاب الله العزيز وسنة نبيه الأمين، ومسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في مجتمعه الفاضل، لن يجد نصاً في تحديد معالم المجتمع المسلم الأساسية بالرغم من المتاهات والمدرجات الخاطئة التي دونت في الكتب والمجلدات، وما تعج وتموج به الأذهان الغافلة، وما تفتريه وسائل الإعلام والصحافة من مفتريات وتخريصات لتثبيت ما استقر في أذهان الناس من مفاهيم هابطة عن سمات المجتمع المسلم. فالمجتمع الذي يتبع نهج الحق المنير

١ - سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.

٢ - أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام السياسية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥، ص ٨.

مبجانه وتعالى في شتى أمور الحياتية لا بد أن يتميز عن بقية المجتمعات الأخرى، كيف لا؟ وهو ينعم باتباع مورد الحق والحقيقة الذي يضيء لأفراد المجتمع مختلف السبل والطرق المؤدية إلى الفوز والفلاح في الحياة الدنيا والآخرة. وبهذا يكون المجتمع المسلم قد حقق الأهداف التي تربطه بحياته الدنيا والأهداف التي تربط أفرادها كافة بمستقبلهم في الآخرة. وهذه الحالة لن تتوفر إلا لأبناء وأفراد المجتمع المسلم. لذلك فإن المجتمع الإسلامي يتميز على غيره من المجتمعات في الصفة المؤثرة التالية:

١ - تطبيق القانون الإلهي في شتى نواحي الحياة على جميع أفراد المجتمع دون استثناء لحاكم أو محكوم. ودليل ذلك يظهر بوضوح في الآيات القرآنية الكريمة التالية: قال تعالى:

«وَأَن أٰهَكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاهْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ مِّنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ...» (١)

وقال تعالى:

«إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَافِئِينَ حَصِيبًا» (٢)

وقال تعالى:

«فَلَا وَرَيْكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (٣)

وقال تعالى:

«... وَمَن تَمَّ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» (٤)

وقال تعالى:

«أَحْكُمَ الْجَاهِلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (٥)

٢ - المشول أمام القوانين والأنظمة بالتساوي لجميع أفراد المجتمع والحكم فيما بينهم على أساس العدل والمساواة في ضوء الكتاب الكريم والسنة النبوية

١ - سورة المائدة، آية ٤٩.

٢ - سورة النساء، آية ١٠٥.

٣ - سورة النساء، آية ٦٥.

٤ - سورة المائدة، آية ٤٤.

٥ - سورة المائدة، آية ٥٠.

الطاهرة. ودليل هذه السمة المجيدة المؤثرة يكمن في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا هَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْدِلُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» (١)

وقال تعالى:

«...وَأِنْ هَكَمْتَ فَاعْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ» (٢)

ويوضح لنا رسولنا الكريم عليه الصلوة والسلام هذه السمة السامية للمجتمع المسلم في قوله: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٣)

٢- المجتمع المسلم لا يعرف التجزئة طرقياً إليه سواء أكان المجتمع صغيراً أم كبيراً، ولا يعرف هذا المجتمع تعدد القيادات والولاءات، فهو مجتمع واحد، الولاء فيه للحق سبحانه وتعالى ورسوله والمؤمنين، ذو قيادة واحدة مطاعة ملأها تطبيق شريعة الله كاملة في المجتمع. إن الحق سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه الحكيم أن الذين يسلمون أمرهم لله سبحانه وتعالى ويفوضون أمورهم إليه، ويتبعون نهجه القويم الذي ارتضاه للناس كافة في شتى أمورهم الحياتية يكونون قد نالوا شرف الانضواء تحت راية حزيه تعالت وجلت قدرته دون غيرهم من الناس. فهذا التجمع لا يمكن أن ينقسم على نفسه وتتعدد ولائاته وقياداته. ودليلنا في ذلك يكمن في قول الحق سبحانه وتعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (٤)

١- سورة النساء، آية ٥٨.

٢- سورة المائدة، آية ٤٢.

٣- البخاري، كتاب الحدود أبواب رقم ١١، ١٢.

٤- سورة النساء، آية ٥٩.

قال تعالى: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ» (١)

قال تعالى: «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ» (٢)

لذلك فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه احتج على الأنصار في سقيفة بني ساعدة عندما قالوا منا أمير ومنكم أمير، فقال لا يجوز لها قرنان (أي أميران). حتى انتهى الأمر إلى اختيار قيادة واحدة.

٤- لا يوجد في المجتمع المسلم مكانة للتفوق العرقي والنفرات الإقليمية، فهوية الجميع، وجنسياتهم، وعقيدتهم، وشريعتهم فقط الإسلام. فالإسلام للناس كافة والذي يعتقد به يعلم يقيناً أن كل الناس يعودون نسباً لسيدنا آدم والمفاضلة بين ذريته تعود فقط إلى تقوى الله وليس بالنزوع إلى نظرية الاستعلاء والاستكبار المحرمة شرعاً والتي تغذيها النزعات القومية وما يدور في فلكها من توجهات إقليمية غرضية، شهوية. ودليل هذه الصفة المؤثثة المجيدة يبدو ظاهراً جلياً في قوله عز من قائل:

«يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...» (٣)

وقد بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حقيقة هذه السمة السامقة للمجتمع المسلم إذ ركز في حديثه وتوجيهاته في عدة مواقع ومناسبات على أهميتها بالنسبة لأفراد المجتمع المسلم. وسوف نورد بعضاً من هذه الأحاديث الشريفة كدليل قاطع على ما ذكرنا.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (٤)  
«أيها الناس، ألا إن ربكم واحد. لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمَر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى» (٥)

١- سورة الانبياء، آية ٩٢.

٢- سورة المؤمنون، آية ٥٢.

٣- سورة الحجرات، آية ١٣.

٤- مسلم وابن ماجه .

٥- البيهقي وابن مردويه .

«المسلمون إخوة لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى» (١)

هـ - إن شعار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعد من أسمى صفات المجتمع المسلم، وبهذه السمة المجيدة المؤهلة أمت الأمة المسلمة التي شكلها محمد صلى الله عليه وسلم في مدينته الفاضلة تتبوأ أعلى مرتبة بشرية بين الأمم. وقد وصفها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم حيث قال:

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...» (٢)

وقد وصف لنا الحق سبحانه وتعالى المؤمنين في عدة مواقع في كتابه العزيز بأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر نذكر منها قوله عز من قائل:

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (٣)

أما أقوال الرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الموضوع فسنذكر بعضاً منها لتوضيح المراد:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (٤)

«إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب منه» (٥)

٦- نظام الشورى يشكل الأسلوب الإداري في المجتمع المسلم في اتخاذ القرارات واتباع الوسائل والطرق المتعددة في القضايا الحياتية التي لا يوجد فيها نص قرآني كريم أو سنة نبوية شريفة. ودليلنا في ذلك يعود إلى قول الحق سبحانه وتعالى:

١- الطبراني.

٢- سورة آل عمران، آيه ١١٠.

٣- سورة التوبة، آيه ٧١.

٤- مسلم، كتاب الإيمان باب ٢٠.

٥- الترمذي (كتاب الغتن) باب ١٢، أبو داود (كتاب الملاحم) باب ١٧.

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١﴾

وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ  
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٢)

مرآی واحد» (۲)

بدر، وأحد، والأحزاب.

سبحانه و تعالیٰ :

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» (٤)

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ....» (٥)

- ۱ - سورة آل عمران، آیه ۱۵۹.

وقال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْبُحُورَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فإِنَّهُمْ مِنْكُمْ فَمَا لَهُمْ أَنْ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (١)

٨- يعد الجهاد في سبيل الله من أبرز صفات المجتمع المسلم لما لهذه الصفة من مكانة سامقة عند الله للذين يتخذونها طريقاً توصلهم إلى أسى وأقرب الدرجات عند الله سبحانه وتعالى. وبالرغم مما دار حول هذه الكلمة المقدسة من مهاريات ومفتريات من قبل أعداء الإسلام وأتباعهم، فيكفي المسلمين شرفاً أنهم عن طريق الجهاد بطرقه المتعددة يريدون أن يقدموا النهج الإلهي المنير إلى أبناء جنسهم ليكونوا لهم إخوة في الله يتساوون معهم في مختلف الحقوق والواجبات، ويفوزوا جميعاً بنعيم الدنيا والآخرة. ولكن ماذا نقول للذين لا يريدون إلا الحياة الدنيا، وجعلوها مبلغ علمهم ومركز اهتماماتهم. فسر الاختلاف بين المسلمين وغيرهم من البشر يعود إلى نظرة كل طرف إلى حقيقة الحياة الدنيا. ففي الوقت الذي ينظر فيه المسلمون إلى الحياة الدنيا على أنها مقدمة للحياة الخالدة، فإن غيرهم من الناس تنتهي آمالهم وطموحاتهم داخل إطار الحياة الدنيا. إن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا في كتابه العزيز أن الحياة الدنيا تعد دار ابتلاء وامتحان للإنسان. وفي ضوء سلوك الإنسان في الحياة الدنيا يترتب عليه مصيره في دار الخلود. لذلك فالجهاد في سبيل الله يعد من أقصر الطرق وأفضلها للوصول إلى الغاية النبيلة التي يتبناها كل ذي لب وجنان، وهي الفوز برضا الحق سبحانه وتعالى ودخول جنته التي أعدها للمتقين من عباده. لذلك فإن الحق سبحانه وتعالى فرض الجهاد على عباده المتقين ليأخذ بيدهم إلى أسرع وأفضل السبل في الوصول إلى الجنة. ودليل ذلك يبدو بوضوح وجلاء في قوله عز من قائل في الآيات التالية:

قال تعالى:

«كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ ضَرْبٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» (٢)

١- سورة المائدة، آية ٥١.

٢- سورة البقرة، آية ٢١٦.

وقال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (١)

وقال تعالى:

«انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا» (٣)

وقد خاض الحق سبحانه وتعالى الذين يتقاعسون عن تأدية واجبه الجهادي في سبيله بعدة أساليب لكي يدركوا أهمية هذه الفريضة وما تجلبه عليهم من سعادة ونعيم في الدنيا والآخرة.

قال تعالى:

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ» (٤)

قال تعالى:

«أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» (٥)

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» (٦)

١ - سورة التوبة، آية ١١١.

٢ - سورة التوبة، آية ٤١.

٣ - سورة النساء، آية ٧٤.

٤ - سورة آل عمران، آية ١٤٢.

٥ - سورة التوبة، آية ١٦.

٦ - سورة التوبة، آية ٣٨.



وقد أعطى الحق سبحانه وتعالى مكانة خاصة للذي يستشهد في سبيله دون غيره من الناس لما لهذه الفريضة من منزلة رفيعة عنده سبحانه وتعالى. ودليل ذلك يبدو في الآيات الكريمة التالية:

قال تعالى:

«وَلَا تَحْصِينَ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَصْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ\* فَرَحِيبٌ إِما أَنَّهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» (١)

قال تعالى:

«وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَصْياءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ» (٢)

وقد علمنا رسولنا الكريم محمد صلى الله عليه وسلم فريضة الجهاد وأهميتها فعلا وقولا. فعلا عن طريق الغزوات المتعددة التي قادها ضد أعداء الإسلام، وقولا عن طريق ما وصلنا عنه صلوات الله عليه من أحاديث نبوية طاهرة. وسوف نورد بعضاً من هذه الاحاديث النبوية الشريفة لنصل بعون الله الى المراد.

«سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله».. قيل: ثم ماذا؟ قال: «الجهاد في سبيل الله».. قيل ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور» (٣)

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي العمل أفضل؟ قال: «الإيمان بالله، والجهاد في سبيله» (٤)

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أي الناس أفضل؟ قال: «مؤمن يجاهد بنفسه وماله في سبيل الله».. قال: ثم من؟ قال: مؤمن في شعب من الشعوب يعبد الله ويدع الناس من شره» (٥)

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغسدة

١- سورة آل عمران، آية ١٦٩ - ١٧٠.

٢- سورة البقرة، آية ١٥٤.

٣- متفق عليه.

٤- متفق عليه.

٥- متفق عليه.

خير من الدنيا وما عليها» (١)

لذلك فإننا نجد ابن الإسلام وفارسه قد فهم حقيقة الجهاد من كتاب الله ومسيره معلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومارسه فعلاً في حياة رسول الله، وقد شهدت له الغزوات والمعارك أي نوع من الفرسان كان. فإذا ما تصفحنا التاريخ الإسلامي في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وجدناه أبرز فرسان غزوة بدر، وأحد، والخندق، وخيبر. لذلك ليس غريباً أن يصف لنا إمام المتين الجهاد في كلماته المعبرة الدقيقة حيث يقول: «أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه وهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة وجنته الوثيقة. فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء. وديث بالصغار والقماء، وضرب على قلبه بالاسداد، وأدبل الحق منه بتضييع الجهاد» (٢)

---

١ - متفق عليه.

٢ - نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبيد، دار العرفة، الجزء الأول، صفحة ٦٧ - ٦٨، بيروت.

## القومية

بعد أن فرغنا من الحديث عن تاريخ الإسلام وماهيته وخصائص المجتمع المسلم وميزاته، لا بد من الشروع في توضيح مفهوم القومية بشكل ساطع منير ليتسنى لنا توضيح معالم العلاقة بين الإسلام والقومية. ولقد رفع الإنسان شعار القومية عبر تاريخه البديد ومازال يشد هذا الشعار انتباه واهتمام الكثير من الناس بالرغم من عدم وجود مفهوم تام لهذا المصطلح وما يعكسه من آثار واسعة على معتقداتهم.

فكلمة قومية مشتقة من كلمة قوم التي يجوز الإشارة إليها بالتأنيث والتذكير سواء. والقوم تعني الرجال والنساء الذين ينحدرون من جد واحد. والقوم يميزهم عن غيرهم من الأقوام رابطة الدم، ومكان الإقامة، والعادات والتقاليد المتداولة فيما بينهم. وهذه الأمور جميعها هي التي تؤسس عليها أفكار القومية إذ تؤدي إلى إبراز الطابع الخاص لهؤلاء القوم دون غيرهم من الناس.

فالقومية كما هي معرفة في قاموس علم الاجتماع لهنري فيرثيلد: «هي جماعة من الناس تربطهم روابط واضحة من الثقافة المتجانسة. والقومية الصحيحة تستمد حيويتها من شعور أفرادها بوحدة نوعهم، ومن التشابه الأساسي بين تقاليدهم وطلابعهم. ومن مقومات القومية، تجانس الخصائص الثقافية إن لم تكن وحدتها الكاملة، وكذلك تجانس النظم الأساسية، كاللغة والدين، ووسائل الزينة، والقانون الخلقي، والنظام السياسي، ونمط الأسرة، والقيم والمثل، ويشعر الأفراد المنتمون لقومية ما برباطة التعاطف فيما بينهم شعوراً يختلف عما يحسون به نحو أفراد قومية أخرى، ويحسون بالرغبة في أن يعيشوا معيشة مشتركة» (١)

وبين لنا داعية القومية العربية في القرن العشرين ساطع الحصري في كتابه «ما هي القومية» أهم الأسس التي تبنى عليها لحمة القومية حيث يقول «إن أس الأساس في تكوين الأمة وبناء القومية هو: وحدة اللغة ووحدة التاريخ. لأن الوحدة في هذين الميدانين، هي التي تؤدي إلى وحدة المشاعر والمنازع، ووحدة الآلام والآمال، ووحدة الثقافة، وبكل ذلك، تجعل الناس يشعرون بأنهم أبناء أمة واحدة، متميزة عن الأمم الأخرى. ولكن لا الدين، ولا الدولة، ولا الحياة

١ - أبو الغنوخ رضوان، القومية العربية، الهيئة العامة للأجهزة والكتب العلمية، القاهرة، ١٩٦٨، ص ١٧٧.

#### الاقتصادية تدخل بين مقومات الأمة الأساسية» (١)

ويعرف ميشيل عفلق القومية قائلا «القومية للشعب كالاسم للشخص والملاحم للوجه، هي قدر قاهر يسير مجموعة من البشر في مجرى الحوادث والظروف بصورة فريدة، وينسج عليه غلافاً من الصفحات متميز الشكل. وكما أن من العبث أن يضيع المرء عمره في اللهف والأسف - لو ولدت في غير هذا البيت ووجدت على غير هذه الصورة - فإن من الجهد الضائع أيضاً أن يحاول الإنسان التحلل من رباط قوميته التي أحكمت شداها به أصابع القرون» (٢)

ويرى منيف الرزاز أن القومية هي: «شعور بحياة واحدة، ومصير واحد، ورسالة واحدة وعقلية واحدة» (٣)

بينما يرى الكاتب يوسف خليل في كتابه «القومية العربية ودور التربية في تحقيقها» أن القومية تعني «ضرب من العاطفة الاجتماعية، تقوم دعائنها على مشاركة أعضائها بعضهم بعضاً، في قيم معينة» (٤)

«المدلول الاصطلاحي للقومية تعني الانتساب إلى قوم معين أو نزعة تربط الفرد بقوم تتكون فيما بينهم روابط متجانسة ومتشابهة، وتوحد بينهم الأهداف، والمصير، والآمال، والتقاليد، والعادات» (٥)

واضح من التعريفات السابقة للقومية والتي اخترناها كنماذج متعددة حول القومية وأهدافها أن هناك غموضاً واضحاً في ماهية القومية والاسس المكونة لها، كما أن هناك قلة وضوح فيما تسعى إلى تحقيقه القومية. هذا بالإضافة إلى أن هناك خلافاً بين المؤرخين حول تاريخ نشوء القوميات. فمنهم من اعتقد أن القومية ظهرت إلى حيز الوجود في القرن الثاني عشر الميلادي، ومنهم من اعتقد أن القرن التاسع عشر للميلاد هو فترة بزوغ القومية في أوروبا. ولكن حقيقة تاريخ القومية يرجع إلى بداية تاريخ الإنسانية، وهذا الاعتقاد سوف نوضحه بالتفصيل عندما

١ - ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩، ص ٢٥١ - ٢٥٢.

٢ - ميشال عفلق، في سبيل البعث، ص ١١٤.

٣ - منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠، ص ٢٦٨.

٤ - يوسف خليل، القومية العربية ودور التربية في تحقيقها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٧.

٥ - حسين السيد عباس، القومية العربية بين الفكر والواقع، ١٩٧٣، ص ١٦.

نتحدث بعون الله عن علاقة القومية بالإسلام في الصفحات القادمة.

يلاحظ من التعريفات السابقة للقومية أنها تركز على الانتبئات العرقية والتي تجعل من الناس مجموعات متعددة تنطوي تحت شعارات قومية دون الالتفات الى المدارس الفكرية التي قد تجمع قسماً كبيراً من الناس من مختلف القوميات تحت إطار فكري واحد. لأن أهم المرتكزات الأساسية التي تبنى عليها القومية هي رابطة الدم أو نظرية العرق التي تربط جميع أبناء القوم الواحد. وهذه النظرية تكون فهماً أنانياً، واستعلائياً، واستكبارياً في أذهان أبناء القومية الواحدة. وهذا ما يؤدي بالتالي الى الصراعات الدموية والتي ينتج عنها القتل، والسلب، والطرود، والتعذيب، والاسترقاق، والعبودية، والاستغلال وإلى غيرها من الأمور التي عانت منها الإنسانية عبر وجودها التاريخي. لقد أفسدت العصبية العرقية البغيضة أفكار جهابذة الفكر والفلسفة اليونانية أفلاطون وأرسطو حين نادى كل واحد منهما بتفوق العنصر اليوناني على بقية الشعوب والأقوام الأخرى. «يقسم الجنس البشري من وجهة نظر اليونانيين الى ثلاثة انواع: النوع الاول، طبقة الأحرار وهؤلاء هم الجنس اليوناني، والنوع الثاني، الاجانب، وهؤلاء هم الاقوام الاخرى عدا الجنس اليوناني، والنوع الثالث، العبيد، فهم الذين أسترقوا من قبل اليونان في الحروب. ويقرر أفلاطون في كتابه «القوانين» أن النوع الثالث من البشر كتب عليهم الذل. وهذا الذل المكتسوب عليهم يقضي بحرمانهم من حق المواطنة وإجبارهم على الطاعة والخضوع للأحرار من ساداتهم أو من سادة الغرباء. ومن يتناول منهم على سيد غريب ملته الدولة اليه ليقص منه كما يريد» (١)

«أما أرسطو فإنه يرى أن هناك فصيلتين من الناس: الأولى فصيلة اليونان وهي مزودة بالعقل والإرادة وقد فطرت على التقويم الكامل وهي سيادة على سائر المخلوقات. أما الفصيلة الثانية فهي تمثل جميع البشر ما عدا العرق اليوناني، فلم تزود بالعقل والإرادة وإنما أعطيت قوة جسمانية. وقد فطرت على هذا التقويم الناقص ليكونوا عبيداً مسخرين للفصيلة الأولى اليونانية المختارة» (٢)

١ - ابراهيم دسوقي، تاريخ الفكر السياسي، صفحة ٤١.

٢ - حسن شحاته سعتان، الادب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي، ص ٧٨.

«.... يعتقد القومي، بأن أمته يجب أن تسيطر على الأمم الأخرى سيطرة كاملة، أو أن تكون لها بينها الكلمة العليا على الأقل، بل وإن لأمته أن تتخذ الخطوات الحاسمة الكفيلة بتحقيق ذلك» (١)

«ومما هو جدير بالذكر والملاحظة، أن جميع الآراء التي أبديت والأبحاث التي نشرت في «الفكرة القومية» وفي «مبدأ حقوق القوميات» خلال القرن التاسع عشر، كانت تنحصر في الشعوب الأوروبية وفروعها، ولم تشمل الشعوب الآسيوية والإفريقية. لأن جميع المفكرين الأوروبيين كانوا يزعمون أن تلك الشعوب ليست «متأخرة» فحسب، بل هي «محرومة من قابلية التقدم والتقدم» أيضاً. ولذلك فهي لا تستحق الحقوق التي تستحقها الشعوب الأوروبية. حتى الكتاب الذين كانوا التزاموا مبدأ «حقوق القوميات» أشد الالتزام، وتحسبوا له أشد التحمس، لم يخرجوا بآرائهم في ذلك خارج نطاق الأوروبيين، ولم يسلموا بمثل تلك الحقوق للشعوب الآسيوية والإفريقية» (٢)

وفي ضوء ما تقدم يبدو بوضوح وجلاء أن شعار القومية يعني سباقاً حراً لا يضبطه نظام بين سائر الأقوام بهدف الوصول إلى المرتبة الأولى أو المراتب المتقدمة بين الأقوام لاستغلال تلك المرتبة في إذلال الآخرين وسلبهم حقوقهم التي جسدت فيهم كمخلوقات بشرية. فهاذا يعني إذكاء روح الجرمانية في ألمانيا، والفارسية في إيران، والطورانية في تركيا، واليونانية في اليونان، والبارونية في لبنان، والعربية وغيرها من القوميات الأخرى سوى إثارة الفتن، والحروب الدامية، وزرع بذور الكراهية بين أبناء الجنس الواحد. إن أي نظرة فاحصة مخصصة لها حدث في تاريخ البشرية من مصائب وأحوال يرجع أغلبها إلى النظرة الاستكبارية التي مارسها قوم ضد آخرين من البشر. وإذا أمعنا النظر في أغلب الحروب التي وقعت في القرن العشرين نجد الأسباب الرئيسة وراء حدوثها يعود إلى الاستكبار والاستعلاء في نفوس قوم على قوم أو عدة أقوام آخرين. إن أهم المراكز التي تبنى عليها القومية هي رابطة الدم أو نظرية العرق التي تربط جميع أبناء القوم الواحد. ودليل ذلك يكمن في أنه لو توفرت عند فئة من الناس كافة المراكز

١ - بويد شيفر، القومية عرض وتحليل، ترجمة د. جعفر خصباك وعدنان الحميدي، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، بغداد - نيويورك - ١٩٦٦، ص ٦٥.

٢ - ساطع الحصري، ماهي القومية، ص ٢٦.

الأخرى للقومية من عادات، وتقاليده، ولغة، وتاريخ، وأهداف، إلى غيرها من المرتكزات دون استيفاء رابطة الدم، لن يسمح لها أن تنتمي الى قومية تشاركها في مختلف المرتكزات القومية ما عدا رابطة العرق. وهذا يدل بشكل قاطع على النظرة الاستعلائية والاستكبارية التي يكنها أبناء كل قوم لأبناء الأقوام الأخرى.

لقد تناسى دعاة القومية او جهلوا حقيقة أولى هي من أبرز سجايا النفس البشرية وهي حرية الاعتقاد، والتفكير، والاختيار بين السبيلين. لقد جسد خالق الإنسان حرية الاختيار في الذات الإنسانية بعد ان وهبها الملكة العقلية التي يستطيع الإنسان من خلالها أن يميز بين الخير والشر بعد أن وضحهما الحق سبحانه وتعالى للإنسان. لذلك فهي من المسلمات الأولى أن يعتقد الإنسان في ضوء ما اختار لنفسه من معتقدات وأفكار يود أن يعيش في ظلها في شتى أموره الحياتية. ومثالا على ذلك نأخذ الإنسان العربي فله الحرية في أن يختار إحدى السبيلين كما هو الحق لأبناء جنسه من البشر فالإنسان العربي قد يكون مسلماً إذا أناب واستقام للحق الذي أرسله الباري عز وجل هدى ورحمة للناس جميعاً وفوض أمره لخالقه، وسار في ضوء النهج الإسلامي في شتى أموره الحياتية. وقد يكون الفرد العربي شيوعياً عندما يؤمن بالفلسفة الشيوعية كنظام حياة ويمارسها في أموره الحياتية. والعربي قد يكون رأسمالياً عندما يعتقد بالفلسفة البراجماتية ويتخذها قاعدة لانطلاقاته الفكرية والسلوكية في شتى أمور الحياة. وللإنسان العربي الحق في أن يختار ما يريد من المعتقدات والأفكار سواء أكانت شرقية ام غربية، ماركسية ام ماوية، هندية ام إغريقية، ديوية أم لينينية. فجميع هذه المعتقدات والأفكار المتضادة والمتعاكسة حول مختلف القضايا الوجودية التي تهم الإنسان لا تسلب الإنسان العربي رابطة العرقية أو الدموية مع أبناء جنسه، لأنهم جميعاً ينتمون الى قوم واحد ورابطة دم واحدة مع اختلاف معتقداتهم، وأفكارهم، وأنماط سلوكهم، وأهدافهم. والسؤال الذي يبرز الى الذهن مباشرة. كيف يمكن لقومية عربية او غير عربية ان تحتوي على أفراد من العرب عرقاً ودماً، ويعتقدون بمختلف الأطر الفكرية والمدارس الفلسفية التي عرفها البشر، وما يترتب على هذه المعتقدات من انماط سلوكية متغايرة وأهداف دنيوية متعاكسة؟ كيف يمكن ان تجمع شتى المدارس الفلسفية وما ينتج عنها من معتقدات، وأهداف، وأنماط سلوكية مع النهج الإسلامي وما يعكسه من معتقدات، وأهداف، وأنماط سلوك عند معتنقيه؟ كيف يمكن ان يتم

الجمع بين طريق الخير، وطريق الشر في بوتقة واحدة؟ كيف يمكن ان يتم الجمع بين حزب الله وحزب الشيطان؟ كيف يمكن ان تجمع هذه الأضداد في مجتمع واحد وفي وقت واحد تحت مظلة دعوة عاملية جامحة شعارها نظرية العرق أو رابطة الدم؟ ان الذي يود ان يسعى الى جمع تلك الأضداد كالذي يود ان يجمع بين الليل والنهار في وقت واحد ومكان واحد. ان الجمع بين تلك الأضداد لن يكون إلا على حساب بعضها بعضاً. فالجمع بين جمع الخير وجمع الشر لن يكون إلا لمصلحة طرف على حساب الطرف الآخر. ان المجتمع الذي يؤسس بنيانه على الجمع بين التناقضات لن تكون له هوية ذاتية، ولن تكون له أهداف حياتية عامة مشتركة يسعى جميع أبناء المجتمع الى تحقيقها، ولن تكون له فلسفة تربوية، واجتماعية، واقتصادية واضحة. ان هذا النوع من المجتمعات لن يعرف التماسك، والاستقرار، والتقدم، والنمو المبرمج لأن ما فيه من تناقضات سوف تعكس ذاتها في جميع أوساط المجتمع وفي شتى أموره الحياتية. وهذا هو حال مجتمعات دول العالم الثالث.

وهناك فكرة مؤثرة تلوح في الأفق تدر على الإنسان الخيرات والفوائد الجمة في الحياة الدنيا والآخرة، وهذه الفكرة هي توسيع نطاق القومية الضيق الى إطار الانسانية الرحب، طالما نحن البشر جميعاً انحدرنا من نسل واحد وذرية واحدة، فأبونا آدم وأما جميعاً حواء. ونتحد جميعاً تحت راية واحدة، وشعار واحد، ومعتقدات واحدة ضد أعدائنا نحن البشر من الأجناس الوجودية الأخرى. لما لا يكون هذا التجمع الإنساني النبيل ضد عدو الإنسانية الأبدى إبليس ومن تبعه من جند؟ وفي هذه الحالة تسير الأمور بشكل منطقي معقول عندما يتعاقد أبناء جنس واحد ضد أعدائهم من الجنس الآخر. اننا نعلم علم اليقين أن العدو الأكبر لآدم وذريته على مر تاريخ البشرية هو إبليس وقبيله. ان العلم والمنطق يلزمان الإنسان ان يتكاتف مع أخيه الإنسان ويقف معه صفاً واحداً في وجه عدو الإنسانية. لماذا تغيب هذه الأفكار عن أذهان دعاة القومية، والإقليمية، والشعبية، والعنصرية، والفئوية، والحزبية؟ لماذا يقفون موقف العداء من الأفكار كافة التي تدعو الى وقوف الإنسان مع أخيه الإنسان ليشد أزره في مواجهة عدوه الأشر، لماذا يقفون ضد حب الإنسان لأخيه الإنسان وتعاطفه معه في مختلف الأمور والقضايا؟ لماذا يحاربون هذه الأفكار النبيلة عندما تطرح على الساحة؟ انها المصالح الذاتية، والشهوات الفردية، والنظرات الاستعلائية التي وشجت عليها نفوسهم فجعلتهم



ينظرون الى كل شيء من خلال تلك المصالح والشهوات الذاتية دون الالتفات الى ما يعاني الآخرون من صراعات، واسترقاق، وإذلال، وعبودية، وهضم حقوق وغيرها من الأمور التي يندى لها جبين البشرية أسفاً وندماً على تلك التصرفات العنصرية والاستعمارية التي يروج لها دعاة الاستغلال والاستكبار.

ان الانسان يعلم علم اليقين ان الحق سبحانه وتعالى بعث له الهدى عن طريق رسله رحمة وهدى للعالمين لينير للإنسان دربه ويوضح له طريق الخير ويحبه فيه ويدله على طريق الشر وينهاه عنه ليشد من ساعده في مقاومة عدوه الأشر ويحرره من أحابيله، وهمزاته، وتسويلاته. ومن المؤسف حقاً ان نجد أكثر الناس صدقوا عن العون الذي جاءهم من عند خالقهم سبحانه وتعالى واتبعوا عدوهم اللدود حتى غدوا من جنده العابثين في هيكل الإنسانية وطموحاتها. كل هذا الانحراف عن النهج الإسلامي قام به الإنسان وهو يتذرع بالحجج الواهية التي تنم على ضعفه ومزاجيته وهو يرفع الشعار تلو الآخر ضد النهج الإسلامي. وأول شعار رفعه الإنسان ضد الحق، وضد الأنبياء والرسل، وضد الخير هو شعار القومية. وهذا ما نريد أن نقوم بتفصيله بعون الله في الصفحات القادمة عندما نتحدث عن الإسلام وعلاقته بالقومية.

## الاسلام وعلاقته بالقومية

هناك عديد من الآراء المتضادة حول العلاقة بين القومية والاسلام نادى بها الكتاب والمؤلفون على اختلاف نهجهم الفكري، وقد ازدادت المؤلفات انتشارا في هذا القرن نظرا لكونه قرن القوميات لشعوب آسيا وإفريقيا كما يدعي كتاب القومية. ولعل من المفيد جدا أن نعرض آراء الكتاب حول هذا الموضوع من جوانبه المتعددة ثم نذهب الى توضيح المعالم الاساسية لهذا الموضوع الهام عن طريق عرض جذوره التاريخية، والحاضرة، والمستقبلية.

هناك آراء لفارس القومية العربية في القرن العشرين ساطع الحصري أردنا عرضها هنا لنرى معاً كيف ينظر للعلاقة بين الاسلام والقومية وهي: «إن فكرة القومية العربية صادفت في طريق سيرها وانتشارها عراقيل كثيرة، وعقبات خطيرة وقد تغلبت على الكثير منها منذ بداية القرن الحالي:

فإنها اخترقت أولا السد المنيع الذي تكون من امتزاج فكرة الجامعة العثمانية بمعنوية الخلافة الاسلامية. وهي على وشك الانتهاء من التغلب على العقبات التي تعترض طريقها باسم الرابطة الشرقية من ناحية، والرابطة الاسلامية من ناحية أخرى» (١).

«إن الأديان والمذاهب في البلاد الاوروبية، قد أثرت في سير الحركات القومية عن طريق تدخلها في صراع اللغات وتنافسها، كعامل «مساعدة» لبعضها، وعامل «عائق» لبعضها الآخر. ولكنها، لم تصبح قط، عاملا في تكوين القوميات» (٢).

«إن آراء المعارضين للفكرة القومية - بناء على حجج دينية - ظلت تسيطر على أذهان الكثيرين مدة طويلة، وبذلك أعاقت كثيراً نشوء الفكرة القومية في البلاد العربية» (٣).

«إن الديانة الاسلامية لعبت دورا هاما في تقدم القومية العربية وتوسعها، لأنها: أولا: كانت «القومية الدافعة» للفتوحات العربية، التي نشرت اللغة العربية،

١ - ساطع الحصري، اللغة والأدب وعلاقتهما بالقومية، ص ٢٢٩.

٢ - ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩، ص ١٩٨.

٣ - المصدر السابق ص ٢٠٠.

ووسعت نطاق القومية العربية. ثانيا: صارت «القومية الواقعية» التي أكسبت اللغة المذكورة نوعا من «المناعة» ضد عوامل التفرع والتفتت، وصانت بذلك القومية العربية من الانشطار في عهد انحطاطها الطويل، ولكن ذلك لا يعني: ان القومية العربية ظلت مرتبطة بالديانة الاسلامية لأنه: قد تكونت أمم اسلامية غير عربية من ناحية، وجماعات عربية غير مسلمة من ناحية أخرى» (١).

وقد استشهد ساطع الحصري بأحد الأبيات الشعرية ليوضح لنا بجلاء علاقة القومية بالاسلام:

سلام على كفرٍ يوحد بيننا وأهلاً وسهلاً بعدهُ بجَهَنَّمَ (٢)

وفي هذا الموضوع يقول إلياس مرقص «الاسلام أسهم في تكون قومية عربية في إطار جغرافي - تاريخي - معلوم ومحدود... كما ان الاسلام أسهم في تكون قوميات عديدة في آسيا وإفريقيا وأوروبا، يفوق تعداد أفرادها عدة مرات تعداد افراد القومية العربية... إذا فالاسلام لم يكن قومية عربية اسلامية واحدة... بل أكثر من ذلك» (٣).

يرى الدكتور عبدالله السامرائي في كتابه «الاسلام والقومية والاسلام والاممية» أن الرسالة الاسلامية عملت، على تهذيب الشعور القومي وتنقيته من الشوائب العنصرية والصعود بالاتجاه القبلي من بؤرة الصراع والتعصب الى آفاق الوحدة القومية الجامعة. كما عملت الرسالة الاسلامية على تحريك الولاء القومي والترابط بين أبناء الامة الواحدة من دائرته القومية الى الدائرة الانسانية على اعتبار ان الدائرتين تكمل احدهما الاخرى حيث ان الدائرة القومية ذاتها تقوم على وحدة الانسان ووحدة الامة. وان هذا الانسان واحد في القيمة عند سائر الأمم... ولما كان الاسلام الرسالة الخاتمة وهو للناس جميعا فإن كل شعب يؤمن بهذه الرسالة ويعمل بها يتحول الى أمة... فعندما يؤمن الفرس بالاسلام يجعل منهم أمة فارسية وعندما يؤمن الأتراك به يصير هذا الشعب أمة تركية وعندما يؤمن البنغاليون بالاسلام يصير -الامة البنغالية- وهكذا بالنسبة لكل شعب. ومن اجل تسمية هذه الامم تسميات دقيقة وربط هذه التسمية بالنظرية التي كانت وراء قيامها فتسمى تلك الأمم باسماء

١ - المصدر السابق ص ٢٤٩.

٢ - ساطع الحصري، اللغة والادب وعلاقتهما بالقومية، ص ٢٥٠.

٣ - الياس مرقص، القومية العربية والاسلام، ص ١٤١.

أقوامها ولغاتهم مضافا إليها اسم- الاسلامية- فتكون هناك أمة فارسية اسلامية وأمة تركية اسلامية وأمة بنغالية اسلامية وهكذا.... ونظراً لأن لغة الرسالة الخاتمة هي العربية ولغات هذه الشعوب غير العربية فإن ايمان هذه الشعوب بالاسلام يصيرهم أمماً ولكن لا يصيرهم قوميات.... لأن اللغة أهم عنصر من عناصر التكوين القومي. إن تفاعل الرسالة الخاتمة مع العرب حولهم الى أمة عربية اسلامية وإن هذا التفاعل حولهم الى قومية عربية.... ذلك لأن لغة القرآن هي العربية وإن اللغة أهم ركن من أركان التكوين القومي» (١)

واضح من المقتطفات السابقة مدى التناقض والتخبط تارة وعدم الوضوح تارة اخرى، وعلى الذي يود ان يرى المزيد حول عداء أبطال القومية للاسلام ان يطلع على مؤلفات الكاتب ساطع الحصري، والأمير مصطفى الشهابي، والدكتور محمد معروف الدواليبي. والذي يود أن يعي أهم الدوافع الكامنة وراء إذكاء روح القومية العربية ان يطلع على كتاب «اعمدة الحكمة السبعة» للمؤلف ت.أ. لورانس.

يقول شيخ جامع الازهر السيد محمد مصطفى المراغي: «غير خاف عليكم ان الدين لم يذهب الى العصبية الجنسية ولم يفرق بين العربي وغير العربي، وجعل الامة الاسلامية واحدة، لا فرق بين أجناسها» (٢)

ويبدو بوضوح رأي ابو الأعلى المودودي رحمه الله حول هذا الموضوع في كتابه «الامة الاسلامية وقضية القومية» حيث يقول: ان من يبحث عن معنى القومية وحقيقتها بحثاً سريعاً خاطئاً، لا يمكن ان يخفى عليه ان الاسلام والقومية يتعارضان معا من حيث روحاهما وهما، فالاسلام يخاطب الانسان ويتعامل معه من حيث كونه إنساناً، فهو يقدم للبشرية جمعاء نظاماً اجتماعياً للعدل والتقوى، يقوم على أساس عقائدي وأخلاقي، ويدعو جميع البشر الى هذا النظام، وهو يضم من يقبل هذا النظام الى دائرته ويتمتع بحقوق متساوية مع الجميع، ولا يكون هناك أي مجال لتفرقة او تمييز من أي نوع طبقياً كان أو جغرافياً، قومياً كان أو عرقياً، بين من يتبع عقيدة الاسلام، في مجال العبادات او مجال الاقتصاد او السياسة او الحقوق والواجبات او في مجال آخر من مجالات الحياة. فهدف الاسلام النهائي هو إقامة

١- عبد الله سلوم السامرائي، الاسلام والقومية الاسلام والاممية، بغداد، ١٩٨٥، ص ١٦٩-١٧٣.

٢- ساطع الحصري، ماهية القومية، ص ٢٠٤.

دولة عالمية تتحطم فيها جميع سلاسل التعصبات العرقية والقومية، ويقام فيها نظام مدني وسياسي ويشترك فيه البشر جميعا بحقوق وفرص للرفعي متساوية، ويحل التعاون الأخوي محل المواجهة العدائية حتى يقوم الناس بمساعدة بعضهم بعضا في تطورهم المادي والروحاني، ان نظام الأصول والمبادئ ونظم الحياة التي وضعها الاسلام للفلاح البشري، يمكن لها أن تجذب الناس عامة حين يخلون انفسهم من عصبية الجاهلية، وحين يطهرون انفسهم من التعلق بمثلهم القومية، وعاطفة التفاخر العرقي، والمحبة القائمة على علاقات الدم والتراب، ويصبحون على استعداد لادجاية على هذه الامثلة كبشر ليس إلا: ما هو الحق؟ أين يكمن العدل والإنصاف؟ ما هو طريق فلاح البشرية ورخائها من حيث المجموع لا من حيث كونها طبقة واحدة أو أمة واحدة أو بلد واحد؟ وعلى العكس من هذا فان القومية تفرق بين الانسان والانسان على أساس قوميته، فمعنى القومية هو ان يفضل القوميون في كل امة قوميتهم على جميع القوميات الاخرى، وأن يكون هذا القومي قوميا طالما عدوانيا لأن من مستلزمات القومية أن يفرق على الاقل بين القومي وغير القومي من الناحية الحضارية والسياسية والقانونية، فيحفظ لأهل أمة أكثر الامتيازات، كما يقوم بالحفاظ على المثل التاريخية والعصبية التي تقوم عليها قوميته، ويرعى ما بداخله من عواطف الفخر والتفاخر القومي، فهو لن يشرك معه أهل القوميات الاخرى في أي مجال من مجالات الحياة على أسس متساوية، ولأنه من الواجب ان تتمتع أمة بفوائد ومنافع أكثر من الأمم الاخرى فان قلبه يعمى عن العدل والانصاف، فهدفه النهائي هو إقامة الدولة القومية، بدلا من الدولة العالمية، ولو حدث واختار نظرية عالمية فان شكلها يكون بالضرورة شكلا استعماريا أو قيصريا لأن أهل القوميات الاخرى لا يمكن ان ينضموا الى دولته ويتمتعوا بالمساواة، بل يمكنهم ان ينضموا الى دولته كخدم فيها... يتضح بسهولة ان هذين المنهجين متعارضان متضادان، فحيث توجد القومية لا يمكن للإسلام أن ينمو، وحيث يوجد الاسلام، لا يكون هناك مكان للقومية، فمعنى نمو القومية هو ان يغلق الطريق أمام انتشار الاسلام، ومعنى نمو الاسلام هو اقتلاع جذور القومية من أساسها، والآن أصبح من الواضح ان الشخص الواحد الذي يدافع في وقت واحد عن نمو هذين المنهجين معا، إنما هو يعارض نفسه، فلا يمكن بأي شكل من الاشكال ان يركب شخص قارين لكل منهما اتجاه معاكس في آن واحد. ان من يدعي تبعيته لمنهج، ومع هذا يدافع عن منهج آخر يخالفه تماما، يعبر عن اضطرابه الذهني، ونرى أنفسنا مضطرين ان نقول لمن

يقوم بهذا، انه لا يفهم الاسلام، او انه لا يفهم القومية، او انه يجهل الاثنين معا» (١).

بعد أن عرضنا الآراء السابقة وما تحمل في طياتها من أفكار متضاربة حول العلاقة بين الاسلام والقومية، فلا مندوحة لنا من الرجوع الى الجذور التاريخية للاسلام والقومية ونرى كيف كانت العلاقة بينهما عبر التاريخ لنصل في النهاية الى حقيقة العلاقة بين الاسلام والقومية ونوعيتها.

بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز أنه خلق آدم وزوجه حواء في عالم الغيب، وطلب من الملائكة ان تسجد لآدم عليه السلام فسجدوا جميعا إلا إبليس أبى واستكبر، وكانت حجته الواهية انه خلق من مادة ومعدن أفضل من الماده التي خلق منها آدم، إذ انه خلق من نار وآدم عليه السلام خلق من طين. وقد خلق الحق سبحانه وتعالى آدم من طين ونفخ فيه من روحه جلت وتعالى قدرته، وخلق من نفس آدم وزوجه حواء وقال لهما اسكنا الجنة ولا تقريا تلك الشجرة وإياكم وعدوكم إبليس أن يخرجكما من الجنة كيداً وعدوانا منه لآدم وزوجته. غير أن إبليس استطاع ان يغوي آدم وحواء ويكون سببا في إخراجهما من الجنة. فقد أمر الحق سبحانه وتعالى بهبوط آدم وحواء وعدوهما إبليس الى عالم الشهادة (عالم الحس) بعضهم لبعض عدو. وقد وعد الحق سبحانه وتعالى رحمة وتلطفا منه ذرية آدم أن يبعث لهم هدى ينير لهم سبل الخير والرشد ويقوي من قدرة الانسان ويشد ساعده في مقاومة عدوه اللدود إبليس. كما بين الحق سبحانه وتعالى ان هذا الهدى بعثه سبحانه وتعالى ليخرج الناس من الظلمات الى النور. وأن من يؤمن بهذا النور سيكون له الفوز العظيم، والذي يصدف عنه يكون له الهلاك والخسران البين. كما بين الحق سبحانه وتعالى ان هذا الهدى سيأتي الى بني آدم عن طريق رسل منهم يقصون عليهم آيات الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى:

«يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ انْتَقَى وَأَصْلَحْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (٢)

١- ابو الاعلى المودودي، الامة الاسلامية وقضية القومية، دار الانصار، القاهرة، ١٩٨١، ص١٥٢-١٥٥.

٢- سورة الاعراف آية ٣٥ - ٣٦.

وقد بين لنا الباربي سبحانه وتعالى مهمة هؤلاء الرسل بأنهم مبشرون للذين آمنوا بهذا الهدى الإلهي المنير ومنذرين للذين ابتعدوا عن النهج الإلهي وأنكروا المصير الذي سوف يلاقيه كل طرف في اليوم الآخر. وهذا جميعه يقفل الطريق أمام الناس في اليوم الآخر من التذرع بالحجج الواهية يوم الوقوف أمام الحق سبحانه وتعالى.

قال تعالى  
«رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا» (١)

وقد شاءت حكمته سبحانه وتعالى ان يبعث كل رسول الى قومه بلسانهم وعلى ارضهم التي يعيشون عليها ليتطوع على الانسان التبجح والتذرع بحجج واهنة. فاذا ما ارادوا ان يتذرعوا برابطة الدم ونظرية العرق فالرسول يكون منهم، واذا ارادوا ان يحتجوا على عامل اللغة، فالرسول جاء بلغتهم، واذا ارادوا ان يرفعوا ضد الرسول شعار الارض والوطن، فالرسول جاءهم على ارضهم وفي وسط منازلهم.

قال تعالى:  
«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ فَفَوِّجِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» (٢)

ولقد واجه رسل الحق عليهم السلام جميعا من اقوامهم اشد انواع الأذى، والسخرية، والاستهزاء، والتكذيب، والطرد، والعداء، والقتال. وهذا ما منوشحه من خلال عرض بعض النماذج لما حصل مع بعض رسل الحق سبحانه وتعالى.

ان اول رسول بعث الى قومه ليقودهم الى سبيل الخير والرشاد هو سيدنا نوح عليه السلام لحاجة قومه الهاسة لمن يبين لهم طريق الخير والصلاح بعد ان دب بينهم الفساد. وقد جاء ذكر سيدنا نوح عليه السلام في القرآن الكريم في سورة الاعراف، وسورة يونس، وسورة هود، وسورة «المؤمنون»، وسورة الشعراء، وسورة نوح.

«كان الناس بعد آدم عليه السلام يعيشون أمة واحدة على بساطة ومذاجة، وهم على الفطرة الانسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل الى استعلاء البعض على البعض تدريجيا واتخاذ بعضهم بعضا أربابا، وهذه هي النواة الاصلية التي لو نشأت

١ - سورة النساء آية ١٦٥.

٢ - سورة ابراهيم آية ٤.

واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف، واسترقاق العزيز واستدراجه للذليل، وحدث المشاجرات والمنازعات بين الناس. فشاع في زمن سيدنا نوح عليه السلام الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي، وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمى الله سبحانه وتعالى منها وداً وسواعاً ويغوثاً ويعوقاً ونسراً. وتباعدت الطبقات، فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء، والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهووا أنفسهم. فبعث الله سبحانه وتعالى نوحاً عليه السلام وأرسله اليهم بالكتاب والشرعة يدعوهم الى توحيد الله وخلع الأنداد والمساواة بينهم» (١)

إن الحق سبحانه وتعالى بين لنا في كتابه الحكيم بعثة سيدنا نوح الى قومه حيث قال سبحانه وتعالى:

«إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢)

واضح من الآية الحكيمه السابقة ان الحق سبحانه وتعالى بعث بسيدنا نوح الى قومه لينذرهم قبل ان يقع عليهم العذاب وان يعودوا الى رشدهم ولا يناهضوا فطرتهم بانسياقهم وراء شهواتهم. وسوف نعرض الايات القرآنية الحكيمه التي تدل على الرسالة التي نقلها سيدنا نوح الى قومه، لنعرف بالتحديد الى أي شيء كان يدعوهم سيدنا نوح عليه السلام.

قال تعالى:

«قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ \* أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَانْفِقُوا وَأَطِيعُوا أَمْرًا \* يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٣).

قال تعالى:

«لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» (٤)

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد العاشر ص ٢٤٨.

٢ - سورة نوح آية ١.

٣ - سورة نوح آية ٢-٤.

٤ - سورة الاعراف آية ٥٩.



قال تعالى:

«وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۚ إِنَّ لَّ تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ» (١).

إن سيدنا نوح عليه السلام كما هو واضح جلي في الآيات السابقة كان يدعو قومه إلى العودة إلى دين التوحيد والفطرة بعد أن انتشر الفساد بينهم وأخذت عبادة الاصنام شأنها بينهم. انه ينذرهم بالعذاب في إطار المحبة لهم والخوف عليهم منه أن لم يغيروا من حالهم. انه يهدف إلى أن يقودهم إلى طريق الحق والإيمان بالله سبحانه وتعالى خالق البشرية وجامعها إلى يوم الدين. وسوف نعرف بالتحديد موقف قوم نوح من سيدنا نوح عليه السلام من خلال عرض الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٢)

قال تعالى:

«فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا تَنْشُرَا مَثَلَنَا وَمَا نَرَاكَ إِلَّا تَنْفَعُكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادْنَا بِأَدْيٍ الرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ» (٣).

قال تعالى:

«قَالُوا لَيْنَ لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ» (٤)

قال تعالى:

«قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٥)

قال تعالى:

«قَالُوا أَنْتُمْ مِّنْ لَّكَ وَاتَّبَعْتَ الْأَرْدَلُونَ» (٦)

١ - سورة هود آية ٢٥-٢٦.

٢ - سورة الاعراف آية ٦٠.

٣ - سورة هود آية ٢٧.

٤ - سورة الشعراء آية ١١٦.

٥ - سورة هود آية ٣٢.

٦ - سورة الشعراء آية ١١١.

قال تعالى:

«وَمَكْرُوا مَكْرًا كَبِيرًا» وقالوا لا تَدْرُونَ أَلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُونَ وَدًّا وَلَا سَوَاءً وَلَا يَفْقَهُونَ وَيَعْقُونَ وَنَسُوا» (١).

في الوقت الذي كانت فيه نفس سيدنا نوح عليه السلام تتوق إلى إخراج قومه من الظلمات إلى النور عن طريق توجيههم إلى بارئهم والابتعاد بهم عن الأصنام الصماء التي اتخذوها آلهة لهم إذ خاطبهم بكل رفق وفصاحة موضحا لهم جميع المداخل التي تقودهم إلى الايمان ذهبوا إلى توجيه التهم لشخص سيدنا نوح عليه السلام وإلى من اتبعه من قومه وهددوا سيدنا نوح عليه السلام بالرجم إن لم ينته عن دعوته لهم بترك الأصنام ويتجهوا إلى الله سبحانه وتعالى. وقد مكروا مكراً شديداً وتواصوا على التمسك بأصنامهم كونها من آثار الآباء والأجداد، إن الخلاف بين سيدنا نوح عليه السلام من جهة وبين قومه من جهة أخرى يدور حول قضية التوحيد التي فطر عليها الناس جميعاً. والشيء الغريب أن قوم نوح قد رفعوا في وجه سيدنا نوح وهم يكذبونه، ويجادلونه، ويهددونه شعار آثار الآباء والأجداد المتجسدة في الأصنام التي كانوا يعبدونها في الوقت الذي كانوا فيه يسخرون من سيدنا نوح ومن اتبعه بالرغم من أن نوح عليه السلام والذين اتبعوه من نفس القوم، وكانوا يتحدثون نفس اللغة، ويقطنون المكان نفسه. فماذا تعني البراءة من هؤلاء الذين يعيشون بين ظهرانيهم ولا يريدون لقومهم إلا كل خير وكل ما يؤدي إليه وفي نفس الوقت يتواصون فيما بينهم بالالتزام التام بالآلهة التي ورثوها عن الآباء والأجداد. وهل كان سيدنا آدم وزوجه عليهما السلام على دين التوحيد أم على دين آلهتهم وأصنامهم. فهم لا يريدون دين الآباء والأجداد، ولو كانوا يريدونه لاتبعوا دين التوحيد الذي عاشه سيدنا آدم وحواء. وفي نفس الوقت لا يريدون أن يتبعوا الحق الذي صرح به سيدنا نوح بلغتهم وعلى أرضهم وكان في نفس الوقت واحداً منهم. فهذا الدليل الأول على رفع شعار القومية المتمثل فيما ورثوه عن الآباء والأجداد فقط للوصول إلى شهواتهم وأغراضهم الذاتية في وجه الحق وأتباعه.

وقال تعالى:

«بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ»  
«وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ» قَالَ أُولَٰئِكَ نَفْسُكُمْ

١ - سورة نوح آية ٢٢ - ٢٣.

يَأْهَدِيْكُمْ مِّمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ تِبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» (١).

واضح من الآيات السابقة أن هذا الشعار قد رفعه الكافرون بالحق الذي بعثه الله سبحانه وتعالى ضد رسل الحق الذين بعثهم الله سبحانه وتعالى بالهدى والنور رحمة للعالمين. وفي كل مرة يتذرعون بالفساد وعبودية الأصنام التي ورثوها عن آبائهم الذين يمثلون القسم المنحرف من الناس عن دين الفطرة. وبعد أن استنفذ سيدنا نوح عليه السلام جميع وسائل الحوار مع قومه ولم يؤمن له إلا من آمن من قبل فقد جاءهم الله سبحانه وتعالى بالطوفان ليهلك به الكافرين وينجي الحق سبحانه وتعالى سيدنا نوح ومن معه بالفلك الذي كان يصنعه سيدنا نوح أمام أعين الكافرين وهم يسخرون منه، وهو يقول لهم مستعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم.

إن الوشائج القومية التي تجمع سيدنا نوح عليه السلام مع قومه يجب أن تعكس ذاتها في نفوس القوم وفي جميع أنماطهم السلوكية نحو رسول القوم الذي هو منهم وجاءهم بلفتهم وعلى أرضهم يدعهم إلى سبيل الخير والرشد. يجب أن يكون هذا الرسول مصدر إعجاب واعتزاز عند القوم الذين يفخرون بأجدادهم وآبائهم حقاً. ولكن محاربتهم للفكر الذي يدعو إليه سيدنا نوح جعلهم يسخرون من سيدنا نوح ومن معه ويكذبونه ويهددونه بالرجم إن لم ينته عن دعوتهم إلى دين التوحيد والفطرة، وكأنهم لا تربطهم صلة قريى بنوح ومن معه. وقد وصلت درجة العناد لهذا الفكر الذي يدعو إليه سيدنا نوح ذروتها عندما انسلخ عن سيدنا نوح ابنه وزوجته ورضيا أن يكونا مع الكافرين المغرقين بالطوفان.

وهكذا انتهى الجمع الفاسد المناهض للفطرة عن الوجود البادي بهلاكهم بالطوفان، وبقي الجمع المؤمن وعلى رأسه سيدنا نوح عليه السلام. وبعد مرور السنين دب الفساد بين الناس فبعث الحق سبحانه وتعالى بسيدنا هود إلى قومه عاد يدعهم إلى الابتعاد عن الفساد ودروبه والتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى. وسوف نورد الآيات التي توضح لنا دعوة سيدنا هود إلى قومه لنرى إلى أي شيء كان يدعهم سيدنا هود وبماذا كانوا يواجهونه.

قال تعالى:

«وَإِلَى عادِ أَضَافُهمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ» قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ

١ - سورة الزخرف آية ٢٢-٢٤.

وَأَنَا لَطَمْتُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ\* قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ\* أُتِلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ» (١).

قال تعالى:

«وإلى عادِ إلههم هودُ قال يا قوم اعبدوا اللهَ ما لكم مِن إلهٍ غيرِه إن أنتم إلا مُفْتَرُونَ\* يا قوم لا أسألكم عليه أجرًا إني أَخَوِي إِلَّا عَلَى الَّذِي قَطَرْتَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ\* ويا قوم اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيَّ يُرْسِلِ السَّمَاءُ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ\* قالوا يا هودُ ما جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ\* إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوِّ قَالَ إني أَشْهَدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» (٢)

تدل الآيات السابقة بوضوح على أن سيدنا هود كان يدعو قومه الى عبادة الله وحده وخلق الأنداد بالابتعاد عن الأصنام التي عادوا اليها بعدما دب الفساد بينهم ثانية، بالرغم من أن الأصنام وعبيدها قد انتهى أمرهم بالطوفان الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى على قوم نوح. ولكن الفساد الذي دب ثانية بين الناس جعلهم يتوجهون نحو عبادة الأصنام من دون الله سبحانه وتعالى. لذلك خالطهم سيدنا هود عليه السلام أن يستغفروا ربهم ويعودوا الى عبادته وانه الناصح الامين لهم في هذه الدعوى. فما كان جواب قومه إلا أن هاجموه بشدة واتهموه بالضلالة، والسفه، والكذب، والجنون. والشيء البذهل والعجيب أنهم سخروا منه ومن الشيء الذي يدعوهم اليه وهو عبادة الله، فقالوا كيف نعبد الله وحده ونذر جانباً ما كان يعبد الآباء والأجداد إن الآباء والأجداد بالنسبة لهم هم في الأصل سيدنا نوح ومن كان معه من الجمع المؤمن الذين نجاهم الله سبحانه وتعالى من الطوفان ولكن عندما دب الفساد بينهم بعث الله سبحانه وتعالى لهم سيدنا هود ليقودهم الى طريق الخير والرشاد. ولكنهم احتجوا عليه بآلهة الفاسدين من آبائهم وأجدادهم. وهكذا رفع شعار الآباء والأجداد ثانية بوجه سيدنا هود عليه السلام لمقاومة الحق الذي يدعو إليه.

قال تعالى:

«قالوا أَهْنَأْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَوَعَدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَاتِّبِعْنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» (٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن قوم عاد كانوا من العرب الذين سكنوا الجزيرة العربية.

١ - سورة الاعراف، آية، ٦٥ - ٦٨.

٢ - سورة هود آية ٥٠ - ٥٤.

٣ - سورة الاعراف آية ٧٠.

وقد بعث الله سبحانه وتعالى بسيدنا صالح عليه السلام الى قومه ليدعوهم الى عبادة الله والابتعاد عن الاصنام التي اتخذوها آلهة لهم من دون الله. وقد جاءهم بالناقة التي طلبوا من سيدنا صالح أن يخرجها لهم من الصخرة المقدسة عندهم ليؤمنوا له بما يدعوه اليه، إذ كانوا يعظمون تلك الصخرة ويذبحون عندها القرابين في رأس كل سنة، فأخرجها الله لهم كما طلبوا، ناقة عشراء تخرج لهم من الصخرة المقدسة عندهم فكذبوا سيدنا صالحا عليه السلام وعقروا الناقة واستحقوا على ذلك غضب الله سبحانه وتعالى فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثين جزاء تكذيبهم لرسولهم وعقر الناقة التي أمروا أن لا يمسهوا بسوء.

قال تعالى:

«وإلى ثمود أحاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروهُ ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» (١).

وقال تعالى:

«وإلى ثمود أحاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيرهُ قد جاءكم بينة من ربكم هذِهِ ناقةُ اللَّهِ لكم آيةٌ فذروها تأكل في أرضِ اللَّهِ ولا تمسوها بسوءٍ فيأخذكم عَذَابُ يَوْمٍ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَسْجُدُونَ مِن سَهْوِهَا فَمُصِّرُوا وَتَنجِتُونَ الصَّالِحِينَ فَادْكُرُوا لَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ» قال الملأ الذين استكبروا من قومهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَن آمَنَ مِنْهُمْ اتَّعَلُّونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ» قال الذين استكبروا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ» فَقَعَرُوا الْنَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ اسْمِنَا بَمَا تَعِدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ» فَأَخَذْنَاهُمُ الرِّجْفَةَ فَأَمْبَصُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِينَ» فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَتَصَدَّقْتُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ» (٢).

ومن العجيب جداً أن أساليب أقوام الرسل وشعاراتهم هي متشابهة بصورة كبيرة. فالذين كفروا برسالة سيدنا صالح وطلعنوا في صدقه، ذهبوا ليعلموا تمسكهم بعبادة - ما كان يعبد الآباء والأجداد -، بالتحديد كما فعل من قبلهم من الأقوام.

١ - سورة هود آية ٦١.

٢ - سورة الاعراف آية ٧٢ - ٧٩.

قال تعالى:

«تَاللَّهِ إِنِّي لَأَبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ» (١).

وهذا يدل بوضوح على أنهم كانوا فقط ينتمون إلى الكفار والفاستين من آبائهم وأجدادهم الذين انحرفوا عن الفطرة الإنسانية التي فطر الله سبحانه وتعالى الناس عليها. لذلك فإنهم لا يعترفون بدين آدم، ونوح، وهود عليهم السلام ولا الذين اتبعوهم من أقوامهم، كما لا يعترفون بهم أنهم من الآباء والأجداد.

وقد بعث الله سبحانه وتعالى بسيدنا إبراهيم إلى قومه ليدعوهم إلى عبادة الله سبحانه وتعالى ويتخلوا عن عبادة الأوثان التي اتخذوها من دون الله، وقد بين لهم بشتى الطرق والوسائل عدم جدوى عبادة الأوثان وفي كل مرة لا يجد من قومه إلا العناد والابتعاد عن الحق والتمسك بأوثان الآباء والأجداد.

قال تعالى:

«وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ \* قَالُوا نَعْبُدُ أَسْنَامًا فَمَا يَسْطُرُ لَهَا وَفِي هِيَ عَافِيينَ \* قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَ إِذْ تَدْعُونَ \* أَوْ يَنبَغُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ \* قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«وإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ \* إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَثُونًا وَتَضَلُّونَ إِن كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ \* إِن دُونَ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ \* وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (٣).

وقال تعالى:

«وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ \* إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَافِيُونَ \* قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَافِيِينَ \* قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (٤).

١ - سورة هود آية ٦٢.

٢ - سورة الشعراء آية ٦٩ - ٧٤.

٣ - سورة العنكبوت آية ١٦ - ١٨.

٤ - سورة الانبياء آية ٥١ - ٥٤.

واضح من الآيات السابقة حرص سيدنا إبراهيم على هداية قومه وما كان يرجوه منهم وهو التوجه الى خالقهم سبحانه وتعالى وخلع الأنذاد التي أشركوها مع الله سبحانه وتعالى. وما كان من قومه إلا ان تمسكوا بأصنام الآباء والاجداد كما يعلنون وتكاتفوا على قتل سيدنا إبراهيم أو حرقه في النار. وقد نجاه الله سبحانه وتعالى من كيدهم.

قال تعالى:

«فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (١).

واضح من سلوك الأقوام الأربعة السابقة مع رسل الحق عليهم السلام ان هناك تشابها كبيرا في شعاراتهم ومواقفهم اتجاه الحق. ففي كل مرة يظهر لرسولهم الذي جاء لإنقاذهم من الفساد الذي استشرى بينهم، العناد، والتكذيب، وإلقاء التهم، والعزم على قتله أو طرده هو ومن اتبعه من القوم، وفي الوقت نفسه يرفعون شعار القومية المتمثل بعبادة الأوثان والأصنام التي كان يقدها آباؤهم وأجدادهم. وبين لنا القرآن الكريم تلك المواقف والشعارات التي كان يرفعها كل قوم في وجه رسل الحق في الآيات القرآنية الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَامِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ \* قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنَّمَا آتَيْنَاكُمْ بِالْحَقِّ فَاتُّبِعُوا وَالْأَرْضُ يُدْعَوُكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا مِمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثَبْنَا عَلَى سُلْطَانٍ مَجِيدٍ» (٢)

قال تعالى:

«وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ يَرْسُلَ مِنْ قَبْلِكَ فَطَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ» (٣).

١ - سورة العنكبوت آية ٢٤.

٢ - سورة ابراهيم، آية ٩ - ١٠.

٣ - سورة الانعام، آية ١٠ - ١١.

قال تعالى:

«كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ \* اتَّوَاصُوا بِهَ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَافُونَ \* فَنُتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٌ» (١).

وعلى هذا النهج العقيم الذي ينم على جهل الأقوام بقيمة رسل الحق سبحانه وتعالى وما جاءوا به هداية لهم، ذهبوا لمقاومة رسل الله بشتى الطرق والوسائل التي عرفها البشر بالرغم من وضوح دعوتهم وثبوت مصداقيتهم، وقد كانت حجة كل قوم أنهم لا يريدون أن يبتعدوا عن دين الآباء والاجداد المتمثل بعبادة الأصنام والاعتقاد بالأوهام التي تناسب أهواءهم وأمزجتهم. إن جميع المكائد والشُرور المستطيرة كان يخططها كل قوم ضد رسولهم بالرغم من المعجزات التي كان يجريها الحق سبحانه وتعالى على أيدي رسله لتكون أدلة ساطعة مشرقة على صدق دعواهم، هذا بجانب العدد الهائل من الطلبات التي كان يشترطها كل قوم على رسولهم لكي يؤمنوا له. ومن المؤسف حقاً أنه كلما تم تلبية هذه الطلبات ازداد القوم نفوراً وبعداً عن رسولهم الكريم ونهجه القويم الذي يدعو إليه. وكلما حصص الحق أمام أعينهم ازداد القوم غيظاً على رسولهم وأخذوا يقذفونه بالتهمة الباطلة المغرضة، ويخططون إلى ملرده من بينهم أو قتله. إن القرآن الكريم يفيض بهذه القصص المفجعة التي كان يقوم بها الإنسان عبر تاريخه ضد أصفياء البشر الذين اختارهم الحق سبحانه وتعالى ليكونوا المبشرين والمنذرين للإنسان لكي يفوز بنعيم الدنيا والآخرة وقد شاعت حكمته سبحانه وتعالى أن ختم المدد الرسالي بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حيث بعثه بالاسلام الى الناس كافة بالرغم من أن القرآن نزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم في اللغة العربية وأنه عليه الصلاة والسلام ينحدر من أصل عربي.

قال تعالى:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ صَمِيْعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأَمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» (٢).

وعندما بعثه الحق سبحانه وتعالى في مكة كان العرب حينئذ يعيشون في عهد الجاهلية. وقد كان أسلافهم الأقدمون ومنهم عاد وثمود على دين الوثنية، وهذا ما

١ - سورة الذاريات، آية ٥٢-٥٤.

٢ - سورة الاعراف آية، ١٥٨.



أخبرنا به الحق في كتابه المنير عن قوم هود وصالح وعن أهل سبأ في قصة سليمان والهدد حتى جاء سيدنا إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة وكانت تسكنها قبيلة جرهم. وبنى سيدنا إبراهيم عليه السلام الكعبة البيت الحرام. ثم تهود بعض الأعراب لمعاشرة كانت بينهم وبين اليهود النازلين بالحجاز وتسربت النصرانية إلى بعض أقطار الجزيرة، والمجوسية إلى بعضها الآخر. وكان مما يقربهم إلى الوثنية أن الكعبة المشرفة كان يعظمها اليهود والنصارى والمجوس والوثنية جميعاً، فكان لا يأتي مكة زائر إلا حمل معه شيئاً من حجارة الحرم تبركاً وتيمناً. وكان من الأصنام المعروفة بينهم هبل، وإساف، ونائلة وهي التي أتى بها عمرو بن لحي من بلاد الشام، واللات والعزى، ومناة، وود، وسواع، ويغوث، ويعوق ونسر. وقد كانت عقائدهم وعاداتهم الوثنية تنبثق من عدة مصادر، وهي وثنية الصابئة والديانة البرهمية، والدين الحنيف وهو اسلام سيدنا إبراهيم، هذا بجانب أمور اختلقوها من عند أنفسهم كالقول بالسانية، والوصيلة، والبحيرة، والأنصاب، والأزلام، إلى غيرها من الأمور.

«لم يكن العرب يجحدون الله ولكن كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه: أحد، صمد. فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره، ولا يعبدونه حق عبادته. كانوا يشركون به هذه الأصنام التي يرمزون بها إلى أسلافهم من الصالحين أو العظماء. أو يرمزون بها إلى الملائكة. وكانوا يزعمون أن الملائكة بنات الله،... ولقد حكى القرآن عنهم أنهم كانوا يعترفون بخلق الله للسموات والأرض، وتسخيره للشمس والقمر، وإنزاله الماء من المزن.... ولكنهم مع إيمانهم بالله كان الشرك يفسد عليهم تصورهم كما كان يفسد عليهم تقاليدهم وشعائرهم، فيجعلون للآلهة المدعاة نصيباً في زرعهم وابعادهم ونصيباً في أولادهم.... وكانوا يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وأنهم أهدى من أهل الكتاب، الذين كانوا يعيشون معهم بالجزيرة العربية، لأن اليهود كانوا يقولون: عزيز ابن الله، والنصارى يقولون: عيسى ابن الله. بينما هم كانوا يعبدون الملائكة والجن على اعتبار قرابتهم من الله بزعمهم، فكانوا يعدون أنفسهم أهدى. لأن نسبة الملائكة إلى الله ونسبة الجن كذلك أقرب من نسبة عزيز وعيسى.... وكله شرك. وليس في الشرك خيار. ولكنهم هم كانوا يحسون أنفسهم أهدى وأقوم طريقاً» (١).

١ - سيد قطب، في ظلال القرآن، الجزء السادس صفحة ٣٩٩٠-٣٩٩١.

ولقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه المكنون جميع ما نود أن نعرفه عن بعثة المصطفى صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بالرسالة وأهدافها. وجميع ذلك يبدو واضحاً في الآيات الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«تَنْزِيلُ يَوْمِ الرَّوْحِ الْأَمِينِ\* عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ\* بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» (١)

وقال تعالى:

«وَعَذْلِكَ أَوْفَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْحَشَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ» (٢)

وقال تعالى:

«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ\* قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» (٣)

وقال تعالى:

«إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (٤)

وبالرغم من نبل الرسالة وطهارة حاملها وما كان صلوات الله عليه يتمتع به من مكانة عالية في أعين قومه حيث كان موضع ثقتهم ومكان أماناتهم، وعاش مليحة الفترة السابقة من عمره وهو الملقب بالأمين بينهم فإنهم كذبوه أشد تكذيب وقاوموه أشد مقاومة بشتى الطرق والوسائل التي كانت معروفة لديهم بعد أن فشلوا في احتوائه صلوات الله عليه عن طريق تقديم العروض البادية والمعنوية ليكف عن دعوتهم إلى دين الحق وطريق الخير والتقوى ويتبع دين الوثنية والأصنام (دين الآباء والأجداد). وعندما فشلوا في احتوائه إذ وقف صلوات الله عليه كالطود الشامخ أمام قريش وصلفها يدعو الناس إلى دين الحق والتوحيد بلسان عربي مبين، ذهبوا إلى الانتقال للمرحلة الثانية من مقاومته حين عرضوا عليه صلوات الله وسلامه عليه الالتقاء في منتصف الطريق. وهذا يعني أن يتنازل كل طرف عن حق من حقوقه أو عن جزء مما عنده للطرف الآخر، وبهذا لا بد لكل طرف من أن يتنازل عن جزء من دينه ويقبل مكانه جزءاً من دين الطرف الآخر.

١- سورة الشعراء آية ١٩٣-١٩٥

٢- سورة الشورى آية ٧

٣- سورة الزمر آية ٢٧-٢٨

٤- سورة الزخرف آية ٣

«في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن الأثير في المصاحف عن سعيد بن ميناء مولى أبي البخري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاصي بن وائل والأسود بن المطلب وأمّية بن خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد مانعبد ولنشترك نحن وأنت في أمرنا كله فإن كان الذي نحن عليه أصح من الذي أنت عليه كنت قد أخذت منه حظاً وإن كان الذي أنت عليه أصح من الذي نحن عليه كنا قد أخذنا منه حظاً فأنزل الله

«قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ» - (١)

وعندما فشلت العرب في الالتقاء بمنتصف الطريق مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعد ما نزلت سورة «الكافرون»، ذهبت قريش إلى إيذاء النبي صلوات الله عليه شخصياً ومن تبعه من القوم أشد الإيذاء، ومكروا به وابتاعه كل مكر وهو صاحب الخلق العظيم كما وصفه الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز. ويكفي أن نتذكر موقفه من أهل الطائف عندما طلب منه جبريل عليه السلام أن يطلب ما يريد انتقاماً لما فعله أهل الطائف بالنبي الكريم عندما ذهب اليهم قبل الهجرة ليدعوهم إلى دين التوحيد. فما كان منه صلوات الله عليه إلا أن قال لعل الله يبعث من أصابهم من يؤمن بهذا الدين، وكل هذا الخلق الرفيع الذي كان يتمتع به المصطفى صلوات الله عليه لم يبعد عنه وعن أتباعه شرور قريش ومكائد القوم. فقد خططوا لقتله بعد أن فشلوا في تشييته. ومن شدة المعاناة والعذاب الذي يتعرض له من يؤمن به من القوم سمح رسول الله صلى الله عليه وسلم لقسم كبير من أتباعه بالهجرة إلى بلاد الحبشة. وقد لاحقتهم قريش حتى في أرض الحبشة، هذا بالإضافة إلى توجيه التهم إلى الرسول الأمين التي تنم على حقد القوم وعداوتهم القاسية، فقد اتهموه بالجنون والشعوذة، والسحر، والكهانة وجميعهم يعلم أن هذه التهم والمفتريات اختلقتها نفوسهم الحاقدة على ما جاء به سيد البشر من هدى ونور للناس كافة. وقد كان الحق سبحانه وتعالى يتولى الرد على ترهات القوم وتخريصاتهم حول شخص الرسول الكريم، والآيات القرآنية العربية الحكيمة توضح لنا ذلك:

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، المجلد العشرين، ص ٢٧٥.

قال تعالى:

«فَلَا تُقْسِمُ بِالْخُنُفِ \* الْجَوَارِ الْكُنُفِ \* وَاللَّيْلِ إِذَا عَسَفَ \* وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ \* إِنَّهُ كَقَوْلِ رَسُولٍ كَرِيمٍ \* ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ \* مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ \* وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ \* وَقَدْ زَاوَاهُ بِالْأَفْئِ الْمُبِينِ \* وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ \* وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ \* فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ \* إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ» (١)

وقال تعالى:

«فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ \* أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ \* قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْزِلِينَ \* أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَهْلُكُمُ بِهَذَا \* أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ \* أَمْ يَقُولُونَ نَقُولُ بَلْ لَا يُؤْمِنُونَ \* فَلْيَأْنُوا بِحَدِيثِ هَيْهَاتِهِ \* إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ» (٢)

وقال تعالى:

«وَيَقُولُونَ أَنَا نُنَارِكُوا أَلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ \* بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ» (٣)

وقال تعالى:

«وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ» (٤)

وقال تعالى:

«أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ» (٥)

وقال تعالى:

«أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَكَثُرَتْهُمْ لِحَقٌّ كَارِهُونَ» (٦)

وقال تعالى:

«ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ \* مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ \* وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ \* وَإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ» (٧)

١ - سورة الكوثر، آيه ١٥ - ٢٧.

٢ - سورة الطور، آيه ٢٩ - ٣٤.

٣ - سورة الصافات، آيه ٣٦ - ٣٧.

٤ - سورة يس، آيه ٦٩.

٥ - سورة الاعراف، آيه ١٨٤.

٦ - سورة المؤمنون، آيه ٧٠.

٧ - سورة القلم، آيه ١ - ٤.

هذه نماذج من الآيات التي كانت ترد على مكر القوم وكيدهم لشخص الرسول صلى الله عليه وسلم لينكروا الحق الذي جاء به من عند الله هداية لهم بلسانهم العربي وعن طريق رجل منهم ينتمي إلى أفضل نسب في قريش. وهجومهم على شخص الرسول لم يمنعهم من الهجوم على القرآن العربي الحكيم إذ إنهم تواصلوا على ألا يسمعوا له وأن يستخدموا القصص والكتابات الأعجمية للتشويش على القرآن العربي - تحت شعار قومية الآباء والأجداد والأصنام التي كانوا يعبدونها - قال تعالى:

«وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ» (١)

«كلمة كان يوصي بها الكبراء من قريش أنفسهم ويغرون بها الجماهير، وقد عجزوا عن مغالبة أثر القرآن في أنفسهم وفي نفوس الجماهير. «لا تسمعوا لهذا القرآن» فهو كما كانوا يدعون يسحرهم، ويغلب عقولهم، ويفسد حياتهم، ويفرق بين الوالد وولده، والزوج وزوجه. ولقد كان القرآن يفرق نعم ولكن بفرقان الله بين الإيمان والكفر، والهدى والضلال. كما يستخلص القلوب له فلا تحفل بوشيجة غير وشيجته. فكان هو الفرقان. «والغوا فيه لعلكم تغلبون» وهي مهاترة لا تليق. ولكنه العجز عن المواجهة بالحجة والمقارعة بالبرهان، ينتهي إلى مهاترة، عند من يستكبر على الإيمان. ولقد كانوا يلغون بقصص اسفنديار ورستم كما فعل مالك بن النضر ليعرف الناس عن القرآن. ويلغون بالصياح والهرج. ويلغون بالسجع والرجز. ولكن هذا كله ذهب ادراج الرياح، وغلب القرآن لأنه يحمل سر الغلب» (٢)

ومن المذهل حقاً أنهم بعد إخفاقهم في السيطرة على القرآن وحامل لوائه صلوات الله عليه عن طريق بث القصص والملاحم الأعجمية، ذهبوا إلى اتهام الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه يتعلم على أيد أعجمية مع علمهم التام بأنه صلوات الله عليه أمي لا يجيد القراءة والكتابة بالإضافة إلى كون القرآن يتلى عليهم في اللغة العربية. وقد تولى الحق سبحانه وتعالى الرد عليهم حيث يقول في كتابه المكنون:

«وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (٣)

١- سورة فصلت، آية ٢٦.

٢- سيد قطب، في ظلال القرآن، المجلد الخامس، ص ٢١٢٠.

٣- سورة النحل، آية ١٠٣.

قال تعالى:

«وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا مَعْجَبًا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ إِعْجَبُ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَبَيِّنَاتٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ» (١)

وعندما أخفق أهل مكة في الفوز على الرسول صلى الله عليه وسلم ومنع الناس من السماع للقرآن، ذهبوا إلى التخطيط لقتله والتخلص منه. وقد بين لنا الحق سبحانه وتعالى في كتابه العربي الحكيم موقف قوم الرسول صلى الله عليه وسلم من رسولهم ومن رسالته في الآيات الحكيمة التالية:

قال تعالى:

«كَتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ\* بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» (٢)

وقال تعالى:

«يَس\* وَالْقُرْآنَ الْحَكِيمَ\* إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ\* عَلَي صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ\* تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ\* يُنذِرُ قَوْمًا مِمَّا أَنْذَرَ آبَاؤَهُمْ قَوْمٌ غَافِلُونَ\* لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَي أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ\* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَنْعَامِهِمْ فَلَاحًا فَهَيَّ إِلَى الْإِذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ\* وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ\* وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (٣)

توضح الآيات السابقة أن أكثر قومه لن يؤمن له مهما وضع لهم السبيل وأنار لهم الطريق بمختلف الحجج والبراهين التي يأمل أن تقودهم إلى سبيل الحق والرشاد. وهذا ما أطلعنا عليه الحق سبحانه وتعالى بأنهم لن يؤمنوا لعلمه سبحانه وتعالى بحقيقتهم وطبيعة مشاعرهم نحو الحق الذي جاءهم به ليقودهم إلى سبيل الفوز والايان. كما وضع لنا الحق سبحانه وتعالى ان موقف قوم الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون موقف المعاند والمنازع، والمكذب، والمحارب، كما فعل جميع الأقوام مع رسل الله سبحانه وتعالى.

١ - سورة فصلت، آية ٤٤.

٢ - سورة فصلت، آية ٣.

٣ - سورة يس، آية ١ - ١٠.

قال تعالى:

«مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ» (١)

وقد مكر القوم برسولهم الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى لهدايتهم الى سبيل الخير والايمان وهما يقتله. وشاء الحق ان يجعل كيدهم في نحورهم وينجي رسوله الكريم ويسهل هجرته من موطنه مكة الى المدينة المنورة ليقيم مدينته الفاضلة هو ومن معه من المسلمين العرب منهم وغير العرب يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، وقد استحقوا بذلك وصف الباري سبحانه وتعالى لهم عندما وصفهم بخير أمة اخرجت للناس. فالأمة المشار اليها هنا ليست أمة العرب كما يفهمها بعض البسطاء من الناس، ولكنها تمثل العرب الذين آمنوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مع المسلمين غير العرب الذين آمنوا برسائلته صلوات الله وسلامه عليه. أما الجزء الأكبر من قومه العرب فهم الذين هموا يقتله وخاضوا ضده أشد الحروب وأشرسها.

قال تعالى:

«وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ» (٢)

ومن الجدير ذكره ان جميع الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون والرسول بينهم كانت مع العرب لهدايتهم الى النور المبين الذي يصرح به رسولهم الكريم سوى غزوة تبوك. وقد دفعتهم قوميتهم وشعار الآباء والاجداد ان يعقدوا حلفاً مع اليهود في المدينة ضد ابن قريش، ضد ابن بني هاشم، ضد الأمين، في غزوة الأحزاب ليستأصلوا شأفة الإسلام من جذورها. ولكن الحق سبحانه وتعالى نصر رسوله الكريم وهزم جمع الأحزاب شر هزيمة. ويبدو ذلك جلياً واضحاً في الآيات التالية :

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ قُدُومِكُمْ وَمِنْ يُسْفَلِ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْبَصَارُ وَكَلَفَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَنْظُرُونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا

١ - سورة فصلت، آية ٤٣.

٢ - سورة الانفال، آية ٣٠.

شَدِيدًا» (١)

وقال تعالى:

«وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَرِهِيَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا\* وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُواهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صِبَايِهِمْ وَكَدَّفَ فِي قُلُوبِهِمْ الرُّعْبَ قَرِيبًا تَقْتُلُونَ وَتَأْبِرُونَ قَرِيبًا\* وَأَوْزَتْكُمْ أَرْضُهُمْ وَأُدْبَارُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَنْصُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا» (٢)

وقد انتهت المواجهة بين قريش «قوم الرسول» وبين الرسول وصحبه صلوات الله عليه بفتح مكة، عندما أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم قراره بخصوص أهل مكة بأنهم مطلقاً الحرية والاختيار. وقد قسم من هؤلاء الطلقاء وغيرهم من المنافقين العداوة لرسالة الاسلام من جهة وإلى الرسول وآل بيته من جهة أخرى. وهذا ما تدل عليه الأحداث المفجعة التي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. فبدأت الأحداث بحروب الردة، واغتيال عمر بن الخطاب (رض)، والفتنة التي قتل على إثرها عثمان بن عفان (رض) فحرب الجمل، وحرب الصفين، وحرب النهروان، واغتيال علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) ومن المؤسف جداً ذكره ان جميع الأحداث السابقة حصلت في الثلاثة العقود الأولى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم. وهذه هي فترة الخلافة الراشدة التي تحدث عنها الرسول صلى الله عليه وسلم حيث قال: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة ثم تكون ملكاً» (٣) وكان معاوية نفسه يفهم هذه الحقيقة أيضاً فقال ذات مرة «أنا أول الملوك» (٤)

ولكي يكون طرحنا للأحداث التي حدثت بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم موضوعياً ودقيقاً من جهة وتحرير القارئ العزيز من العواطف والسياسات التوفيقية بين الحق والباطل التي لجأ إليها الكثيرون عبر التاريخ إما جهلاً منهم وإما للافتئات على الحق وأهله، فلا مندوحة لنا من إلقاء النظرة الفاحصة الدقيقة للوقوف على طبيعة وسعات الناس أو الفئات في المجتمع الذي كان يقوده صلوات الله عليه وسلامه لنعرف معاً أهداف كل فئة من تلك الفئات وأسرارها ومواصفاتها سواء في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم أم بعد وفاته.

١- سورة الاحزاب، آيه ٩- ١١.

٢- سورة الاحزاب، آيه ٢٥- ٢٧.

٣- البداية والنهاية، جزء ٨ ص ١٦.

٤- الاستيعاب جزء ١ ص ٢٥٤، البداية والنهاية جزء ٨ ص ١٣٥.



لقد وصف لنا الباري عز وجل الرسول صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بأنهم خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، كما وصف لنا بقية الاطراف او الفئات التي كانت تعيش مع هذا الجمع الطاهر إذ كانت الآيات القرآنية الكريمة تصفهم لرسول الله ومن معه من المؤمنين. وسوف نعرض وصف القرآن الكريم لهم على شكل نقاط لتوضح ما هو مطلوب بطريقة دقيقة ومختصرة.

أولاً: بين لنا الحق سبحانه وتعالى حقيقة أهل مكة بخصوص الإيمان بالله ورسوله عندما أخبر رسوله في آخر العهد المكي بالقرار القطعي الثابت وهو ان اكثرهم لا يؤمنون ويبدو ذلك بوضوح في قوله تعالى:

«لِيُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ\* لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ\* إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ غُمَّةً فَهِيَ إِلَى الْآذَانِ كَهَيِّثُمْ فَتَمُصُّونَ\* وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ\* وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» (١)

وبعد أن فتحت مكة واصبح اهلها ملقاة ليختاروا بين الحق والباطل، فانه لا يخفى على أحد الى اين سيتجه اكثر اهل مكة في اختيارهم. ولكنهم أسروا ما في انفسهم للوقت المناسب الذي يسمح لهم بإعلانه وهذا ما سنوضحه في الصفحات القادمة من خلال عرضنا لبعض الاحداث المخجلة التي حدثت في المجتمع الإسلامي.

ثانياً: الفتنه التي كانت تظهر إيمانها وتخفي حقدما وكرها للحق وأهله، فقد كشف الحق سبحانه وتعالى هذه الفتنه المبطنه في مواقع شتى في كتابه العزيز ولكننا سوف نختار نماذج من هذه الآيات لكثرتها لتوضح حقيقة هذه الفتنه.

قال تعالى:

«لَقَدْ ابْتَغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ» (٢)

واضح أنهم أهل فتنه وكارهون للحق.

١ - سورة يس، آيه ٦ - ١٠.

٢ - سورة النوبة، آيه ٤٨.

قال تعالى:

«إِنْ تُصِيبَكَ صَاسَةٌ تَسْأَلْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُمْسِيَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَهْضَمْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ قَرِضُونَ» (١)

واضح من مضمون الآية أنهم لا يحبون الخير للفئة المؤمنة.

قال تعالى:

«وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَهْمَةُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (٢)

واضح أنهم كانوا يقومون بأعمال وأنماط خاطئة كانت تؤذي النبي صلى الله عليه وسلم وهو يعيش بينهم.

قال تعالى:

«قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» وما مَنَعَهُمْ أَنْ يُتَقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كَسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ» (٣)

انهم يصلون وينفقون من اموالهم في الوقت الذي يكفرون فيه بالله ورسوله.

قال تعالى:

«يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُّوا بِمَالِهِمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يَعْذِيبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» (٤)

انهم اردوا قتل الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك حين خرج قسم منهم ليتولوا تنفيذ تلك المهمة وقد حال الحق سبحانه وتعالى بينهم وبين ما كانوا يهدفون اليه.

قال تعالى:

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ

١ - سورة التوبة، آية ٥٠.

٢ - سورة التوبة، آية ٦١.

٣ - سورة التوبة، آية ٥٣ - ٥٤.

٤ - سورة التوبة، آية ٧٤.

وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» (١)

قال تعالى:

«وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ بِكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ» (٢)

إنهم يحلفون بالله كذباً.

قال تعالى:

«وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَدَّدَةٌ يَكْسِبُونَ كُلَّ صِیْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاعْدَوْ لَهُمْ فَاتْلُهمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ» (٣)

قال تعالى:

«وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» (٤)

ترى هل هذه الفئة المنافقة التي وصفتها الآيات السابقة والتي اخترنا نماذج منها قد انتهت أمرها بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو أشتد شأنها؟  
ثالثاً:- وضح لنا الحق سبحانه وتعالى نوعين من الناس الذين كانوا في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، النوع الأول من الناس الذين يحبون الحق الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله سبحانه وتعالى، والنوع الثاني من الناس الذين يكرهون الحق ولا يحبونه.

قال تعالى:

«وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلِبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ» (٥)

١ - سورة التوبة، آية ١٠٧.

٢ - سورة التوبة، آية ٥٦.

٣ - سورة المنافقون، آية ٤.

٤ - سورة النساء، آية ٦١.

٥ - سورة البقرة، آية ٢٠٤ - ٢٠٧.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (١)

واضح من الآيات السابقة أنه في الوقت الذي يوجد فيه أناس يشرون أنفسهم ابتغاء مرضاة الله هناك أناس آخرون يكونون الخصام والعداء في قلوبهم للحق وأهله، إذ إن الحق سبحانه وتعالى بلغ رسوله الأمين أن يقوم بتبليغ ما أنزل إليه ولا يخشى هؤلاء الناس كما وعده بأن يعصمه منهم ومن شرورهم. ترى هل أصبح الناس كافة من جند الحق بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أو ماذا حصل؟

رابعاً: - إن الحق سبحانه وتعالى خاطب المؤمنين الذين تسرب إلى أذهانهم بعض الأمور التي لا تتسجم مع مبادئ الحق السامية في أكثر من موقع في كتابه العزيز موضحاً لهم أسس العقيدة الإسلامية وماتعكسه من أمور اعتقادية وسلوكية ليقودهم إلى سبيل الإيمان والفوز المبين.

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ تَرْضِيئُكُمْ بِالضَّيَالَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْأَهْرِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْأَهْرِ إِلَّا قَلِيلٌ» (٢) «إِلَّا تَنْفِرُوا يَغْزِيَكُمْ عَدَايَا آلِيهَا وَيَسْتَبَدِّلَ نَوْمًا بِغَيْرِكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» (٣)

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا أِبَاءَكُمْ وَأِهْلِيكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَنَصَبُوا الضُّلَمَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَوَلَّيْتُكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (٤) «قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَأَهْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَتَّخِذُونَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أُهْبِ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرُسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» (٥)

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَضَوُّنَا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» (٦) «وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ» (٧)

١ - سورة المائدة، آية ٦٧.

٢ - سورة التوبة، آية ٣٨ - ٣٩.

٣ - سورة التوبة، آية ٢٢ - ٢٤.

٤ - سورة الانفال، آية ٢٧ - ٢٨.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (١)

هذه نماذج من الآيات القرآنية الحكيمة التي خاطب بها الحق سبحانه وتعالى المؤمنين ليعدل من بعض الأنماط السلوكية المجافية للحق والإيمان، ويعدل أيضاً ما تسرب إلى أذهان بعض المؤمنين عن بعض القضايا المتصلة بالحق الذي وضعه رسول الله أجمل توضيح. كما حذرهم الحق سبحانه وتعالى في كتابه العزيز من مغبة الأفتئات على الدين الإسلامي والتنكر له وألا ينقلبوا على أعقابهم. ترى هل تمسك المؤمنون بإيمانهم واستقامت عقيدتهم، ولم يرتد منهم أحد بعد وفاته صلوات الله عليه أو ماذا حصل لهم؟

خامساً:- ورد في القرآن العربي الحكيم لفظ (عربي) ثلاث مرات وجميعها تدل وتشير إلى أن القرآن الحكيم عربي. وقد ورد لفظ (عربياً) ثمان مرات وجميعها تشير إلى أن القرآن الحكيم قرآن عربي. وقد وردت كلمة (الأعراب) عشر مرات وجميعها تدل على الإنسان العربي. وقد اختلف الباحثون حول هذه الكلمة ومدلولها. بمعنى هل الأعراب تعني العرب الذين لا يسكنون المدن ويعيشون حياة البداوة أو أن الأعراب تعني جمع فئات من العرب. فإذا أردنا أن نجمع بكلمة واحدة عرب الحجاز، وعرب نجد، وعرب العراق، وعرب الشام فماذا نقول الأعراب أما ماذا؟ فلا بد لنا من أن نعي بدقة الآيات الكريمة التي تحدثت عن هذا المصطلح لنقف على المعنى الدقيق له. فالأعراب إما أن يكونوا جزءاً من قوم الرسول وهم العرب وإما أن يكونوا جميع العرب كافة وكلا المفهومين لن يؤثر على ما نود الوصول إليه من عرض لحالة المجتمع الذي كان يقوده صلوات الله عليه وسلامه.

قال تعالى:

«الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (٢)

١ - سورة المائدة، آية ٥٤.

٢ - سورة التوبة، آية ٩٧.

واضح وجلي من الآية الحكيمه السابقة أن الحق سبحانه وتعالى أخبرنا بحكم عام عن الأعراب بأنهم أشد كفراً ونفاقاً وأنهم جديرون ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله بحكم كفرهم ونفاقهم ولكن أراد الله سبحانه وتعالى أن يعلموا ذلك لعلم عنده وحكمة شاء لها أن تنفذ. وبعد هذا الحكم العام على الأعراب بدأت الآيات التالية لتقسم الأعراب إلى فئات ولكل فئة وضعها الخاص بها كما سنرى.

قال تعالى:

«وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَازِئَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (١)

هذه الفئة الأولى التي تتربص الدوائر بالمؤمنين وتعد كل ما تنفقه مغرمًا والفئة الثانية من الأعراب هي التي تؤمن بالله واليوم الآخر وينفقون من أموالهم لتقربهم إلى الله.

قال تعالى:

«وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتُ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنِ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (٢)

والفئة الثالثة هي الفئة الصادقة النية والسابقة إلى الإيمان وهي تشكل جمع السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بأحسان.

قال تعالى:

«وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (٣)

أما الفئة الرابعة فهي الفئة المنافقة حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:

«وَمِمَّنْ هَؤُلَاءِ مَن الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى الْمُنَافِقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ» (٤)

١ - سورة التوبة، آية ٩٨.

٢ - سورة التوبة، آية ٩٩.

٣ - سورة التوبة، آية ١٠٠.

٤ - سورة التوبة، آية ١٠١.

والفئة الخامسة التي خلطت أفعالاً صالحة مع أعمال سيئة .

قال تعالى:

«وَأَخْرَجُوا عَتَرُونَا يَذْنُوبُهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَىٰ  
اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١)

أما الفئة الأخيرة فهي الفئة التي أشار إليها الحق سبحانه وتعالى بالآية الكريمة  
التالية :

قال تعالى:

«وَأَخْرَجُوا مَرْجُونًا لِمَا لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنَّا يَعَذِّبُهُمْ وَإِنَّمَا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ حَكِيمٌ» (٢)

ترى هل هذه الفئات الستة بمواصفاتها المختلفة والمتغيرة ماذا كانت أهدافها  
وأدوارها بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم؟

يبدو بوضوح وجلاء من خلال ما عرضناه في البنود الخمسة السابقة أن  
المجتمع الإسلامي الذي تركه الرسول صلى الله عليه وسلم بعد وفاته يتكون من عدة  
شرائح إنسانية، لكل شريحة منها مآربها وأهدافها واعتقاداتها الخاصة بها. فهناك  
الطلاقاء في مكة الذين منهم أنبة الكفر، وفيهم قرار قطعي بأن أكثرهم لن يؤمنوا  
وهذا ما وضعه لنا القرآن الكريم. وهناك الفئة المؤمنة بمختلف درجات الإيمان عند  
أفرادها. وبالإضافة إلى طبيعة هذا المجتمع وما يحتوي عليه من فئات متفاوتة في  
الاعتقاد والأهداف فإن تاريخ الأقسام والبشر يشهد لهم أنهم كان الفساد يدب بينهم بعد  
رحيل رسل الحق من بينهم. لذلك نجد البلاغ الواضح الدقيق الذي أرسله لنا الحق  
سبحانه وتعالى لنعي بصورة دقيقة ماذا يكون عقاب من ينقلب على عقبيه بعد رحيل  
المصطفى صلوات الله عليه من وسط جمعه المؤمن ومدينته الفاضلة .

قال تعالى:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ  
انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَئِن يَبْصُرَ اللَّهُ شَيْئًا  
وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ» (٣)

١ - سورة التوبة آية ١٠٢

٢ - سورة التوبة آية ١٠٦

٣ - سورة آل عمران، آية ١٤٤

كما وضح لنا الباري عز وجل في كتابه الحكيم مصير الذين يكتُمون البينات التي بينها الحق سبحانه للناس ويحرفون الكلم عن مواضعه لتلبية أهوائهم الذاتية على حساب الحق المبين أو نزولا عند رغبة سادتهم طلباً للدنيا ومفاتها. ويبدو ذلك بوضوح في قوله عز من قائل:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ» (١)

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ وَالْعَذَابِ بِالْغَفِيرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اهْتَكَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (٢)

وقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ما سيحدث بعده من اختلاف وتأويل واختلاق وتفكك في جسد أمته من بعده. فقد خاطب أصحابه قائلا «ستتبعون سنن من كان قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قالوا: أترامهم اليهود والنصارى؟ قال: فمن إذن؟» (٣)

كما قال صلوات الله عليه وسلامه «ستفترق أمتي إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا فرقة واحدة» (٤)

أضف إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم مخبراً ماذا سيفعل أصحابه من بعده حيث قال «يؤتى بأصحابي يوم القيامة إلى ذات الشمال فأقول: إلى أين؟ فيقال إلى النار والله فأقول: يارب هؤلاء أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا من بعدك فأقول: سحقاً لمن بدل بعدي» (٥)

١ - سورة البقرة، آيه ١٥٩

٢ - سورة البقرة، آيه ١٧٤ - ١٧٦.

٣ - البخاري، الجزء الرابع ص ١٤٤، والجزء الثامن ص ١٥١.

٤ - مسند أحمد، الجزء الثالث ص ١٢٠، سنن ابن ماجه، كتاب الفتن الجزء الثاني، رقم الحديث ٣٩٩٣.

٥ - البخاري، الجزء السابع ص ٢٠٩، صحيح مسلم باب الحوض.



وفي ضوء ما تقدم من آيات قرآنية حكيمة وسنة نبوية طاهرة فإن المجتمع الإسلامي بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يمكن بأية حال من الأحوال أن يكون أفضل حالا مما كان عليه والرسول بين ظهرانيهم، لأن وفاته تعني بالنسبة للفئات الحاكمة على الحق وأهله أن الحاجز الأكبر الذي كان يحول بينها وبين تحقيق أهدافها المناهضة للإسلام قد تداعى، ذلك لأن الوحي الذي كان يكشف لرسول الله مكانهم وأحبابهم قد انقطع بوفاته صلوات الله وسلامه عليه لذلك وجدت كل فئة مناهضة للحق واتباعه فرصتها الذهبية في تحقيق أهدافها عن طريق اختيار شتى السبل والطرائق الموصلة إلى أهدافها الخبيثة بغض النظر عن طهر الوسيلة، أو خبثها طالما قد توصل إلى ما ترنو له النفوس التي تتربص الدوائر بالإسلام وأهله. فسواء كانت الوسيلة التأويل للنصوص القرآنية أم سياسة الدس والوضع في السنة النبوية فأهم من هذا وذاك الوصول إلى النيل من الإسلام وأهله. لذلك ليس غريباً أن تكون حروب الردة وما دار حولها، واغتيال عمر بن الخطاب (رض) والفتن التي حصلت في عهد عثمان بن عفان (رض) وأدت بالنهاية إلى اغتياله. والحروب الثلاث الضروس التي حصلت في عهد الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. إن هذه الأمور كافة ليست غريبة على الإنسان لأن سنة الأقوام مع رسلهم تدل على نفس الأفعال والأمور التي حدثت بعد انتقال رسل الحق من بينهم، وهناك العشرات من الآيات القرآنية الحكيمة التي تشير إلى تلك الأعمال والأفعال. هذا بجانب ما ذكرنا من آيات قرآنية وسنة نبوية طاهرة تدل على ماذا سيحدث بعد وفاته صلوات الله وسلامه عليه. ولكن الشيء الذي تشيب له النواصي ويندى له جبين البشريه أسفاً ونمداً أن يتم رفع مستوى الذين عاصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مستوى أرفع وأعلى من كتاب الله الحكيم الذي ينطق بالحق، إذ أشير إلى جميع أعمالهم المناهضة للحق على أنها تأويل للنصوص القرآنية حتى بلغ الأمر إلى الإشارة للمعارك الضروس، وجز الرؤوس، وسمل العيون واستباحة حرمت آل بيت الرسول، وانتهاك حرمة مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصف الكعبة وانتهاك حرمتها على أنها جميعاً تدخل تحت التأويل والاجتهاد. وقد أبيحت شتى المحرمات تحت هذا الشعار بالإضافة إلى سياسة الدس والوضع في السنة النبوية.

وجميعنا يعلم علم اليقين أن هذه الرتبة، أي المنزلة فوق الكتاب المنير لم تعط حتى للرسول صلى الله عليه وسلم ودليل ذلك يكمن في الآيات التالية:

قال تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١)

قال تعالى: «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ\* فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ» (٢)

أن هذه الحروب الثلاث التي حصلت في فترة الخلافة الرابعة كانت السبب المباشر وراء حدوث الانقسامات الفكرية والمذهبية بين المسلمين منذ تلك اللحظات حتى هذه الأيام. والذي يود أن يجتلي حقيقة تلك المدارس والمذاهب لا بد له من الوقوف على حقيقة تلك الحروب وأي الأطراف منها على حق وأي منها على باطل والقرآن الحكيم فيه قول الفصل في ذلك. كيف لا وهو يمثل الحق الذي شئت حكمته أن يكون للناس جميعاً وكاملاً غير منقوص. كما أن الحق سبحانه وتعالى لا يستحي من الحق سواء أكان الذي أخطأ إنساناً عادياً أم رسولاً مقرباً. فإذا كان القرآن الحكيم لا يوجد فيه ما يبين لنا إذا ما أردنا الحق دون تحكيم الهوى والمزاج في تلك الحروب وغيرها، فأين البصير الذي يمكن أن نركن إليه؟ قول الطلقاء وأكاذيبهم؟ أم الذين يتربصون الدوائر؟ أم الذين مردوا على النفاق؟ أم الذين هم أشد كفراً ونفاقاً؟ أم الذين ارتضوا بالحياة الدنيا وما فيها من أموال وماله في الآخرة من خلاق؟ أم أحكام الهوى والمزاج وما يدور في فلكهم من فقهاء سلاطين؟ إن التعرف إلى الحق وأمله يوضح لنا مجال الاختيار الحقيقي للجانب الجاثم على الحق في هذه الأيام، ونحرر أنفسنا من أحابيل أعداء الحق عندما يثيرون النعرات الطائفية والمذهبية بين الفرق الإسلامية بهدف إضعافها جميعاً. كما يساعدنا على إخراج أنفسنا من المهاترات الهابطة في توجيه بعضنا الكفر والزندقة إلى بعض. إن الذي يريد الحق يوضحه أولاً لنفسه ويسير في ضوئه، ومن ثم يوضحه للناس دون أن يشتم أحداً من الناس الذين يود أن يبين الحق لهم. إن سنة الشتم واللعن بدأها أقوام الرسل الذين مكروا برسل الله لضعف حججهم ومجافاتهم للحق وأتباعه. إن صاحب الحق دائماً وأبداً هدفه الأسمى توضيح الحق للذين يعرفونه والذين لا يعرفونه سواء، لأن هذه هي مهمته ولا يجوز له أن يخرج عن محاور المناقشة الأساسية التي تخاطب العقل الإنساني من

١ - سورة التحريم، آية ١

٢ - سورة الحاقة، آية ٤٤ - ٤٧

خادها للوصول إلى جانب الخير فيه إلى إلقاء التهم والمهاترات الفارغة. وهناك من الناس من يقول إن هذه الأحداث والفتن قد مضت وعفانا الله شرها فلماذا نود أن نخوض فيها؟ وللإجابة عن هذا القول فإننا نقول إن الذي يرفع هذا الشعار لا يتجاوز نوعين من البشر، فالنوع الأول يخشى في حالة البحث الدقيق والوصول إلى الحق من كشف سواتهم وبطلان تجارتهم التي يتقربون من خادها إلى أصحاب النفوذ فلذلك نجدهم يرفعون هذا الشعار عبر التاريخ وما زالوا يرفعونه وسيبضون على ذلك لأن رأسمالهم هو السيطرة على عقول عامة الناس والتجارة بذلك للوصول إلى أهدافهم الذاتية على حساب الإسلام ومعالمه، وهذا ما وشجت عليه عروق الأولين من فقهاء السلاطين وتأزرت عليه فروعهم في كل عصر. أما النوع الثاني فيمثل الفئة الصادقة التي تشرئب نفوسها لرؤية المسلمين تحت راية واحدة، فلذلك لا تريد أن تبحث في أي قضية يمكن أن تشير أي نوع من الخلاف بين المسلمين، وللحق أن هذه الفئة الصادقة هي الهدف الأسنى لكل داعية يريد تحريرها من مخالف فقهاء السلاطين والوصول بها إلى مورد الحق ليسيروا على صراطهم المستقيم الذين أمروا باتباعه فكيف يمكن لأي إنسان مخلص أن يحرر تلك الفئة الصادقة من تأويلات فقهاء السلاطين الجائرة وفتاواهم الكاذبة إذا لم يقدمهم إلى الحق والسبل المؤدية إليه إن هذه الفئة الصادقة إذا لم تعرف حقيقة ما جرى بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فلن تستطيع أن تميز بين الحق والباطل وستبقى العوبة سهلة في أيدي تجار الدين ومن نهج نهجهم وليس حرب الخليج سواء الأولى أو الثانية عنا ببعيد، وكيف كان استغلال تجار الدين لهما، ولأهمية هذا الموضوع من جهة وكبر حجمه من ناحية أخرى، وخوفاً من الخروج عن وحدة الموضوع لما نحن فيه، فإننا لا نستطيع أن نبحث تلك الأمور في هذا المقام لذلك يحبذ الرجوع إلى الكتب الصادقة الدقيقة التي بحثت هذا الموضوع في ملياتها. أما نحن فهدفنا توضيح علاقة القومية بالإسلام، ولقد أشرنا إلى هذه القضايا بصورة مقتضبة هنا لنبين كيف تحول المجتمع الإسلامي إلى مجتمع أقليمي عنصري شعوبي، قومي، ولقد رافق هذا التحول تأويل القرآن بما يتناسب مع السياسة الحاكمة والتقليل من شأن الرسول صلى الله عليه وسلم والنيل من أهل بيته الأملهار والافتئات على حقوق المسلمين.

لقد أدت التأويلات الجائرة للنصوص القرآنية والدس في سنة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ابتعاد المجتمع الإسلامي عن المبادئ الإسلامية السامية، حتى

وصل الأمر إلى استباحة دماء آل الرسول صلى الله عليه وسلم في فاجعة كربلاء سنة ٦١هـ وما رافق تلك الكارثة من انعكاسات حادة في أذهان الناس حول الوضع السائد في ذلك الوقت. وفي سنة ٦٢هـ استبيحت مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام لجيش الشام الذي بعثه يزيد بن معاوية بن أبي سفيان (١) وبعد تلك الأحداث المفجعة التي حدثت في كربلاء وموقعة الحرة تم استباحة حرمة البيت الحرام مرتين، الأولى سنة ٦٤هـ بقيادة الحصين بن نمير السكوني، والثانية سنة ٧٢هـ بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي. وفي كلتا المرات تم محاصرة الكعبة وقصفها بالحجارة والنار - وقد احترقت الكعبة في المرة الثانية وتصدع منها ثلاثة مواضع واحترق ما كان عليها من كسوة وما فيها من خشب. (٢)

وهكذا بدأت المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه تظهر جلياً على السطح وفي كل مرة يطالب فيها المخلصون لدينهم بتطبيق مبادئ الإسلام يجدون جيش الحاكم جاهزاً لقمعهم واستباحة حرمانهم كما حدث في موقعة كربلاء، وموقعة الحرة، وحصار مكة وغيرها من الثورات المتتالية التي كانت تقمع بطريقة لا إنسانية.

وهناك بعض المخالفات التي كانت لها آثار سلبية في أوساط المجتمع ومنها تثبيت دعائم العنصرية والعرقية بين العرب من جهة وبين الأقوام الآخرين الذين آمنوا بالإسلام من جهة أخرى عن طريق فرض دفع الجزية على المسلمين الجدد من غير العرب وحرمانهم من المساواة في الحقوق سواء أكان في الجوانب المالية أم القضائية أم العبادية (٣)

وهناك نيران العصبية المشتعلة بين اليمانية والمضرية وقد أشار إلى ذلك ابن كثير في البداية والنهاية نقلاً عن ابن عساكر إن نيران النزعات القبلية كانت تستعر في قلب العاصمة الأموية فكانت ترى في كل مسجد محرابين وكان في المسجد الجامع منبران يرتقيهما إمامان كل منهما يناسر شيعته لأن كلا الفريقين لم يكن على استعداد للصلاة خلف إمام ليس من رهطه (٤)

١- انظر التفاصيل في تاريخ الطبري الجزء الخامس ص ٤٨٠ - ٤٩١.

٢- انظر تفاصيل القصة في تاريخ الخلفاء صفحة ٩٠

٣- انظر التفاصيل في تاريخ الطبري جزء ٥ ص ٣٢١، ابن الأثير ج ٤ ص ١٦٣ العقد الفريد ج ٢ ص ٢٣٣، ابن خلكان وفیات الاعيان ج ٢ ص ١١٥، ابن قتيبة عيون الاخبار ج ٢ ص ٦١

٤- انظر التفاصيل في البداية والنهاية ج ١٠ ص ٤٥.

والشيء المذهل الذي تشيب له الولدان أن جميع المخالفات الصريحة لمبادئ القرآن والسنة النبوية الطاهرة كانت ومازالت تحدث تحت وابل من الفتاوى الجائرة التي يحورها فقهاء السلاطين تقريباً لسادتهم وإشباعاً لشهواتهم وغرائزهم على حساب الإسلام ومبادئ النبيلة. وما زلنا نشاهد في هذه الأيام المجتمعات التي تعلن عن نفسها أمام المجتمع الدولي على أساس أنها إسلامية وفي حقيقتها أنها لا تطبق المبادئ الأساسية للإسلام بصورتها الصحيحة. وهذه الحقيقة ليست بحاجة إلى دراسة شخصية أو سطوة علمية للوقوف على حقيقتها فأى إنسان يقرأ القرآن ويرى ويحس ويسمع ما يحدث في هذه المجتمعات يجد التناقض الحاد بين الإسلام ومبادئه من جهة وبين الواقع الهابط لتلك المجتمعات وأنماطها السلوكية من جهة أخرى. واختصاراً لفتاوى أصحاب الهوى الذين مازالوا يتاجرون بالدين ومبادئه في شتى أمور الحياة فإننا نوضح للقارئ العزيز قول الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عندما يشهد على قومه وهم العرب يوم المشول أمام الحق سبحانه وتعالى أنهم اتخذوا القرآن مهجوراً.

قال تعالى:

«وَيَوْمَ نَسْفَقُ السَّمَاءَ دُخَانًا وَنَزَّلْنَا الْمَلَائِكَةَ نَزِيلًا أَلَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا وَيَوْمَ يَعِضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا لَقَدْ أَضَلَّنِي مَنِ الدُّكْرُ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا» (١)

إن قول الحق هذا يبين لنا بوضوح وجلاء أن العرب قوم الرسول صلى الله عليه وسلم اتخذوا القرآن الكريم مهجوراً وسوف يشهد عليهم يوم المشول أمام الحق سبحانه وتعالى. ولن تنفع في ذلك اليوم مختلف التأويلات الجائرة والفتاوى الهابطة التي تم نسجها من مخيلاتهم تزيلاً للساسة ومواندهم على حساب الهدى الإلهي ومبادئه.

لقد أدت هذه المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه عبر القرون السابقة إلى ظهور أوضاع شاذة في المجتمعات الإسلامية نستطيع أن نوجزها بالنقاط التالية:

١ - سورة الفرقان، آية ٢٥ - ٣٠

- ١- تمزق وتفكك القيادة الإسلامية الواحدة إلى عدة قيادات متفاوتة في الأهداف والسلوك.
  - ٢- الابتعاد عن مرجعية القضاء المتمثل بالقرآن الكريم والسنة النبوية إلى مرجعية القيادة ورأيها الشخصي.
  - ٣- ممارسة أوجه الظلم والدكتاتورية بأشع أنماطها التي عرفت لدى البشر.
  - ٤- ممارسة النعرات القومية والنزعات الإقليمية بين الأقوام التي دخلت في الإسلام وتربص بعض الدوائر ببعض.
  - ٥- ظهور العداوة وعدم الثقة بين الشعب وبين الجيش لأنه يدين بالولاء للسياسة الحاكمة وليس لمبادئ الإسلام وأهله. لذلك فالجيش على أتم الاستعداد لتدمير المدن أسوة بالجيوش التي داست المقدمات الإسلامية واستباححت حرمتها وهتكت أعراض المسلمين بطريقة همجية.
  - ٦- استبدال بالنظم القانونية والقضائية والاجتماعية والسياسية أنظمة وعادات تخالف الإسلام ومبادئه مخالفة جوهرية.
  - ٧- إيقاع الأذى بأساليبه كلها وطرقة على الذي يناهز بصوت صادق لتطبيق الإسلام ومبادئه في المجتمعات الإسلامية.
  - ٨- ظهور المذاهب المتعددة والجماعات الإسلامية المتناحرة التي يكيل بعضها التهم والترهات لبعض واستغلال ذلك من قبل الأعداء سواء من الداخل أم من الخارج.
  - ٩- ظهور فئة فقهاء السلاطين التي اتخذت على عاتقها تغطية شتى المخالفات الصريحة للإسلام ومبادئه بفتاوى جانرة على الإسلام وأهله.
- لقد تكشف سوا هذه المجتمعات بصورة دقيقة عندما تسارع التقدم الحضاري والتفجر التكنولوجي في المجتمعات الغربية حديثاً وما قابله من تخلف وانحطاط في المجتمعات الإسلامية. فذهب قسم كبير من الكتاب والمؤلفين الذين لم يصلوا بعد إلى حقيقة التطور الحضاري وأسراره ولا إلى حقيقة الإسلام ومبادئه إلى إعلان الثورة على الإسلام وأهله لكي يتسنى لهم التقدم في موكب الحضارة العالمية الحديثة ظناً منهم أن الإسلام هو الذي يقف حاجزاً أمام تقدمهم العلمي والحضاري. وقسم آخر ذهب إلى الحديث والمطالبة بتطوير الإسلام وتحديثه لكي ينسجم مع المتطلبات العصرية الحديثة لفهمهم السقيم للإسلام ومصدره.
- وفي ضوء هذين المطلبين تم تخطيط وتوجيه الحركة الفكرية ومايلزمها من

متطلبات في المجتمعات الإسلامية في هذا القرن. فإذا ما أراد الإنسان المخلص لدينه أولاً والغيور على مصلحة مجتمعه ثانياً أن يوضح أسباب التخلف والفساد التي تعيشها المجتمعات يجد نفسه أمام عدوٍ أشد يملك مختلف الوسائل والطرق للنيل من هذا الفرد للحيلولة بينه وبين ما يود توضيحه إلى أبناء مجتمعه.

ومن القضايا التي تبعث الاسى والذهول أن تهب في هذه الأيام بعض الآراء التي تنادي إلى الالتقاء بين الاتجاهين، الاتجاه الديني والاتجاه القومي على جميع المستويات والوسائل الصحفية ليزيد من اوضاعنا الاجتماعية غموضاً وتناقضاً. إننا في الوقت الذي نعرف فيه حقيقة الهدى الذي بعثه الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة للعالمين وهو الإسلام فإننا ما زلنا نحن واقطاب القومية العربية سواء لا نعرف بالتحديد ما هو الفكر الأيدولوجي للقومية الذي سيتم وضعه بجانب الإسلام للالتقاء عليهما معاً. إن قريش عندما كانت تطلب من رسول الله صلى الله عليه وسلم الالتقاء والاتفاق كانوا يدافعون عن دين الوثنية الذي سلب عقولهم عن الحق المبين الذي جاء به رسولهم الأمين. هذا بجانب كونهم غير مسلمين لذلك وضعوا أنفسهم في الجانب المقابل للإسلام. فالمطلوب من أصحاب الاتجاه القومي أولاً أن يعلنوا بصراحة هل هم من المسلمين أو لا؟ هذا بالإضافة إلى توضيح مدرستهم الفكرية المتفقة كاملاً مع شعارهم القومي.

إن أصحاب التيار القومي لو أرادوا حقاً أن ينسجم فكرهم الأيدولوجي مع شعارهم المرفوع لكانوا أشد الناس تمسكاً بالكتاب العربي الحكيم الذي لا يضاهيه كتاب آخر عبر تاريخ البشرية باعتراف الناس جميعاً. هذا بجانب التمسك والامتثال لجميع ما نادى به النبي العربي الحكيم. هل يعني الشعار القومي العربي أن نتخلى عن بعض ما في القرآن العربي الحكيم وسنة الرسول العربي الأمين لندخل مكانها مقتطفات من الأفكار والمبادئ الأفلاطونية، والأرسطية، والديوية، والماركسية، واللينينية؟ إن هذا الشعار يعني لكل إنسان يدرك معاني الألفاظ والكلمات بطريقة سليمة التمسك القوي بكل ما هو عربي. إن العلاقة الوحيدة التي تجمع بين الإنسان العربي أو غيره من الأقوام الأخرى مع الإسلام هي أن يكون الفرد أو الإنسان مسلماً في الاعتقاد والفكر والسلوك وكل ما يبلّيه عليه النهج النبوي في شتى أمور الحياة بغض النظر عن جذوره العرقية. فعندها يسمى الإنسان مسلماً عربياً أو مسلماً كردياً أو مسلماً فارسياً أو مسلماً تركياً. فهذه هي العلاقة الوحيدة التي يسمح بها الإسلام.

فالإنسان القومي الذي يطالب بتطبيق أي فكر بدل الإسلام يسلم نفسه عن الإسلام ومبادئه بصورة صارخة.

وخلاصة القول في هذا الموضوع إن الإسلام يمثل الهدى الذي بعثه الله سبحانه وتعالى، وهتف به سائر الأنبياء والمرسلون ليكون مصدراً للاعتقاد والتشريع وسن القوانين وكل ما يلزم الإنسان من سبل هداية ليقوده إلى نعيم الدنيا والآخرة. أما القومية فهي نظرة عنصرية ضيقة أسست على الكبر والاستعلاء على الآخرين من الناس وكانت وراء هلاك إبليس عندما رفض أوامر السجود لآدم بحجة أنه خلق من مادة أفضل من الذي خلق منها آدم عليه السلام. لذلك فمن المحال أن تلتقي القومية بأسياسياتها ومرتكزاتها التي بنيت على خيوط واهية أضعف من خيوط العنكبوت مع دين التوحيد، دين الهدى والرحمة الذي أراد الحق أن يكون للبشر كافة إذ لا توجد أية فروق بينهم إلا بتقوى الله ومخافته، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه.

«إن المفصلة ضرورية لإيضاح معالم الاختلاف الجوهرى الكامل، الذي يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق. الاختلاف في جوهر الاعتقاد، وأصل التصور، وحقيقة المنهج، وطبيعة الطريق. إن التوحيد منهج والشرك منهج آخر ولا يلتقيان، التوحيد منهج يتجه بالإنسان مع الوجود كله - إلى الله وحده لا شريك له. ويحدد الجهة التي يتلقى منها الإنسان، عقيدته وشريعته، وقيمه وموازينه، وأدابه وأخلاقه، وتصوراتها كلها عن الحياة وعن الوجود. هذه الجهة التي يتلقى المؤمن عنها هي الله، الله وحده بلا شريك. ومن ثم تقوم الحياة كلها على هذا الأساس. غير متلبسه بالشرك في أية صورة من صور الظاهرة والخفية.... وهذه المفصلة بهذا الوضوح ضرورية للداعية وضرورية للمدعويين. إن تصورات الجاهلية تتلبس بتصورات الإيمان، وبخاصة في الجبايات التي عرفت العقيدة من قبل ثم انحرفت عنها، وهذه الجبايات هي أعصى الجبايات على الإيمان في صورته المجردة من الفسب والالتواء والانحراف. أعصى من الجبايات التي لا تعرف العقيدة أصلاً. ذلك أنها تظن بنفسها الهدى في الوقت الذي تتعقد انحرافات وتتلوى واختلاط عقائدها وأعمالها وخلط الصالح بالفاسد فيها، قد يغري الداعية نفسه بالأمل في اجتذابها إذا أقر الجانب الصالح وحاول تعديل الجانب الفاسد.... وهذا الإغراء في منتهى الخطورة. إن الجاهلية جاهلية، والإسلام إسلام، والفارق بينهما بعيد.



والسبيل هو الخروج عن الجاهلية بجملتها إلى الإسلام بجملته. هو الانسلاخ من الجاهلية بكل ما فيها والهجرة إلى الإسلام بكل ما فيه.

وأول خطوة في الطريق تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية: تصوراً ومنهجاً وعملاً. الانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق. والانفصال الذي يستحيل معه التعاون إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم بكليتهم إلى الإسلام. لا ترقيع ولا أنصاف حلول. ولا التقاء في منتصف الطريق مهما تزيت الجاهلية بزّي الإسلام، أو ادعت هذا العنوان. وتبميز هذه الصورة في شعور الداعية هو حجر الأساس. شعوره بأنه شيء آخر غير هؤلاء. لهم دينهم وله دينه، لهم طريقهم وله طريقه. لا يملك أن يسايرهم خطوة واحدة في طريقهم. ووظيفته أن يسيرهم في طريقه هو، بلا مdahنة ولا نزول عن قليل من دينه أو كثير.

والإلا فهي البراءة الكاملة، والمفاصلة التامة، والحسم الصريح.... «لكم دينكم ولي دين» وما أحوج الداعين إلى الإسلام اليوم إلى هذه البراءة وهذه المفاصلة وهذا الحسم.... ما أحوجهم إلى الشعور بأنهم ينشئون الإسلام من جديد في بيئة جاهلية منحرفة، وفي أناس سبق لهم أن عرفوا العقيدة، ثم طال عليهم الأمد «فقتل قلوبهم وكثير منهم فاسقون» وأنه ليس هناك أنصاف حلول، ولا التقاء في منتصف الطريق، ولا إصلاح عيوب، ولا ترقيع مناهج، إنما هي الدعوة إلى الإسلام كالدعوة إليه أول ما كان» (١)

وأخيراً فالمجتمع القومي أو العربي قد يكون إسلامياً، وشيوعياً، ورأسمالياً وإقطاعياً، ودكتاتورياً، وهذا يعود إلى نوع المدرسة الفكرية المتبعة في ذلك المجتمع. أما المجتمع المسلم، فهو فقط إسلامي لأنه يتبع النهج الإلهي في شتى مناحي الحياة. وعلى هذا الأساس وصف بأنه مجتمع إسلامي. هذا إلى جانب أن المجتمع القومي يعد محصوراً في الإنسان الذي ينحدر من أصل قومي واحد دون الأفراد الذين ينحدرون من عرق إنساني آخر بينما المجتمع المسلم هو لكل إنسان يود أن ينيب أو يستقيم على نهج الله القويم دون الالتفات إلى عرقه أو لونه أو جنسه.

١ - في ظلال القرآن، الجزء السادس صفحة ٣٩٩٢ - ٣٩٩٣.

## المراجع

- ١- القرآن الكريم.
- ٢- ابراهيم دسوقي، تاريخ الفكر السياسي.
- ٣- ابن الأثير، الكامل في التاريخ، الميزية مصر، ١٢٥٦هـ.
- ٤- ابن خلكان، وفيات الاعيان، النهضة المصرية، مصر، ١٩٤٨.
- ٥- ابن سعد، الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧.
- ٦- ابن عبد البر، الاستيعاب، دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ١٣٢٦هـ.
- ٧- ابن عبد ربه، العقد الفريد، مصر ١٩٤٠.
- ٨- ابن كثير، البداية والنهاية، دار السعادة، جمهورية مصر العربية.
- ٩- ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٨٦.
- ١٠- ابو الأعلى المودودي، الامة الاسلامية وقضية القومية، دار الانصار، القاهرة، ١٩٨١.
- ١١- ابو الأعلى المودودي، الخلافة والملك، تعريب احمد ادريس، دار القلم، الكويت، ١٩٧٨.
- ١٢- ابو الأعلى المودودي، نظرية الاسلام والسياسة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٥.
- ١٣- ابو الفتوح رضوان، القومية العربية، القاهرة، ١٩٦٨.
- ١٤- السيد محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الاسلامي، قم، ايران ١٩٧٢.
- ١٥- السيد محمد حسين الطباطبائي، نظرية السياسة والحكم في الاسلام، الدار الاسلامية، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٦- الياس مرقص، القومية العربية والاسلام.
- ١٧- البيهقي، السنن الكبرى، دائرة المعارف، حيدر آباد، الهند، ١٣٥٥هـ.
- ١٨- الترمذي، كتاب الفتن.
- ١٩- الزمخشري، الكشاف، الهيئة، مصر، ١٣٤٢هـ.
- ٢٠- السيوطي، تاريخ الخلفاء، دار الحكومية لاهور، باكستان، ١٣٧٠هـ.
- ٢١- الطبري، تاريخ الامم والملوك، دار الاستقامة، مصر، ١٩٣٩م.

- ٢٢- بويد شيفر، القومية عرض وتحليل، ترجمة جعفر خصباك وعدنان الحميدي، دار مكتبة الحياة بيروت، ١٩٦٦ مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر بغداد، نيويورك.
- ٢٣- حسن شحاته سغان، الادب اليوناني القديم ودلالته على عقائد اليونان ونظامهم الاجتماعي.
- ٢٤- حسين السيد عباس، القومية العربية بين الفكر والواقع ١٩٧٣.
- ٢٥- ساطع الحصري، اللغة والادب وعلاقتها بالقومية.
- ٢٦- ساطع الحصري، ما هي القومية، دار الملايين، بيروت، ١٩٥٩.
- ٢٧- سنن ابن ماجه، كتاب الفتن.
- ٢٨- سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٠.
- ٢٩- سيد قطب، معالم في الطريق، دار الشروق، بيروت، ١٩٨٣.
- ٣٠- صالح العبود، فكرة القومية العربية على ضوء الإسلام، الرياض، دار طيبة للنشر والتوزيع ١٩٨٢.
- ٣١- صحيح البخاري.
- ٣٢- صحيح الترمذي.
- ٣٣- صحيح مسلم.
- ٣٤- عبد الستار فتح الله، الغزو الفكري والتيارات المعادية للإسلام، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، جمهورية مصر العربية.
- ٣٥- عبد الله ملوم السامرائي، الاسلام والقومية الاسلام والاممية، بغداد، ١٩٨٥.
- ٣٦- عبد المؤمن يوسف، المسألة القومية بين الجاهلية والإسلام، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر، ١٩٨٢.
- ٣٧- مسند احمد، دار المعارف، مصر، ١٩٥٢.
- ٣٨- منيف الرزاز، معالم الحياة العربية الجديدة، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٦٠.
- ٣٩- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
- ٤٠- يوسف خليل، القومية العربية ودور التربية في تحقيقها، دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

## الفصل السابع

الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

## الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

هدفت الدراسة الى توضيح ماهية التربية والغرض منها كما فهم الانسان عبر تاريخه ماهية التربية وغرضها في ضوء معتقداته العامة للوجود، وللانسان، والحياة الدنيا. كذلك بينت الدراسة ان التربية لا بد لها من إطار فكري عام تصاغ برامجها المتعددة في ضوئه. وتبين ان المبادئ الاساسية للتربية تختلف من تربية الى أخرى حسب نوع الفكر العام الذي صيغت التربية في ظلاله. فقد بينت الدراسة ان المبادئ الاساسية للتربية واهدافها العامة في ضوء النهج الاسلامي تختلف عنها في ضوء المدارس الفكرية والفلسفية الاخرى. هذا بجانب الاختلافات الجوهرية بين المدارس الفكرية والفلسفية فيما بينها حول مبادئ التربية واهدافها.

## الأبعاد الفكرية والفلسفية للتربية

### مقدمة :

تعد التربية من أهم الموضوعات وأقدمها التي عرفها الانسان منذ تلك اللحظة التي لمست فيها قدماء سطح الكرة الأرضية، بعد أن أمر الحق سبحانه وتعالى بهبوطه إلى هذا الكوكب. وقد مارس الانسان التربية بوسائلها وانماطها المتعددة منذ فجر تاريخه حتى هذه الأيام. وسيبقى بحاجة ماسة إلى التربية وموضوعاتها المتعددة في تحقيق أهدافه الفردية والجماعية حتى يرث الحق سبحانه وتعالى الأرض ومن عليها.

فالتربية ليست كما يفهمها السواد الأعظم من الناس أنها تعني القراءة والكتابة فقط. لقد عرف الانسان التربية واستخدمها في تحقيق أهدافه وغاياته قبل أن تعرف القراءة والكتابة. كانت التربية في العصور الأولى من تاريخ الانسان تأخذ طابع التقليد، والمحاكاة، والممارسة عن طريق الصواب والخطأ لجميع أبناء المجتمع من أجل تأهيلهم بالمهارات، والخبرات، والمعلومات المتعددة التي تساعدهم على تحقيق أهدافهم سواء الفردية أو الجماعية. على هذا النهج التربوي كانت جميع أهدافهم الاجتماعية، والاقتصادية، والزراعية، والسياسية والعسكرية يتم تحقيقها عن طريق الجهد المبذول من قبل أبناء المجتمع الذين تم تأهيلهم وتربيتهم بالطرق المألوفة لهم في تلك الحقبة من الزمن. هذا بجانب تلبية حاجاتهم الفكرية، والعقدية، والتقاليد، والعادات التي كانت جميعها تشكل مركز اهتمام الانسان منذ فجر تاريخه.

وقد تطورت وسائل التربية من عهد إلى آخر لتناسب التقدم الحضاري الذي نسهه الانسان عبر تاريخه الحضاري عن طريق التربية لتفي بتحقيق الاهداف المتجددة التي ينشدها الانسان في شتى الجوانب الحياتية. لذلك كانت التربية عبر تاريخها المديد عملية متجددة من حيث المحتوى، والوسائل، والأساليب، وطرق القياس والتقويم، وثابتة من حيث الغرض الذي ينشده الإنسان منها، فهو يحتاجها كوسيلة في تحقيق أهدافه المتطورة حسب التقدم العلمي والحضاري. وستبقى التربية تلعب هذا الدور بالنسبة للإنسان في المستقبل.

### ماهية التربية وغرضها :-

اختلفت الآراء والأفكار حول ماهية التربية وغرضها من جيل إلى آخر، ومن

مدرسة فكرية إلى أخرى، لتعكس مدى الاختلاف الفلسفي والفكري عند الإنسان حول القضايا الأساسية التي تهتم في شتى أمور حياته. فقد اختلفت آراء الإنسان حول أهم القضايا وأقدسها على الإطلاق، وهي: الذات الإلهية، وطبيعة الكون، وعلاقة الفرد بالمجتمع، وطبيعة الإنسان. التي تعكس جميعها آثاراً واسعة النطاق على مجريات الحياة الإنسانية في الحياة الدنيا وفي الآخرة. فقد كان لهذا الاختلاف حول القضايا الوجودية أثر مباشر وقوي في الاختلاف حول ماهية التربية وغرضها، وهذا ما سنوضحه بالتفصيل عندما نتحدث عن فلسفة التربية في الصفحات القادمة.

أما بالنسبة إلى مفهوم التربية فهي تعني في اللغة «تغذية الجسم وتربيته بما يحتاج إليه من مأكّل ومشرب ليشب قوياً معافى قادراً على مواجهة تكاليف الحياة ومشقاتها، فتغذية الإنسان والوصول به إلى حد الكمال هو معنى التربية، ويقصد بهذا المفهوم كل ما يغذى في الإنسان جسماً وعقلاً وروحاً وإحساساً ووجداناً وعاطفة» (١).

«إن التربية عملية مقصودة هادفة موجهة يقوم المربون من خلالها بخلق مواقف تربوية يكون من حصيلة تفاعل الفرد معها تغيرات في السلوك الإنساني، ويخلط البعض بين التربية وبين التعليم. فالتربية ليست مرادفة للتعليم، فهي تتناول شخصية الفرد كلها فهي أعم وأشمل» (٢).

«إن التربية هي تلك العملية الموجهة نحو تغيير السلوك الإنساني على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي بهدف أن يكون الفرد دائماً أحسن حالا من اليوم متوسلين في ذلك. يختلف الوسائط المعينة على تحقيق هذه المهمة» (٣)

يرى الدكتور اسحاق الفرحان أن التربية لا توجد في فراغ، بل هي وعاء وأساليب وإجراءات ينقل بها تراث الأمة من الأجداد إلى الأحفاد، ومن الآباء إلى الأبناء. وبوساطتها تتطور الحضارة عن طريق العلوم المتفجرة والمعارف المتزايدة

١ - عباس محجوب، أصول الفكر التربوي في الإسلام، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٧، ص ١٥.  
٢ - صلاح العرب عبد الجواد، اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢، ص ٣٤.

٣ - سعيد اسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، عالم المعرفة، الكويت، ١٩٨٧، ص ٣٧٠.

على نسق ينسجم مع نظرة الأمة ورسالتها في الحياة، كما تسهم التربية في تحليل المشكلات الاجتماعية المعاصرة، وتبلور لأجيال الشباب الحلول الفكرية السليمة بأساليب علمية مرضية لتكون انطلاقات الشباب في المجتمع أصيلة غير مستوردة ولا عرضية، بل نابعة من التراث ومتكيفة مع الأحداث على نسق يرضي طموح الشباب ويضمن لهم هويتهم ولأمتهم شخصيتها (١).

ويرى «الجمالي» أن التربية تعني كل المؤثرات الموجهة التي يراد منها أن تصوغ كيان الإنسان وتهدي سلوكه في كل نواحي الحياة جسدية كانت أم عاطفية، أم اجتماعية، أم فكرية، أم فنية، أم أخلاقية، أم روحية. فالتربية تشمل كل المنظمات، والعوامل، والأساليب، والطرق التي تدخل في نطاق الفعاليات التهديبية (٢).

فالتربية كما يراها «فينكس» عملية قصدية يتم عن طريقها توجيه الافراد الانسانيين لنمو الافراد الانسانيين (٣).

بينما يرى «جراتان» التربية على أنها من أوسع الميادين التي لا يمكن أن يحيط بها البحث، فهي لا تقتصر على ما نفعله من أجل أنفسنا، وما يفعله غيرنا من أجلنا، لتحقيق غرض محدد، وهو أن نقرب على نحو ما من اكتمال طبيعتنا. بل هي تضع أكثر من هذا، فهي بمعناها الواسع تشمل أيضاً العوامل غير المباشرة التي تؤثر في الاخلاق، وفي الملكات البشرية، عن طريق وسائل يختلف غرضها المباشر عن نتيجتها المقصودة كل الاختلاف (٤).

يرى الباحث أن التربية تعد وسيلة المجتمع الفعالة التي يستطيع عن طريقها تحقيق أهدافه الوجودية، والفكرية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية، والاقتصادية بما يتفق مع تصور أبناء المجتمع للوجود، وما ينبثق عن هذا التصور من مفاهيم، وعقائد، وأفكار. وذلك عن طريق استخدام المعلومات كافة، ومجموعة المعارف العلمية، والوسائل التربوية التي توصل إليها الإنسان في تأهيل أفراد

١ - اسحاق الفرخان، التربية الاسلامية بين الأصالة والمعاصرة، دار الفرخان، عمان، ١٩٨٣، ص ١٤.

٢ - محمد الجمالي، آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية، ص ١٢٧.

٣ - فيلكس هـ. فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب، دار النهضة العربية القاهرة، ١٩٦٥.

٤ - جراتان كلنتون، البحث عن المعرفة، ترجمة عثمان نوبه، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٢.



المجتمع كل حسب ميوله وقدراته الذاتية ليكونوا على أفضل مستوى فني في تقديم الخدمات المتعددة لمجتمعهم؛ لذلك فإن التربية تختلف من مجتمع إلى آخر، وذلك يعود إلى تصور أبناء المجتمع للوجود وما يعكسه هذا التصور من مفاهيم خاصة بالقضايا الوجودية الأساسية التي تشكل اهتمامات وطموحات الإنسان بعد تعرفه على حقيقة وجوده وطبيعة كيانه في ضوء ذلك التصور للوجود.

#### فلسفة التربية :

إن التربية تركز على القضايا التي تعالجها والتي تدور حول طبيعة الإنسان، والمجتمع، والحياة، والعلاقة بينها. والمربون في عملهم يشيرون كثيراً من القضايا التي تعالجها الفلسفة وذلك مثل ما يلي:

- أ- طبيعة الإنسان الذي نقوم بتربيته
- ب- طبيعة الحياة التي تود أن تقودنا التربية إليها
- ج- طبيعة المجتمع البشري
- د- طبيعة المفاهيم والقيم التي نتطلع إليها

إن مثل هذه العلاقة الوثيقة بين الفلسفة والتربية جعلت بعضهم يعرف الفلسفة بأنها «النظرية العامة للتربية» (١).

إن الفلسفة التربوية هي فهم التربية في كليتها الإجمالية، وتفسيرها بواسطة مفهومات عامة تتولى قيادة اختيارنا للغايات والسياسات التربوية... فهي تتضمن إذن تطبيق الفلسفة الصورية على ميدان التربية (٢).

كما عرف آخرون فلسفة التربية بأنها عبارة عن الإطار العام من الآراء والمعتقدات الفلسفية التي تدور حول الإنسان وحول العالم الذي يعيش فيه والتي توجه عملية تربية هذا الإنسان وتوحيدها وتحدد أهدافها ومناشطها (٣).

١ - صادق سميان، الفلسفة والتربية، محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢، ص ٨٨.

٢ - جورج ف. نيلو، مقدمة إلى فلسفة التربية (ترجمة نظمي لوقا)، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧، ص ٨-٩.

٣ - ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية، القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١، ص ٢٦.

فالتربية لا يمكن لها أن تنمو وتكتمل وتتواءم في ميدان التطور ما لم تستند إلى فكر فلسفي يغذيها بالجدة والابتكار والإبداع في عالم يسابق العلم ومنجزاته للفكر وتطلعاته. وما دمنا نسأل: لماذا نعلم؟ وكيف نعلم؟ فستبقى حاجة التربية إلى الفلسفة ملحة وضرورية (١).

إن الأهداف التربوية والغايات العامة التي يود الإنسان أن يحققها من خلال العملية التربوية تنبثق من فهم الإنسان للوجود وأسراره. وقد اختلفت آراء الإنسان واعتقاداته حول الوجود وأسراره، مما أدى إلى انعكاس ذلك على اختلاف أهداف الناس وغاياتهم. فالإنسان الذي فهم الوجود من خلال النهج الإلزامي فإنه كون مفهومًا خاصًا للوجود بشكل عام وللحياة الدنيا وقدرها في الوجود بشكل خاص. مما أدى إلى تشكيل مفاهيم، وأهداف، وغايات، وملوحات خاصة بهذا الإنسان تختلف عن تلك التي كونها الإنسان الذي اتبع نهجاً فلسفياً بشرياً في فهم الوجود وأسراره.

وفي ضوء ذلك فالمجتمع الذي لا يؤمن أفراداً إلا بالمعطيات المادية دون الاعتقاد بالذات الإلهية وما يتصل بالقضايا الميتافيزيقية تكون تربية أبناء هذا المجتمع قد أسست على قواعد وأسس تربوية تسعى إلى تحقيق أهداف هذا المجتمع التي لا تتعدى الجوانب المادية في ضوء الفهم الخاص لهذا المجتمع للحياة الدنيا. وعندها يكون المجتمع قد اتخذ من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه في ضوء مفهوم أبنائه للوجود وأسراره، والحياة الدنيا وحقيقتها في ضوء فهمهم لها. وهذا هو النمط التربوي الذي نشاهده في هذه الأيام في الدول المادية المتقدمة.

إن من أهم وأخطر المشكلات التي تواجه ميدان التربية في أي بلد هو فقدان هذا الميدان للقاعدة الأساسية التي تتمثل بالأسس الفكرية والأطر الفلسفية المنبثقة من فلسفة المجتمع. هذا مع العلم بأن هذه الأسس والأطر يجب أن تكون واضحة المعالم والاتجاهات لجميع فئات الشعب بشكل عام ولرجال التربية بشكل خاص حتى يتسنى لهم صياغة الأهداف التربوية العليا التي تعد بمثابة الطموحات والأهداف لجميع معتنقي تلك الفلسفة أو الفكر. وفي هذا الوضع تكون الأهداف التربوية العليا تشكل الهدف الشعبي العلمي التربوي العام الذي تسعى جميع الفئات المشتركة في العملية التربوية لتحقيقه بشتى الوسائل والأساليب. وبهذا المفهوم تصبح المؤسسات

١- النجار. فلسفة التعليم في دولة عربية. مجلة الفكر المعاصر. العدد ٧٢، ١٩٧١، ص ٢٤.

العلمية والتربوية المكان المخصص لبذل الجهود المشتركة لتحقيق الأهداف التي تمثل جميع قطاعات الشعب. بينما في حالة غياب الأسس والأطر الفلسفية في مجال التربية أو في حالة وجود أسس وأطر غير واضحة المعالم والاتجاهات حيث التناقض والتضارب الواضح بين تلك الأسس، فإن هذا الخلل الجسيم قد يؤدي إلى وجود مؤسسات علمية تربوية يكون طابعها العام الظاهري الصالح العام أما واقعها فيكون منتدب للصراع الشخصي إذ يسعى كل فرد أو ثلة إلى تحقيق مآرب وأهداف وشهوات شخصية بحتة على حساب الأهداف والأمنيات العليا لأبناء الشعب. وعندها تصبح الجهود المبذولة من قبل الأطراف المشتركة في العملية التربوية تتصادم بعضها ببعض بسبب سياسة الخندقة والتصادم التي لا تخدم إلا الأهداف والأهواء الشخصية. وبهذه المعطيات يصبح مستقبل الأمة وأهدافها رهينة لنزوات وأطماع وأهداف شخصية لمجموعة من الأفراد تتصف بالأنانية المفرطة وفقدان الإحساس نحو القضايا الوطنية. إذ ينظر كل فرد من هذه الجماعة إلى كل شيء من منظاره الشخصي دون الالتفات إلى المبادئ العامة والمصالح الوطنية.

أضف إلى ذلك بأن وضوح الأسس والأطر التربوية يمكن رجال التربية من صياغة المناهج التربوية للفروع كافة من أجل تحقيق الأهداف التربوية العليا المنبثقة من فلسفة المجتمع دون وجود أي تعارض في المناهج الدراسية مع تعدد فروعها ومواضيعها وعندها يمكن تأهيل الأفراد على أسس تربوية علمية سليمة تؤدي إلى وجود فئة متميزة تربوياً واجتماعياً وسياسياً وعقائدياً بما يتناسب مع فلسفة المجتمع المعني. وفي ظل هذه المعطيات فإن الأهداف والمناهج التربوية تواجه بحرارة وحساسية منقطعة النظير من جميع الأطراف المشتركة في العملية التربوية بسبب الشعور والاتجاه العام عند جميع الأفراد بأن هذه المناهج التربوية هي من أهم وأفضل الوسائل التي تمكنهم من تحقيق أهدافهم التربوية العليا التي تتفق بصورة كاملة مع معتقداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأحاسيسهم وشعورهم. وإذا لم تصمم المناهج التربوية على هذا الأساس الفكري التربوي السليم فإنه من الاستحالة على المناهج التربوية أن تؤدي إلى تحقيق الأهداف المنشودة التي تم تصميمها من أجل تحقيقها. هذا بالإضافة إلى وجود التعارض والتضارب بين المناهج الدراسية للمواضيع المختلفة.

### المدارس الفكرية والفلسفية للتربية :

لقد استخدم الانسان عبر تاريخه العديد التربية كوسيلة لتحقيق الأهداف المتعددة التي كان يرى فيها الانسان تحقيق سعادته وطموحاته. ولكن هذه الأهداف كانت وما زالت ومتبقى متجددة ومتنوعة من عهد إلى آخر. ومن قرن إلى آخر، ومن مجتمع إلى آخر. ومع هذه الاختلافات كلها فسي الأهداف بين القرون، والمهور، والمجتمعات، إلا أن التربية ما زالت ومتبقى الوسيلة الوحيدة التي يتسنى للإنسان عن طريقها تحقيق ما تشرب له النفس البشرية من أهداف تربوية عامة. كنا قد أوضحنا في الفصل الأول مفهوم الحياة الدنيا، وكيف اختلفت الآراء حول المفهوم الحقيقي للحياة الدنيا. وقد بينا في تلك الدراسة وجهة نظر الدين الإسلامي الحنيف للحياة الدنيا على أنها تعد المقدمة التي ينطلق من خلالها الانسان لنيل رضا الحق سبحانه وتعالى والفوز بعجنت النعيم في دار الخلود والسلام. وقد بينا وجهة نظر المدارس الفلسفية حول مفهوم الحياة الدنيا وكيف تمثل مركز اهتماماتهم ونهاية طموحاتهم، والسعي فقط لتحقيق ما تتوق له النفس البشرية داخل إطار الحياة الدنيا فقط. ففي الوقت الذي تشابهت فيه اهتمامات المدارس الفكرية حول هذه الأساسية. فقد اختلفت آراؤهم حول القضايا الوجودية الأخرى مما أدى إلى وجود الاختلاف في أهدافهم التي لا تتعدى إطار الحياة الدنيا. إن هذا الاختلاف الفكري حول القضايا الوجودية أدى إلى انعكاسات كبيرة في ماهية التربية ومحتواها التي يجب أن تطبق في مجتمع دون الآخر. وفي ضوء هذا الفهم للتربية فإن المجتمع الذي لا يؤمن إلا بالمعليات المادية دون الاعتقاد والتسليم بالأمور الميتافيزيقية، تكون تربية أبناء هذا المجتمع قد أسست على قواعد وأسس تربوية وعلمية تحقق لهذا المجتمع أهدافه التي لا تتعدى الجوانب المادية من هذه الحياة وما يهم الانسان فقط في حياته المادية بنسبة ما يسمى هذا الانسان إلى تحقيقها عن طريق إعداد شتى الجوانب المتصلة بالبرامج التربوية من وسائل متعددة وإمكانات بشرية ومادية. وبهذا يكون المجتمع قد اتخذ من التربية وسيلة لتحقيق أهدافه في ضوء نظرة أبناء هذا المجتمع للوجود ولحقيقة الحياة الدنيا. وهذا هو النمط التربوي الذي نلاحظه في هذه الأيام في معظم الدول المادية المتقدمة.

أما بالنسبة إلى المجتمع الذي يعتقد أفراد بالنهج الإسلامي كأطار فكري لهم

في الدنيا، فإن نظرة هذا المجتمع للوجود بما فيه الحياة الدنيا سوف تختلف عن نظرة أبناء المجتمعات الأخرى التي لا تؤمن بالنهج الإسلامي. ويمكن سر هذا الاختلاف بما يعكسه النهج الإسلامي من أفكار ومعتقدات وأنماط سلوكية في نفوس اتباعه. لذلك فإن أهداف هذا المجتمع الإسلامي تكون أشمل وأكبر من أهداف المجتمعات الأخرى، لذلك فإن التربية التي يمكن بواسطتها تحقيق أهداف هذا المجتمع سوف تختلف عن التربية في المجتمعات الأخرى بمقدار الاختلاف بين أهداف المجتمع المسلم التي تقودنا إلى غايات متصلة بحاضرنا ومستقبلنا في هذه الدنيا، وأهداف أخرى تقودنا إلى تحقيق غايات وجودنا في هذا الكون، وهي الفوز بجنت النعيم في الآخرة. هذا بجانب الاختلاف الشامخ بين النهج الإسلامي المتبع في المجتمع الإسلامي والأطر الفكرية الأخرى المتبعة في المجتمعات غير الإسلامية التي تؤثر بشكل قوي على برامج التربية وانعكاساتها الفكرية والسلوكية في شتى الميادين الحياتية. وسوف نورد المبادئ الأساسية للتربية في ضوء النهج الإسلامي بعد الإشارة إلى المبادئ الأساسية للتربية في ضوء المدارس الفلسفية المتعددة. لنرى معاً أوجه التشابه والاختلاف بين الطرفين.

#### (١) التربية في ضوء الفلسفة الطبيعية :

كما قد أشرنا في الفصل الأول إلى المبادئ الأساسية للمدارس الفلسفية المختلفة. بما فيها المبادئ الخاصة بالفلسفة الطبيعية التي تشكل في أذهان معتققيها مفهوماً خاصاً للحياة الدنيا، والكون وطبيعته، والإنسان وخصائصه ومكانته في الكون. هذا بجانب انعكاسات تلك المبادئ في التربية التي ينشدها الإنسان للوصول إلى آماله وملوحاته وأهدافه بمختلف مستوياتها. لذلك فإن هناك مبادئ أساسية للتربية في ضوء الفلسفة الطبيعية تختلف عن غيرها من المبادئ والأساسيات التربوية في ضوء الفلسفات الأخرى. ومن أهم الأساسيات التربوية ما يلي :

١- «العملية التربوية يجب أن تتعدى المجال الفكري لتشمل تربية العقل والجسم، دون التركيز على أحدهما على أساس الأفضلية.

٢- العملية التربوية يجب أن يتم طرحها بالوسائل الطبيعية للتلاميذ.

٣- التقدم بمستوى العملية التربوية يجب أن يتناسب مع مقدار التقدم عند التلاميذ في المستوى العقلي والجسمي.

- ٤- يجب إعطاء المعلومات التربوية للتلاميذ عندما يكونون جاهزين للتعلم. وعندها تكون العملية التربوية طبيعية.
- ٥- التربية يجب أن تشبع حاجات التلاميذ ورغباتهم.
- ٦- طالما أن الفرد أهم من الجماعة في ضوء الفلسفة الطبيعية، فيجب التركيز في العملية التربوية على أهداف وحاجات الفرد أولاً.
- ٧- تعد التربية عملية ديناميكية تفاعلية يجب أن يكون للطلاب فيها دور بارز في السيطرة على مجرياتها وأحداثها. وعلى هذا الأساس تكون التربية قد اشبعت الحاجات الطبيعية عند الطلبة.
- ٨- يكون دور المدرس في العملية التربوية موجهاً لمجرياتها ومساعداً للتلاميذ كيف يتعلمون المواد التعليمية.
- ٩- الثواب والعقاب يعدا جزءاً لا يتجزأ من العملية التعليمية شريطة أن تتم عملية الثواب والعقاب بشكل طبيعي منظم» (١).

#### (٢) التربية في ضوء الفلسفة المثالية:

يعد افلاطون، زعيم الفلسفة المثالية أول الذين تحدثوا في النظريات التربوية، فهو يعتقد أن الهدف الاسمي من التربية هو خدمة الدولة. لذلك فإنه يدعو إلى سيطرة الدولة التامة على العملية التربوية حتى يتم اعداد الاشخاص وتربيتهم بصورة تتناسب مع قدراتهم الفردية. هذا بجانب تأهيلهم للمستويات التي تسمح بها قدراتهم الذاتية. فالدولة يجب أن تستفيد من كل فرد من أبناء المجتمع حسب قدراته وامكاناته الذاتية بعد أن يتم توزيعهم على مجالات الحياة التي تناسب تلك الامكانيات والقدرات. ومن أهم الأسس التربوية التي تعكس المفاهيم التربوية العامة للمبانيء الأساسية للفلسفة المثالية ما يلي:

- ١- «يعد المعلم المثل الاعلى بالنسبة للتلاميذ كما أنه المسؤول الأول عن خلق الأجواء والظروف التعليمية المناسبة.

1- Butler, J. Donald. Four philosophies and their practice in Education and Religion, 3ded Harper and Row, New York, 1969.

- ٢- إثارة الدوافع والحوافز نحو التعلم في نفوس التلاميذ تعد من المهام الاساسية للمعلم.
- ٣- العملية التربوية تبدأ من رغبة المتعلم في التعلم والاعتماد على النفس على حين يقوم المعلم بدور الموجه والمساعد في إعطاء التوجيهات.
- ٤- يجب التركيز على النمو العقلي واشباعه بالمعلومات التي تساعد على تقوية القوى السببية أو الطرق المنطقية في التفكير.
- ٥- يجب أن يكون للعملية التربوية أهداف يسعى إلى تحقيقها عن طريق المحتوى المقدم للتلاميذ.
- ٦- تنمية وتطوير شخصية الفرد في شتى الجوانب المعرفية، والخلقية، والروحية عن طريق العملية التربوية.
- ٧- استخدام جميع الوسائل والأساليب التعليمية التي تساعد الطالب على مواصلة التعليم واكتساب المعرفة.
- ٨- العملية التربوية تفاعل ديناميكي لا يوجد مكان فيها للفرد السلبي أو الاتكالي.
- ٩- يقسم أفراد المجتمع إلى ثلاث طبقات حسب مؤهلاتهم التربوية التي أسست حسب قدراتهم الذاتية. أقلها تأهيل طبقة التجار، وأكثرها تأهيل وقدرة الطبقة التي تستلم زمام الأمور في الدولة، وتتوسط هاتين الطبقتين طبقة الجند» (١)

### (٣) التربية في ضوء الفلسفة الواقعية:

يعتقد ارسطو، زعيم الفلسفة الواقعية أن للتربية في ضوء الفلسفة الواقعية مبادئ أساسية تميزها عن غيرها من الأنماط التربوية الأخرى التي انبثقت من المدارس الفكرية الأخرى. يرى أن الهدف الاساسي الكبير للتربية يكمن في اعداد الفرد ليصل به إلى درجة الكمال الانساني، ولكي نستطيع أن نصل إلى هذا الهدف السابق فإنه يعتقد أن الدولة هي التي تكون بيدها جميع الأمور التربوية. فهي التي تقرر من من أبنائها الذين يجب أن ترعاهم برعايتها لما يتمتعون به من قوى ذاتية عالية. كما تقرر الموت على الذين يعانون من عيوب أو قصور خلقية.

١- المصدر السابق.

هذا بالإضافة إلى اعتقاده بحق الدولة في اختيار الزوجات لأبناء المجتمع. ويرى أن الغاية العليا من التربية تكمن في إعداد الأفراد من أجل خدمة المجتمع.

«ويرى فريمان (Freeman) أن أهم المبادئ الأساسية للتربية في ضوء الفلسفة الواقعية هي:

١- التربية من أجل الحياة. لذلك يجب أن تكون لها غايات وأهداف ذات فائدة عالية.

٢- التربية بحد ذاتها تعد هدفاً

٣- التربية يجب أن تكون منظمة وتتبع قوانين وإجراءات عملية، ولا يجوز أن تكون عرضة لتنظيم وتخطيط المعلم بأية حال من الأحوال.

٤- استخدام المقاييس والمعايير الموضوعية في شتى مجالات التربية.

٥- التركيز على البحث والأسلوب العلمي في العملية التربوية.

٦- تصميم المناهج على أسس وقواعد علمية.

٧- تنمية وتطوير قوة الفرد على التحليل، والتعليل، وإعطاء المسببات والأسباب لكافة الأشياء.

٨- أن تتم عمليتا القياس والتقويم على أسس عملية ثابتة.

٩- الدولة تسيطر على جميع مجريات العملية التربوية.

١٠- إعداد وتأهيل أبناء المجتمع للدفاع عن كيان الدولة. (١)

#### (٤) التربية في ضوء الفلسفة الوجودية:

قبل أن نشير إلى المبادئ الأساسية للتربية في ضوء الفلسفة الوجودية، فإذ مندوحة لنا من إبراز الحقيقة التالية للقارئ العزيز، وهي أن التربية في ضوء الفلسفة الوجودية لم تتعد الجهد النظري الخالص، أي أنها لم تطبق حتى هذه اللحظة في أي مكان على سطح الكرة الأرضية. ولكن فان (Van) اقترح عدة أساسيات للتربية في ضوء الفلسفة الوجودية حسب فهمه للأساسيات الكبرى التي

1- Freeman, Physical Education in a changing Society, Houghton Mifflin Company, U.S.A. 1977. pp.135.



تنطوي عليها الفلسفة الوجودية وهي :

- ١- يجب أن ينصب إهتمام العملية التربوية على حاجات الفرد وأهدافه.
- ٢- تهيئة الأجواء العملية والتربوية المناسبة للفرد يعد الدور الأساسي والأخير للمدرسة.
- ٣- تعطي الحرية التامة للفرد في اختيار المادة التعليمية وأسلوب التدريس لتلك المادة.
- ٤- دور المعلم في العملية التربوية يشمل إثارة حوافز التلاميذ نحو التعليم وتشجيعهم على الإبداع والابتكار.
- ٥- يجب أن يتعلم الفرد عن طريق التربية جميع مسؤولياته اتجاه نفسه وتنمية قدرته على اتخاذ القرارات الضرورية المناسبة في الظروف المختلفة.
- ٦- يجب أن تنعكس المعلومات والمهارات والخبرات التي تحتوي عليها البرامج التربوية في سلوكيات الفرد واتجاهاته (١).

#### (٥) التربية في ضوء الفلسفة البراجماتية :

يعتقد جون ديوي أن التربية يجب أن تركز على الفرد كعضو مشارك فعال في مجتمعه وليس كعضو له اهتمامات متباينة مع أهداف مجتمعه. لذلك فإنه يرى أن التربية يجب أن تنظر إلى اهتمامات المجتمع واهتمامات الفرد وتركز عليها جميعها دون الاهتمام بطرف على حساب الجانب الآخر. فالفرد لا يمكن أن ينمو تربوياً إلا من خلال جماعة. لذلك فالواجب على الفرد أن يخدم مجتمعه عن طريق إعداد وتطوير كافة قدراته ومواهبه الفردية.

يرى فريمان (Freeman) أن التربية في ضوء الفلسفة البراجماتية تنفرد ببعض المبادئ والاساسيات التي تميزها عن غيرها من الانماط التربوية الاخرى. وهذه المبادئ هي :

- ١- الفرد يتعلم من خلال العمل والتجربة.

1- Van Cleve Morris, Existentialism in Education: What it Means, Harper and Row, New york, 1966.

- ٢- التربية من اجل تنمية وتطوير الكفاية الاجتماعية.
- ٣- الدور الريادي للتربية يتجسد في اعداد الافراد وتأهيلهم لأخذ اماكنهم المناسبة في مجتمعهم.
- ٤- تلبية حاجات الافراد كل حسب قدراته ومواهبه الذاتية.
- ٥- يجب ان يتم جزء من العملية التربوية عن طريق حل المشكلات التي تقدم للافراد بهدف تنمية القدرة الابتكارية عندهم.
- ٦- يجب ان تنمي التربية عند الفرد النواحي الفكرية والجسدية.
- ٧- طالما ان الاهداف الاساسية للتربية في ضوء الفلسفة البراجماتية تكمن في اعداد الافراد المنتجين في مجتمعهم، فان التقويم يجب ان يركز على مدى انسجام وانتاجية الفرد في مجتمعه (١).

#### (٦) التربية في ضوء الفلسفة الشيوعية :

- للتربية في ظل الفلسفة الشيوعية مزايا ومبادئ تجعلها تختلف عن غيرها من الافكار التربوية الاخرى التي تنبثق عن المدارس الفكرية. فيرى لينين ان التربية للحياة الدنيا فقط ولا تتعدى اطرها السياسية والاجتماعية والثقافية. وهناك عدة مبادئ اساسية للتربية في ظل الفلسفة الشيوعية هي :
- ١- تهدف التربية الى تكوين العقلية الشيوعية عند ابناء المجتمع المعادية للرأسمالية. والملكية الفردية، والدين.
  - ٢- تنمية الروح الجماعية وتشجيع الخدمة الاجتماعية في نفوس ابناء المجتمع واخضاع اهداف الفرد ومصالحه الى اهداف مجتمعه
  - ٣- انكار الطبقة وازالة الفوارق بين الطبقات عن طريق توحيد التعليم لجميع ابناء الشعب.
  - ٤- سيطرة الدولة على جميع القضايا المرتبطة بالعملية التربوية.
  - ٥- اعداد الافراد للدفاع عن الدولة وتحقيق غاياتها.

٦- المساواة بين القوميات والاجناس ودفن النزعات العرقية ومكافحة العقائد الدينية، والاخلال للفكر الشيوعي وحزبه.

#### (٧) التربية في ضوء النهج الاسلامي:

يعد الحديث عن التربية في ضوء النهج الالهي من أصعب المواضيع التي يمكن ان يتولى القيام بها انسان، لما لهذا الموضوع من جوانب متعددة متداخلة ترافقها مدركات خاطئة استقرت في أذهان الناس عبر القرون الماضية، هذا بجانب الغياب الفعلي والواقعي للإسلام ومبادئه من ساحة التطبيق السليم لمدة طويلة من الزمن وما صاحب هذه الهدى من بث المفتريات وتفشي الممارسات المناهضة لمبادئ الإسلام في شتى ميادين الحياة تحت ستار الفتاوى الجائرة التي كان ينسجها فقهاء السلاطين من مخيلاتهم لتحقيق أهداف دنيوية للحصول على هبات أسيادهم والجلوس إلى فئات مواندهم وتولي مراكز قيادية في مجتمع شعاره المحاباة والمحسوبية وتحركة قوى المزاج والشهوة والانانية على حساب المبادئ الإسلامية الغراء التي تنادي بتطبيق القوانين العادلة بين الناس في شتى أمورهم الحياتية.

فالتربية في المجتمع المسلم تعد الوسيلة المثلى في توضيح وإرساء دعائم العقيدة والمثل والقيم في نفوس أبناء المجتمع وفق الإطار الفكري العام للنهج الإسلامي، وما يرافق ذلك من إعداد جميع أبناء المجتمع أفراداً وجماعات لحشد شتى طاقاتهم التربوية والعلمية وفق قدراتهم الفردية والجماعية بما يتناسب مع معطيات العصر الحضارية الذي يعيشونه لتحقيق الأهداف الفردية والجماعية التي ينشدها أفراد المجتمع المسلم وفق تعاليم الإسلام الغراء. فهذا النوع من التربية لن يكتب له النجاح أو التقدم إلا في مجتمع إسلامي يعيش مبادئ الإسلام اعتقاداً وسلوكاً في شتى جوانب الحياة ومظاهرها. فالذي يود أن يقحم نظاماً تربوياً إسلامياً في مجتمع لا يطبق تعاليم الإسلام في شتى أمور حياته مثله كالذي يود أن يجمع بين الأضداد التي لا يجمع بينها جامع، ويدل ذلك على الجهل الصارخ بخصائص الإسلام وطبيعته وماهية التربية ودورها في المجتمعات.

وفي ضوء هذا الفهم للتربية ودورها فلا يجوز بأية حال من الأحوال المقارنة بين التربية المبرمجة لتحقيق أهداف تربوية في المجتمع المسلم والتربية المبرمجة لتحقيق أهداف تربوية في المجتمعات البادية للفتاوت الكبير بين هذه المجتمعات

والمجتمع الاسلامي في الفهم الدقيق للحياة الدنيا وما يعكسه هذا الفهم من مفاهيم وتصورات في اذهان ابناء المجتمع تؤدي الى ولادة وصياغة اهدافهم الفردية والجماعية، هذا بجانب الإطار الفكري والاجتماعي العام للنهج الالهي وما يعكسه من انماط سلوكية وفكرية عند ابناء المجتمع المسلم. فالاهداف التربوية التي يسعى المجتمع المسلم لتحقيقها تتصل بدرجة عالية بالفهم الاسلامي الدقيق للحياة الدنيا وقدرها المحدد من الوجود بشكله العام. لذلك فان الاهداف التربوية لهذا المجتمع الرسالي لا تنحصر فقط في الحياة الدنيا وما يجري داخل إطارها كما يحدث في ضوء الأطر الفكرية الأخرى، بل تشمل طموحات وغايات ابناء المجتمع المتصلة بدار السلام والخلود التي وعد الله بها عباده المتقين. وانطلاقاً من التخطيط السليم في صياغة الاهداف التربوية العامة بطريقة علمية منطقية، لا بد من ان تكون المعادلة التي يتم من خلالها صياغة الاهداف المتعلقة بالحياة الدنيا تتفق مع قيمة هذه الحياة في ضوء الفهم الاسلامي السليم، وكذلك الحال بالنسبة للاهداف المتصلة باليوم الآخر. ومالمنا ان الفهم الاسلامي السديد للحياة الدنيا والآخرة يبين لنا بوضوح وجلاء ان الحياة الدنيا وما فيها من متاع وآمال تعد بمثابة دار الابتلاء والاختبار للفوز في اليوم الآخر، فان هذا الفهم الصائب الدقيق يجب ان ينعكس في مضمون الاهداف التربوية ونوعيتها للمجتمع المسلم، حيث تكون نهاية الاهداف وغاياتها تصب في تحقيق اهداف عامة سامية متصلة بالآخرة. اما بالنسبة للاهداف التربوية المتعلقة بالحياة الدنيا فيجب ان تكون جميعها بمثابة الاهداف القريبة الاجل التي تقودنا الى الاهداف السامقة التي توصلنا الى دار الخلود والسلام في جنات عدن التي اعدّها الحق سبحانه وتعالى لعباده المخلصين.

ان الذين يريدون ان يقارنوا بين التربية في ضوء النهج الاسلامي وبين التربية في ظلال الأطر الفكرية الأخرى يجب عليهم ان ينطلقوا من معادل الاختلاف الرئيسة ليصلوا الى مدرة الصواب في عملية المقارنة. إن الفرق الشاسع بين النهج الاسلامي والأطر الفكرية البشرية ينعكس تلقائياً وبصورة كاملة في مختلف الجوانب والاسس الاساسية للتربية. لذلك فان الذين يريدون تطبيق مبادئ وانظمة تربوية وما يتبعها من اهداف، ومناهج، واماليب، وطرق قياس وتقويم، وفلسفات تعليمية متبعة في الدول الغربية في مجتمع اسلامي، انما يريدون سلخ ابناء هذا المجتمع الاسلامي عن هويتهم الفكرية التي ينظرون من خلالها الى حقائق

الكون والوجود ليفدوا تبعاً للأطر الفكرية البشرية التي لا تتعدى مبادئها الحياة الدنيا وما جسد فيها من مفاتن وزخارف تشد الانسان بشهواته اليها. وبهذا يكونون كقوم موسى عندما طلبوا من نبيهم موسى عليه السلام ان يجعل لهم آلهة من المخلوقات المحسوسة وهو يدعوهم الى الانابة للواحد الأحد سبحانه وتعالى. نعم انهم يريدون ان يعبدوا عجلاد أصم من دون الحق سبحانه وتعالى لأنهم لا ينطلقون إلا من قناعاتهم بالامور المحسوسة الملموسة فقط وما تعود عليهم هذه القناعات من اهداف مادية. ان مجاراتنا للغرب أو للشرق في ميدان العلوم والمعارف الحضارية لن تكون أبداً عن طريق تطبيق انظمتهم وقوانينهم ونظرياتهم الاجتماعية والتربوية في مجتمعاتنا كما يفهمه دعاة هذا التوجه، والسبب وراء ذلك يعود الى ان هذه الانظمة والقوانين والنظريات الاجتماعية والتربوية أسست وبنيت في ضوء نظرتهم للوجود بشكله العام والحياة الدنيا بشكلها الخاص، ودور الانسان وطبيعته في هذا الوجود. فاذا اردنا ان يكون مفهومنا الفكري للوجود كمفهومهم الذي يقتصر على الامور المادية فقط. فعندها يمكن ان تكون هذه الانظمة والقوانين والنظريات صالحة للتطبيق بين ظهرانينا. وفي تلك الحالة يكون الاستعمار والغزو الفكري الثقافي لنا قد حقق جميع مقاصده واهدافه.

اما اذا اردنا ان نحقق قفزات علمية تربوية باهرة تجعلنا نتقدم نحو الصفوف الاولى مع الامم والقوميات الاخرى، بل نكون افضلها على الاطلاق كما كان سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمته في صدر التاريخ. فيتوجب علينا ان نمارس جميع معتقداتنا الفكرية في مختلف جوانب الحياة ونأخذ جميع ما توصل اليه الغرب والشرق بما ينسجم مع نهجنا الاسلامي مع بذل الجهد الحثيث المتواصل لسد الفجوة العلمية بيننا وبينهم والتزاحم معهم على الاكتشافات والاختراعات العلمية المتعلقة بشتى شؤون الحياة. واننا سنجد عند تلك المرحلة ان القرآن الكريم سيكون بمثابة الموجه والمرشد العام لمسيرتنا العلمية لما يحتوي بين ثنايا آياته الشريفة من علوم دفينه.

لقد سبقنا الغرب في الاكتشافات المتصلة بعلم الأجنة على الرغم من مراحل تكوين الجنين موجودة في الآيات القرآنية الكريمة منذ مرحلة تنزيل القرآن على قلب محمد صلى الله عليه وسلم وكنا نتلوها ليلاً نهاراً في مختلف الامصار ومشتى بقاع الارض دون ان تثير فينا روح البحث العلمي والفضول المعرفي. وهناك الشيء

الكثير من العلوم والمعارف التي نمر عليها مروراً سريعاً دون الوقوف عندها والتأمل في ابعادها، والقيام بالبحوث العلمية حولها للوصول الى ابعادها وغاياتها. وهذا يعود بالطبع الى خصائص التاريخ الاسلامي وما صنعه المسلمون في المجهود السابقة من امور كثيرة هي في حقيقتها مخالفة للاسلام وروحه وللقرآن الكريم وآياته وللسنة النبوية الطاهرة ومدلولاتها مما جعل التخبط واضحاً جلياً في المجتمعات الاسلامية عبر التاريخ بين الشعار الاسلامي المرفوع، والممارسات اليومية في شتى ميادين الحياة لمختلف فئات المجتمع. ولكي نصل الى جذور مشكلاتنا الرئيسية والتعرف الى الحلول المنهجية الاسلامية الصحيحة لها لا بد من الاشارة بصورة سريعة الى الامور والاحداث التي أدت الى ظهور الخلل والفساد في المجتمع الاسلامي وما أسس على هذه الاحداث من مدارس فكرية مذهبية زادت بشكل مباشر من إثارة الخلافات والفتن هذا بجانب الافتئات على الآيات القرآنية عن طريق اخراجها عن مداراتها السليمة لتسويغ انحرافات معينة من جانب، ومهاجمة المذاهب الاخرى من جانب آخر، وما صاحب ذلك من الدس والوضع في سيرة نبينا الطاهرة، واخراج الأحاديث النبوية عن معانيها النبيلة للوصول الى اهداف شهوية، حتى ان المسلمون على مر الأيام اموراً في شتى امورهم الحياتية تخالف النهج الاسلامي المبين. فوجدوا انفسهم في وضع لا يحسدون عليه من التخلف، والتبعية، والانقسام، والفوضى الفكرية التي تعج وتموج في اذهانهم. ليشكلوا بذلك اسوأ نموذج انساني عن الاسلام الذي مسخ في اذهان غير المسلمين بسبب الانحرافات الحادة والتناقضات العجيبة، والشهوات المفرطة، والدكتاتوريات المطلقة التي تفوح بنسائها المجتمعات الاسلامية. هذا بجانب الاحداث المفجعة المخجلة التي تحدث بين الفينة والاخرى بين المسلمين، مثل القتل، والتعذيب، والتشريد، والظلم، والاستبداد، واطلاق الشهوات، واعطاء الولاية للفرب والشرق ضد الاسلام وأهله. ان جميع هذه الامور تحدث مع الاسف الشديد تحت شعار الاسلام المعتدل تارة والاسلام الحديث تارة اخرى. حتى أصبحنا نعيش في مجتمعات اسلامية لا تطبق شيئاً واحداً نقياً من القرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة. ان الذي نراه اليوم من الجمود، والتخاؤل، والوقوف مع المشركين، والانحراف الحاد عن تعليمات النهج الإلهي هو نتيجة الانحراف المتراكم عبر العصور الماضية في المجتمعات الاسلامية.

ان هذه المجتمعات التي انحرفت عن النهج الاسلامي في مختلف الجوانب

السياسية، والفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية، والقضائية، والتربوية. هي بحاجة الى هوية فكرية تسيّر في ضوئها ويتم الاحتكام اليها في شتى القضايا الحياتية. اما ان نبحث عن الحلول الاقتصادية او التربوية في مجتمع ليس له هوية سوى اشباع الشهوات بطريقة مفرطة عن طريق الظلم والاستبداد، والمحاباة، والازدواجية في اتخاذ القرارات. اننا بهذا العمل نطلم الاسلام الذي نبحت فيه عن حلول جزئية لمجتمعات تسودها الشهوة واللذة، والعداوة للاسلام. ان هذه العداوة سواء التي تحصل داخل المساجد واروقة المجتمع الاخرى حتى تصل الى اعلى مراتب الدولة في التعامل مع اعداء الاسلام ضد ابناء المجتمع المسلم تمثل العدو الاول لأي تجمع اسلامي يريد ان يشق طريقه بين صفوف المسلمين بهدف تنقية المفاهيم الاسلامية الهابطة التي استقرت في أذهان الناس عبر العصور السابقة والعودة بهم الى منابع النهج الاسلامي الحقيقية.

ان الذين يبحثون وراء نظرية تربوية اسلامية أو نظرية اقتصادية اسلامية أو نظرية اجتماعية اسلامية أو الى غيرها من النظريات. عليهم أولاً أن يعوا الحقيقة التالية وهي ان الاسلام يمثل نظاماً حياتياً شاملاً للانسان في مجتمع مسلم. وان هذه النظريات والافكار الاسلامية تمثل التكامل والتناسق بعضها مع بعض ولا يجوز عليها التجزئة لأنها جميعاً تنبثق من مصدر واحد أو تتفق معه وهو النهج الالهي المنير. لذلك لا بد من وجود المجتمع المسلم الذي يطبق النهج الاسلامي في مختلف جوانبه المتعددة اولا ثم يتم بعد ذلك البحث والتنقيب لايجاد الحلول لأي مشكلة قد تنشأ في المجتمع المسلم الفاضل. اما ان نقضي الوقت الطويل في البحث عن الحلول الاسلامية الجزئية لمجتمعات لا تطبق النهج الاسلامي في سائر امورها الحياتية. فهذا يمثل التخبط وعدم وضوح الرؤية بجانب تضییع الوقت الذي امرنا باستخدامه بما يرضي الله سبحانه وتعالى.

ان رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم وصحبه الابرار استطاعوا بالفكر الاسلامي ان يكونوا خير امة اخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وذلك يعود الى مسيرتهم الصادقة السليمة في ضوء الاسلام. ففي الوقت الذي كانوا فيه يرسمون دعائم الاسلام في الارض، كانوا يطلبون تحقيق اهدافهم الدنيوية بشتى الوسائل المعروفة لديهم في ذلك الزمن بما ينسجم مع الفكر الاسلامي. وقد ظهر ذلك في مختلف امورهم المدنية والعسكرية والاجتماعية

بصورة منقطعة النظير في الانسجام بين طلبات الدنيا واهداف الآخرة، وما رافقه من فهم سديد للفكر الاسلامي وما يعكسه هذا الفكر على الامور المتعلقة بالحياة الدنيا والامور المتعلقة بالآخرة. وقد مضت الصورة المشرقة في المجتمع الاسلامي بمجملها العام حتى مقتل سيدنا عثمان وما سبقها من بعض الاحداث المؤسفة التي أدت الى ظهور الخلافات الحادة في المجتمع المسلم، وقد وصف لنا الامام علي كرم الله وجهه حالة المسلمين عندما انثالوا عليه ليقبل منهم البيعة عليه السلام.

«دعوني والتمسوا غيري فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول. وإن الأفاق قد أغامت والمحجة قد تنكرت. واعلموا أنني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ الى قول القائل وعتب العاتب. وإن تركتموني فإننا كأحدكم ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم. وأنا لكم وزيراً خبير لكم مني أميراً» (١).

واضح من قوله عليه السلام ان المجتمع المسلم مقبل على عدة سبل بعدما كان هذا المجتمع الرسالي جاثماً على الطريق المستقيم. ولكن لابتعاد قسم من الناس عن هذا الطريق القويم مع استخدام الوسائل المتعددة للدلتافاف على الحقائق الناصعة، جعل هذا الطريق نكراً لبعض الناس في المجتمع الاسلامي إما جهلاً به وإما قصداً لتلبية أهواء ومقاصد ذاتية. وقد أدى هذا الوضع الفوضوي للمجتمع المسلم الى ولادة عدة مدارس مذهبية زادت من مظاهر الانقسام والخلافات. وكلما تقدم الزمن بالمجتمع المسلم أدى ذلك الى نشوء مدارس مذهبية متعددة تنخر المجتمع الاسلامي وتفت عضده سواء على المستوى الفكري العام، ام المستوى التربوي والاجتماعي. ومضت الامور بين مد وجزر من حيث القوة العسكرية للمجتمع المسلم حتى هزمت الامبراطورية العثمانية امام الحلفاء وتم تقسيم المجتمع الاسلامي الى عدة مجتمعات اقليمية وقومية مع ارساء دعائم الخلافات والبغضاء وتشبيتها بين تلك المجتمعات، هذا بجانب بث الافكار القومية والاقليمية بين اوساطها لإثارة الفتن والاحداث الدائمة والمستمرة داخل المجتمع الاسلامي. كل هذه المؤامرات والاحداث تجري في المجتمع الاسلامي المقسم في الوقت الذي يسعى فيه الغرب والشرق للوصول الى ذروة المجد في التقدم العلمي والتكنولوجي والحضاري. اما المجتمعات الاسلامية المفتتة فما زال الخلاف يستشري في شرايينها الرئيسة حول الشعارات الفكرية

١- نهج البلاغة، الجزء الاول، صفحة ١٨١ - ١٨٢.



المرفوعة .

وبعد هذا الغياب الطويل للإسلام ومبادئه عن التطبيق الشامل لجميع أفكاره وقيمه داخل المجتمع الإسلامي وما يعكسه هذا التطبيق على التربية وأسسها داخل المجتمع الإسلامي ، لا بد لنا من التعرف إلى التربية ومبادئها الهامة في ضوء النهج الإسلامي معتدين بذلك على القرآن الكريم وسنة نبينا الأمين بجانب ما توصل إليه الإنسان من معلومات ومعارف تربوية تنسجم مع الأطار الفكري العام للمجتمع الإسلامي .

إن أهم الفروقات التي تميز المجتمع الإسلامي عن غيره من المجتمعات إن المجتمع الإسلامي تسري بين جنباته وداخل مؤسساته أنماطاً تربوية مميزة وشجرت وأسست على مفاهيم خاصة للإنسان والكون الفيزيقي والميتافيزيقي ، والفهم الدقيق الساطع للحياة الدنيا شكلت هذه المفاهيم الحقيقية أنماطاً سلوكية خاصة يتميز بها أفراد المجتمع الإسلامي عن غيرهم من البشر . فالقرآن الحكيم وسنة نبينا الكريم يمثلان المصدر الوحيد للتربية العامة في المجتمع الإسلامي وكل ما يتصل بهذه التربية من أهداف عامة ، ومناهج أسست على علم شامل ودقيق غير قابلة للشك والفساد ، والتجديد ، لأنها صالحة لكل زمان ومكان ، وللبشر كافة بمختلف ألوانهم وجنسياتهم . هذا بجانب نظام القياس والتقويم الفريد الذي يحتوي عليه الدين الإسلامي . إن جميع هذه الحلقات الأساسية التي تكون العملية التربوية العامة في المجتمع المسلم هي ثابتة ، وشاملة ، وصالحة لكل زمان ومكان ، ولجميع أنواع البشر على اختلاف أجناسهم وألوانهم . وأما الجانب التعليمي المتصل بهذه العملية التربوية فهو العنصر المتغير في العملية التربوية ليناسب الإنسان عبر تاريخه وتقدمه الحضاري وما توصل إليه من معلومات ومعارف عن طريق جهده المتواصل في البحث والتنقيب عن كافة الأمور المحيطة به في وقتنا الحاضر وما سيصل إليه في المستقبل من معلومات ومعارف ، ووسائل تعليمية .

إن العملية التعليمية في المجتمع الإسلامي تحتاج إلى إنشاء مؤسسات علمية تربوية لتولي المهام العلمية التربوية في إعداد وتعليم أبناء المجتمع المسلم بما ينسجم مع الأطار الفكري العام للمجتمع لكي يكون العلم في خدمة المجتمع وأبنائه ، وتكون التربية في حلقاتها الثلاث : الأسرة ، والمجتمع ، والمؤسسة العلمية ، تسير جميعها وفق إطار فكري واحد بعيداً عن التناقض والازدواجية ، ويكون بعضها

مكيدا للآخر دون ظهور أي تعارض. إن المشكلة الأساسية التي تنخر المجتمعات الإسلامية جاءت من التناقض الموجود بين الشعار الإسلامي المرفوع وبين الانماط الاجتماعية والسلوكية الممارسة في تلك المجتمعات، والأفكار التربوية المناهضة للإسلام وتعليماته التي تعج بها المؤسسات التربوية، والتربية الاسرية المغايرة في أغلب الظروف للانماط الاجتماعية السائدة في المجتمع والبرامج التربوية المطبقة في المؤسسات العلمية. لذلك فإن المؤسسات العلمية التربوية في المجتمع الإسلامي يجب أن تكون هويتها الفكرية إسلامية، وجميع ما يجري في أروقتها من أبحاث علمية سواء أكانت في الجوانب الإنسانية أم في الجوانب العلمية التطبيقية تسير وفق الفكر الإسلامي. وما يرافق تلك البحوث العلمية من ممارسات، وانماط سلوكية، وأساليب إدارية يجب أن تنسجم مع روح الإسلام وجوهره.

إن التعليم في ضوء التربية الإسلامية للمجتمع المسلم يعتمد على مبادئ أساسية منامية وهي:-

- ١- الاعتقاد التام بجميع ما جاء في القرآن الكريم وما ثبت من سنة نبينا الكريم مع وضع جميع ما جاء فيها حيز التطبيق في مختلف شؤون الحياة ومتطلباتها بما ينسجم مع المراحل التي يمر بها المجتمع الإسلامي.
- ٢- التعامل مع الذات الإنسانية وحدة واحدة دون التركيز على جانب دون آخر.
- ٣- العقل الإنساني مقيد ذو قوة متناهية فلا يجوز إقحامه في الأمور التي لا يقوى عليها، هذا بجانب استخدامه إلى أقصى الغايات في الأمور التي تقع ضمن قدراته وطاقاته ومثله.
- ٤- الإيمان بالغيب كما جاء من عند الله سبحانه وتعالى دون محاولة التحديق في مكوناته لأن علمه خارج عن قدرات الإنسان، وخص الحق سبحانه وتعالى علم الغيب بذاته.
- ٥- تكافؤ الفرص أمام أفراد المجتمع المسلم في شتى الأمور المتعلقة بالعملية التربوية وعلى امتداد مراحلها.
- ٦- يقوم كل فرد من أفراد المجتمع ببذل قصارى جهده حسب ما وهبه الحق سبحانه وتعالى من قدرات وطاقات خاصة به لتحقيق الأهداف الفردية والجماعية للعملية

التربوية بما ينسجم مع تعليمات الدين الاسلامي .

٧- الاعتماد على مبدأ الشورى في اتخاذ القرارات في مختلف الامور التربوية التي لم يرد فيها نص قرآني حكيم، أو حديث نبوي شريف.

٨- المشرف الاول على اعمال الفرد المتعددة وفي جميع الجوانب والمراحل تقوى الله الذي استقر في قلب الفرد المؤمن انعكاساً لاعتقاده السليم بالذات الإلهية وما يدور حولها من قضايا وجودية متصلة بالكون الفيزيقي والميتافيزيقي .

٩- استخدام مختلف النظريات والاساليب المتبعة في المناهج الدراسية، واساليب التعليم، والقياس والتقويم بما ينسجم مع النهج الالهي وتعليماته.

١٠- العلم واجب على كل مسلم قادر على القيام به ويجب على الدولة الاسلامية بذل جميع الجهود لتوفير المؤسسات العلمية لكافة ابناء المجتمع وتسهيل ذلك حسب ظروف الدولة وامكاناتها.

١١- تعليم الافراد وتفجير طاقاتهم الكامنة حسب قدراتهم الذاتية التي وهبها الحق سبحانه وتعالى بقدره للأفراد.

١٢- تلبية ميول ورغبات الافراد في انتقاء المجالات التخصصية التي يريدونها.

١٣- إثارة الدوافع وتشكيل الحوافز عند ابناء المجتمع على طلب العلم دون اللجوء الى اجبارهم أو توجيه العقوبة لهم لأن الاندفاع نحو العلم يجب ان يكون ذاتياً ينبع من داخل الفرد.

١٤- التعامل مع مختلف الافراد الانسانيين داخل المؤسسات التربوية وخارجها في ضوء نظرة الاسلام للانسان وما تفيد به البحوث الانسانية التي تجرى على الافراد المسلمين في مجتمع مسلم يطبق جميع تعليمات الاسلام في شتى امور الحياة.

١٥- يطلب العلم النافع الذي يعود بالخير على الانسان في ضوء النهج الاسلامي للخير والشر.

١٦- يتم التركيز على انواع العلوم والمعارف التي تساعد بقدر اكبر على تحقيق الاهداف التربوية العامة للمجتمع المسلم.

## أهداف التربية

تسعى التربية في المجتمع الاسلامي الى تحقيق الاهداف التربوية التالية :

- ١- تمكين الانسان من تحقيق الغاية الوجودية التي خلق من اجلها وهي عبادة الله سبحانه وتعالى والفوز برضاه.
- ٢- تأهيل الانسان وفق المعتقدات الفكرية، والانماط السلوكية، والقوانين والانظمة الانسانية في شتى امور الحياة ليفوز في الامتحان الشامل الذي أقره الحق سبحانه وتعالى على الانسان في الحياة الدنيا.
- ٣- تقود الانسان وتوجهه نحو مصدر الخير والهدى سواء في وجوده المؤقت في الحياة الدنيا أم في وجوده الخالد في اليوم الآخر.
- ٤- تساعد الانسان وتقوي من شكيمته في مقاومة عدوه اللدود ابليس والتخلص من احابيله وتسويلاته.
- ٥- تساعد الانسان على إرساء قواعد العدل وتشبث دعائم المساواة بين الناس في مختلف قضاياهم الحياتية.
- ٦- تساعد الانسان في الوصول الى أعلى منزلة بين سائر المخلوقات.
- ٧- تحرير العقل الانساني من ضغوط الشهوات والمحافظة على مكانته القيادية في ذات الانسان.
- ٨- تحرير العقل الانساني من مختلف الخرافات والاساطير التي تدور حول الكون الميتافيزيقي والكون الفيزيقي.
- ٩- تساعد الانسان على التركيز على جانب الخير في ذاته والابتعاد عن جانب الشر وما يعكسه من اعتقادات فاسدة وانماط سلوكية هابطة تؤدي الى اثاره الفحشاء والبغضاء والعداوة بين الانسان وأخيه.
- ١٠- تسعى الى بث التعاون والإخاء بين الناس ونبت شتى الافكار والاساليب التي تؤدي الى الاستكبار، والاستعلاء، والتفوق العرقي.
- ١١- تعميق جذور الايمان ورفع مستوى التقوى في نفوس التلاميذ لتكوين واعداً الانسان الصالح.
- ١٢- تنمية روح الجهاد والتضحية بالنفس من أجل المبادئ السامية التي ينادى بها النهج الالهي.
- ١٣- تأهيل أفراد المجتمع بمختلف العلوم والمعارف التي تساهم في تحقيق اهداف

المجتمع المسلم بما يتفق مع النهج الإلهي وما ينسجم مع التطور الحضاري  
الإنساني عبر العصور والقرون.

١٤- أعداد أفراد المجتمع بشكل علمي تربوي سليم يسمح لهم بدرء الشبهات عن  
الإسلام ومجتمعه، والمساهمة الفاعلة في عملية الغزو الفكري والصراع  
الأيديولوجي على المستوى العالمي في شتى المجالات والمحافل العلمية  
والسياسية، والاقتصادية، والعسكرية، والرياضية.

١٥- أعداد الدعاة وتأهيلهم بمختلف العلوم والمعارف التي تسمح لهم بتوصيل رسالة  
الحق سبحانه وتعالى للإنسان وتوضيح معالم الحق والهدى للناس كافة بما  
ينسجم مع تعليمات النهج الإلهي وما يتفق مع المفاهيم العلمية الحديثة  
والأساليب الحضارية المتقدمة التي يشهدها العصر الحديث.

وختاماً القول أن التربية تختلف من مجتمع إلى آخر حسب الأطوار الفكري  
أو الفلسفي العام للمجتمع الذي تطبق فيه التربية. وينعكس الاختلاف على المبادئ  
التربوية العامة والأهداف العامة للتربية، مما يؤدي تلقائياً إلى الاختلافات في  
المناهج الدراسية، والأساليب التربوية، والأنماط السلوكية داخل المؤسسات العلمية  
وخارجها.

## المراجع العربية

- ١- ابراهيم الشافعي، الاشتراكية العربية كفلسفة للتربية. القاهرة، مكتبة النهضة، ١٩٧١.
- ٢- اسحاق الفرخان، التربية الاسلامية بين الاصاله والمعاصرة، دار الفرقان، عمان، ١٩٨٣.
- ٣- الشيخ الركابي، خطاب الحرية في النظام الايسيتيمولوجي، دار النهضة الاسلامي، بيروت، ١٩٩٠.
- ٤- جراتان كلنتون، البحث عن المعرفة، ترجمة عثمان نويه، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٦٢.
- ٥- جورج ف. نيلو، مقدمة الى فلسفة التربية (ترجمة نظمي لوقا)، القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٧٧.
- ٦- حسن ابراهيم عبد العال، مقدمة في فلسفة التربية الاسلامية، دار عالم الكتب للنشر والتوزيع، الرياض، ١٩٨٥.
- ٧- سعيد اسماعيل علي، الفكر التربوي العربي الحديث، عالم المعرفة، الكويت ١٩٨٧.
- ٨- صادق سمعان، الفلسفة والتربية، محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٦٢.
- ٩- صلاح العرب عبد الجواد، اتجاهات جديدة في التربية الصناعية، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢.
- ١٠- عباس محجوب، اصول الفكر التربوي في الاسلام، دار ابن كثير، دمشق، ١٩٨٧.
- ١١- عبد الحميد احمد ابو سليمان، ازمة العقل المسلم، مكتبة المنار، الزرقاء، الاردن، ١٩٩٢.

- ١٢- عبد الله دخيل الفياض، تاريخ التربية عند الامامية، الدار المتحدة للنشر، العراق، الطبعة الثانية، ١٩٨٢.
- ١٣- علي خليل ابو العينين، فلسفة التربية الاسلامية في القرآن الكريم، دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- ١٤- فينكس هـ، فلسفة التربية، ترجمة محمد لبيب، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٥.
- ١٥- محمد الجمالي، آفاق التربية الحديثة في البلاد النامية.
- ١٦- محمد حسين فضل الله، اسلوب الدعوة في القرآن، دار الزهراء، بيروت، ١٩٨٢.
- ١٧- محمد عثمان نجاتي، القرآن وعلم النفس، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٩.
- ١٨- النجار، فلسفة التعليم في دولة عصرية، مجلة الفكر المعاصر، العدد ٧٢، ١٩٧١.
- ١٩- نهج البلاغة، الجزء الاول، شرح الشيخ محمد عبده، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

## المراجع الأجنبية

- 1\_ Butler, J. Donald. Four philosophies and their practice in Education and Religion , 3 ded. Harper and Row, New york, 1969.
- 2\_ Freeman , Physical Education in achanging society , Houghton mifflin Company. U.S.A. 1977.
- 3\_ Van Cleve Morris , Existentialism in Education : what it Means, Harper and Row, New york , 1966.



## الفصل الثامن

## الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة

## الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة

هدفت الدراسة الى توضيح الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة وكيف انعكست على أهداف الإدارة وأنماطها الادارية. وقد اشار الباحث الى اغلب النظريات الادارية والاساليب الادارية المتعددة التي ابتدعها الانسان لتحقيق اهدافه وطموحاته ، كذلك بين الباحث مبادئ الادارة واسلوبها في ضوء الفكر الاسلامي. وقد تبين ان هناك فروقات واضحة بين النظريات الادارية وانماطها الادارية التي ابتكرها الانسان وبين المبادئ الادارية واسلوبها الاداري في ضوء الفكر الاسلامي حول فهم طبيعة الانسان واهدافه في هذا الوجود ، وكيفية التعامل معه .

## الأبعاد الفكرية والفلسفية للإدارة

### مقدمة :

يعود تاريخ الإدارة الى فجر تاريخ الانسان حين مارس الإدارة على ابناء جنسه على امتداد الحقب التاريخية. لقد مارسها وهو في العصور الحجرية عندما كانت التجمعات البشرية قليلة العدد ومحدودة الغايات والاهداف. وقد رافقت الإدارة الانسان في تقدمه الحضاري، وكانت من الاسباب المباشرة في هذا التقدم الحضاري للانسان حتى يومنا هذا. وسوف تبقى الإدارة تلعب الدور البارز في تقدم الانسان نحو تحقيق اهدافه وغاياته.

تعد الإدارة من الضروريات الاولى للانسان إذ يستطيع الانسان من خلالها وعن طريقها الوصول الى غاياته واهدافه المنشودة وفق دائرة معلوماته عن نفسه، وعلاقة الانسان مع أخيه الانسان، وعلاقة الانسان بالوجود، ومكانته في العالم، وفهم الانسان للحياة الدنيا، وما تعكسه هذه المعلومات عن تلك القضايا الحساسة على تصرف الانسان في الظروف المختلفة. لذلك تعددت الانماط الادارية ومفاهيمها بسبب تعدد مفاهيم الانسان ومنطلقاته حول القضايا السابقة. فإذا عطفنا بنظرنا الى صفحات التاريخ الانسانية فإننا نجد التفاوت الكبير في السلوك الاداري عند الانسان، حيث نجد النمط الاداري الفرعوني، كما نجد شريعة حمورابي وطريقته في الإدارة، كما نلاحظ المفاهيم العشائرية، والتبعية للإدارة، هذا بجانب رؤية المفاهيم المنظمة للإدارة في نظام الامبراطوريات السابقة. ويضاف الى هذه الانماط الادارية الطريقة الرسالية في الإدارة التي كان يتحلى بها انبياء الله ورسله عليهم صلوات الله وسلامه جميعاً.

### الإنسان والإدارة:

يعد الانسان العامل الاول والأخير بالنسبة للإدارة. ولولا الانسان وغاياته واهدافه لما عرفت الإدارة وما تم اكتشافها. ولكن الانسان تعامل مع الإدارة على اساس انها السبيل الوحيدة الذي يوصله الى ما تشرب له النفوس والى ما ترونو له الطموحات والآمال. فالانسان يعد مخلوقاً غائياً خلقه الباري عز وجل بهذه الصورة البديعة والقدرات المتميزة. فهو يسعى باستمرار الى تحقيق غاياته، كما انه لا يقوم بأي عمل إلا من اجل غاية معينة. لذلك فإن المحرك الاول بالنسبة للانسان هي غاياته

التي يسعى الى تحقيقها. وقد تختلف بعض هذه الغايات عن بعض. فمنها ما يستطيع الانسان الفرد ان يحققها عن طريق جهوده الفردية، ومنها ما يريد العون والمساعدة من اناس آخرين ليقوى على تحقيقها. لذلك توجه الانسان بكل ما أعطي من قوة الى الادارة منذ فجر تاريخه. وسوف يبقى هذا الرباط القوي، والاعتماد المباشر من الانسان على الادارة لتحقيق غاياته واهدافه حتى نهاية الحياة الدنيا.

اننا في الوقت الذي نقر ونعترف فيه بأن الانسان كائن غاني في جميع تصرفاته وأفعاله، فإننا نعترف في الوقت نفسه أيضاً بأن الغايات الانسانية يختلف بعضها عن بعض. كما ان غايات الانسان الواحد تختلف من طرف الى آخر. فهذا الاختلاف في الغايات عند الانسان أدى الى تجذير الخلافات بين الناس، كما أدى الى اختلاف الانسان حول مفهوم الادارة وماهيتها.. إن السبب الرئيسي في اختلاف غايات الانسان يعود الى مفاهيم الانسان المتباينة حول أهم القضايا التي تشكل المعتقدات، والغايات، والطموحات، والآمال عند الانسان. لقد اختلف الانسان مع أخيه الانسان حول حقيقة النفس الانسانية، وطبيعة النفس الانسانية، ومكانة الانسان في الكون، والانسان والخلود، وعلاقة الانسان مع الجماعة، ومصادر المعرفة عند الانسان، وحقيقة الذات الالهية، وحقيقة البعث والحساب، وحقيقة الحياة الدنيا. ان غايات الانسان واهدافه تتشكل وفق مفهومه للقضايا أو الموضوعات السابقة، فيسعى الى تحقيق هذه الاهداف والغايات تحت المظلة الفكرية التي كونها عن تلك الموضوعات، لذلك اختلفت المفاهيم الادارية وأنماطها عند الانسان لاختلاف المظلة الفكرية التي انبثقت عنها غايات الانسان واهدافه.

### هدف الدراسة:

تهدف الدراسة الى توضيح أساسية هامة مفادها أن الادارة بشتى أنواعها وعلى اختلاف مستوياتها تختلف بعضها عن بعض باختلاف المدرسة الفكرية التي يعيش في ظلها افراد مجتمع معين عن مجتمع آخر.

### أسلوب الدراسة:

سوف نكتفي بعرض موجز لأهم النظريات الادارية التي ابتكرها الانسان وهو يسعى الى تطوير النظم الادارية، وتوضيح الابعاد الفكرية لهذه النظريات لنرى نوعية الفكر الذي تنطلق منه هذه النظريات. ثم نعرض بعضاً من الانماط

الادارية مع الاشارة الى منطلقاتها الفكرية. وبهذا نكون قد بينا الادارة ومنطلقاتها الفكرية في ضوء الفكر الانساني. ثم نبين الابعاد الفكرية للادارة في ضوء النهج الالهي مع توضيح النمط الاداري في الاسلام.

### الادارة في ضوء الفكر الانساني :

لقد حاول الانسان عبر تاريخه المديد ان يعي عدة امور هامة تؤثر بشكل قوي على معتقداته وانماطه السلوكية اتجاه الآخرين، فقد حاول الوصول الى حقيقة وجوده على هذا الكوكب، كما حاول التوصل الى كنهه وحقائق القضايا الفيزيائية والميتافيزيائية التي لها علاقة مباشرة أو غير مباشرة على تشكيل أفكاره ومعتقداته. فقد اعتمد الانسان في بحثه ودراسته لتلك القضايا على اسلوبين اساسيين. أما الاسلوب الاول فيمثل الانسان الذي اعتمد على قدراته فقط دون الاستعانة بها جاء من عند الخالق عز وجل هدى ورحمة للعالمين. وأما الاسلوب الثاني فيمثل الانسان الذي اعتمد على النهج الالهي بالاضافة الى قدراته الذاتية في الوصول الى الحقائق المتصلة بالقضايا سواء التي لها علاقة بعالم الغيب أم بعالم الشهادة. لذلك ظهر الخلاف الحاد بين الناس الذين اتبعوا الاسلوب الاول حول أبرز وأهم القضايا التي تهم الانسان مما ادى الى اختلاف اعتقاداتهم، وانماطهم السلوكية، وغاياتهم الوجودية. كما ظهر خلاف جوهري بين الذين اتبعوا النهج الالهي وبين الذين اتبعوا الاسلوب الاول، مما ادى الى ظهور الاختلافات الحادة بين الانسان وأخيه حول أبرز القضايا وأهمها. ان جميع هذه الاختلافات كان لها الأثر المباشر القوي على تشكيل غايات الانسان وأهدافه في هذا الوجود. ففي الوقت الذي يعتقد فيه اتباع الاسلوب الاول ان جميع الآمال، والطموحات، والغايات تبدأ وتنتهي داخل أطر الحياة الدنيا، فإن اتباع الاسلوب الثاني يعتقدون ان الحياة الدنيا وما جسد فيها من آمال، وطموحات، وغايات تعد اختباراً وامتحاناً للانسان يؤهله الى الخلود في دار الأمن والسلام في اليوم الآخر.

ان الذين نظروا الى الحياة الدنيا على أساس انها مبلغ اهتماماتهم ونهاية طموحاتهم انعكس ذلك الاعتقاد على المفهوم الاداري في سعيهم نحو تحقيق غاياتهم واهدافهم في هذا الوجود. لذلك نجدهم يفهمون كل شيء منطلقين من قاعدة الحياة الدنيا فقط، وما يسعى اليه الانسان داخل هذه الحدود. فعلى هذا الاساس نجد ان علم الادارة بجميع موضوعاته الاساسية والفرعية لا يتعدى تحقيق الأهداف السياسية،

والاقتصادية، والفكرية، والاجتماعية المتصلة جميعها في الحياة الدنيا فقط.

إن موضوع القيادة يعد من أقدم الموضوعات التي لازمت الانسان منذ فجر تاريخه، وقد سعى الانسان لاختيار القائد الذي يتصف بالقوة البدنية والمادية. وفي بعض الاحيان توفر احدهما كافياً لاختيار رجل العشيرة أو القبيلة، أو رجل القبائل ليسعى بالتالي الى تحقيق الاهداف المادية المتعددة لجميع الناس المرتبطين به إدارياً. اننا سوف نغض النظر عن تاريخ الانسان الاداري القديم ونركز في هذه الدراسة على النظريات الادارية واساليبها التي تعد من نتاج الانسان في العصر الحديث لتري المنطلقات الفكرية لها والاهداف التي ينشدها الانسان من خلالها.

منذ الوقت الذي أخذت فيه الثورة الصناعية في اوربا تشق طريقها بدأ التفكير حول الادارة وموضوعاتها يأخذ الصورة الجدية والابداعية عند الانسان. فقد ظهرت المدرسة الادارية الكلاسيكية والتي تضم عدة نظريات في الادارة، اهمها: نظرية الادارة العلمية، والنظرية البيروقراطية، ونظرية المبادئ الادارية. ان جميع هذه النظريات تنظر الى الانسان من منطلق فكري واحد، وهو ان الانسان كائن اقتصادي يمكن ضبطه واثارته نحو العمل والانتاج الفعال عن طريق التعامل معه بسياسة رفع الاجور أو خفضها.

إن الجوانب الضعيفة للمدرسة الكلاسيكية كما وضحها الدكتور مهدي حسن وزميله في كتابهما «مبادئ الادارة نظريات ووظائف» تكمن في الامور التالية:

١- لقد عكس دعاة هذه النظرية فهماً محدوداً لطبيعة الانسان. فقد رأوا فيه كائناً جامداً كالآلة اذ يجب اعادته قبولته بشكل يتناسب والعمل المطلوب منه (١).

٢- ان بعض المبادئ التي جاءت بها هذه المدرسة لم تكن قائمة على التجربة ولم تكن عالمية التطبيق. بل انها تتناقض مع بعضها البعض كما هو الأمر بالنسبة لمبدأ وحدة الأمر ومبدأ التنسيق (٢).

1- James G. March and Herbert A. Simon, Organizations (New york : John Wiley and Sons, Inc, 1958) P29.

٢- د. مهدي حسن، د. محمد قاسم، مبادئ الادارة نظريات ووظائف، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الاردن، ١٩٨٤، ص ٣٨.

لقد جاءت المدرسة السلوكية كرد فعل على المدرسة الكلاسيكية بتفرعاتها متهمه اياها بأنها أهملت العنصر الانساني ولم توليه الأهمية اللازمة. ورغم أنه يؤرخ لبداية حركة العلاقات الانسانية بالعشرينات والثلاثينات من هذا القرن، فإن بدايتها كانت اثر الحرب العالمية الاولى مباشرة التي اثارته اهتماماً بالعلاقات الانسانية (١).

لقد احتوت المدرسة السلوكية على عدة مدارس ونظريات، ابرزها مدرسة العلاقات الانسانية، ومدرسة تنمية التنظيمات، ونظرية X ونظرية Y، ونظرية سلم الحاجات، ونظرية العوامل الوقائية والعوامل الدافعية، ونظرية النموذج المختلط، ونظرية الشبكة الادارية، ونظرية اللامركزية.

لقد جاءت المدرسة السلوكية بتفرعاتها المختلفة لتعوض عن نقص في صحة افتراضات سابقتها المدرسة الكلاسيكية. وفي محاولة عمل ذلك فقد اتخذت تماماً الصورة المغايرة فركزت على الانسان وحاجاته المختلفة. إذ افترضت ان الانسان كائن عاطفي، وانه مجموعة من المشاعر والعواطف والانفعالات يجب فهمها والعمل على ارضائها. وقد استمرت هذه المدرسة في الضرب على هذا الوتر الى درجة لم تفرق معها بين كون الوظيفة عملاً رسمياً يقوم به الموظف لقاء أجر وبالتالي عليه ان يقدم تنازلات، وانها ليست مكاناً وجد من أجل اسعاد العامل على حساب الأهداف التنظيمية. لذلك فانصار هذه المدرسة يخلطون بين دور الانسان كموظف أو عامل وبين دوره الآخر كإنسان له محيطه الشخصي وبالتالي فقد خلطوا بين حاجات الانسان العليا مثل تحقيق الذات، وافترضوا ان المكان الطبيعي لتحقيقها هو التنظيم ولا مكان غيره وهو أمر مشكوك في صحته» (٢).

لقد كان للعيوب التي تجسدت في المدرسة الكلاسيكية ونظرياتها وفي المدرسة السلوكية ونظرياتها أثر مباشر في بروز اتجاهات حديثة نحو الادارة تمثلت في مدرسة النظم والنظرية الموقفية والادارة بالاهداف.

لقد ركزت مدرسة النظم في الادارة على نظرية النظام العام «ويعرف النظام بشكل عام، بأنه الكيان المنظم والمركب الذي يجمع ويربط بين اشياء واجزاء تؤلف

1- Keith Davis, Human Behavior at work . 4th Ed, San Francisco: Mc Graw-Hill Book Company . 1972. P8.

٢ - مصدر سابق، مبادئ الادارة نظريات ووظائف، ص ٦٥.

في مجموعها تركيباً كلياً موحداً» (١).

إن المكونات الأساسية التي تميز النظام المفتوح هي: المدخلات (In puts)، والأنشطة (Activities)، والمخرجات (Out puts).

إن الاتجاه الجديد الذي انطلقت منه النظرية الموقفية «Contingency Theory» يؤكد على تعدد المواقف الإدارية والتغيرات التنظيمية المتعددة والعلاقات المتشابكة مع بعضها البعض من جهة ومع البيئة الداخلية والخارجية من جهة أخرى وتؤدي إلى عدم التسليم بنمط إداري واحد يصلح لكافة الظروف والنامبات. وكذلك الأمر فليس هناك هيكل تنظيمي يمكن أن يحتذى به كنموذج في كافة المؤسسات الإدارية. وذلك يعود إلى اختلافات في شخصية القائد، والتابعين، وطبيعة المهمة، والمدة الزمنية والبيئة المحيطة.

أما بالنسبة إلى الإدارة بالاهداف «Management by objectives» فهي نظرية بسيطة تقوم على فرضيات بديهية تعتمد على الإدارة المشتركة، أي إشراك جميع العاملين ما أمكن في وضع القرارات وتحديد الاهداف والنتائج المتوقعة في العمل سوية وبالتعاون، ومن ثم تحقيق تلك الاهداف» (٢).

كما عرفت الإدارة بالاهداف بأنها وضع اهداف التنظيم أو جزء منه كأساس لتحقيق كفاءة أكثر، ولتهيئة دوافع وحوافز للمديرين، إلى جانب ذلك تشخيص العوامل التي تعوق التنفيذ دون تحقيق الاهداف بغية التغلب عليها. ومراجعة النتائج دورياً، ووضع اهداف جديدة إن استدعت الضرورة» (٣).

تمثل مدرسة النظم والنظرية الموقفية والإدارة بالاهداف مداخل مختلفة لتحليل التنظيمي، إذ أن هذه المدارس توفر أساساً جديداً لفهم ديناميكية التنظيمات الإدارية والمتغيرات التي تؤثر عليها. فهي تقر بأنه على الرغم من قيمة النظريات الكلاسيكية والسلوكية فإنها لا تفسر كافة جوانب التنظيم. ذلك أن النظريات الكلاسيكية لا تأخذ المتغيرات البيئية الخارجية بعين الاعتبار إذ ينحصر تصورهما

1- Richard A. Johnson, The Theory and Management of System  
N. Y.:Mc Graw-Hill Inc, 1973. P31.

٢- عثمان خيري، الإدارة بالاهداف، القاهرة، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، منشور رقم ١٧٢ سنة ١٩٧٥، ص ١٦.

٣- محمد علي حلاوي، مصطلحات إدارية مختارة، بغداد: مطبعة العاني ١٩٧٦، ص ٧٤.



للبيئة بما يحصل داخل التنظيم وحسب. وهذا ما تحاول مدرسة النظم ان تضيف اليه ابعاداً جديدة بتعريفها الأوسع لمعنى التنظيم. وكذلك فان النظريات الكلاسيكية والسلوكية تشنعت في مناداتها بأن هناك طريقة تنظيمية افضل في كل الظروف... ان الاتجاهات الادارية السابقة لم تأخذ بعين الاعتبار صعوبة تحديد النمط الاداري الافضل بمعزل عن الظروف المحيطة. وهذا ما أكدت عليه النظرية الموقفية التي رأى انصارها ان طبيعة الموقف والظروف في وقت ما، والتكنولوجية، والانسانية هي التي تحدد النمط الاداري الافضل. فالاسلوب الاداري المناسب في ظروف معينة هو غير ذلك في ظروف مختلفة» (١).

ولكي نجتلي حقائق النظريات الادارية والمنطلقات الفكرية التي اعتمدتها في فهمها للانسان، فلا مندوحة لنا من ان نعرض بعضاً منها، ونرى معاً كيف حاول الانسان ان يفهم أخاه الانسان من أجل ضبطه وتسخير لزيادته الانتاج والكسب المادي.

### نظرية الادارة العلمية (Scientific Management)

يعد العالم الامريكي فردريك تيلر المفكر الرئيسي في تطوير انتاج المؤسسات عن طريق الادارة العلمية للمؤسسات وانه اعتمد فكرته الادارية في ضوء الافتراضات التالية (٢):

- ١- ان من طبيعة الافراد ان لا يبذلوا قصارى جهدهم في العمل.
- ٢- يجب ان يتقاضى العمال من الاجور كل حسب عطائه وانتاجه.
- ٣- ان السبب في قلة الانتاج يعود الى الضعف الاداري وليس من العمال.
- ٤- ان من مسؤولية الادارة ان تعين الافراد حسب كفاياتهم ومناسبتهم للعمل وطبيعته.
- ٥- تدريب العمال على أحدث الوسائل والطرق التي تزيد من الانتاج.
- ٦- ازالة الخطأ الشائع من أذهان العمال ومفاده عدم انجاز العمل بسرعة لغرس صورة طيبة في ذهن المسؤول عن العامل الذي يتأنى بانجاز عمله.

١- مصدر سابق، مبادئ الادارة نظريات ووظائف، ص ٩٦.

2- Frederik W. Taylor, Scientific Management : New york, Harper and Row, 1911.

### نظرية X ونظرية Y (Douglas Mc Gregor)

تعد هاتان النظريتان من انتاج العالم الامريكي دوقلاس مغيرير حيث انطلق من فهمه الخاص لطبيعة الانسان ليقرر بعض الافتراضات التي تكون نظرية X، وافتراضات أخرى حول طبيعة الانسان تكون القاعدة الاساسية لنظرية Y (١).

#### افتراضات نظرية X:

- ١- ان الانسان بصورة عامة لا يحب العمل.
- ٢- يحاول الانسان باستمرار تجنب العمل بقدر استطاعته لذلك.
- ٣- طالما الانسان يكره العمل فيجب ضبطه وتخويله بانزال العقوبة من اجل اجباره على بذل الجهد لتحقيق اهداف المؤسسة.
- ٤- الانسان العادي بصورة عامة يفضل الابتعاد عن المسؤولية. لذلك يجب ان يوجه لتأدية عمله.

#### افتراضات نظرية Y:

- ١- ان بذل الجهد الفكري والجسمي للانسان يعد حاجة طبيعية مثل حاجته الى اللعب والراحة.
- ٢- ان عملية الضبط والتهديد ليست هي العملية المثلى لتوجيه وحشد جهود الافراد لتحقيق اهداف المؤسسة ولكن يستطيع الافراد ان يتعهدوا بادارة وضبط انفسهم من اجل حشد الجهود المتاحة لتحقيق اهداف المؤسسة.
- ٣- ان تعهد الافراد بتحقيق الاهداف يمكن ربطه بمنح الجوائز في حال تحقيق تلك الاهداف المرسومة.
- ٤- ان الانسان العادي بصورة عامة تحت الظروف الجيدة يرغب في تولي المسؤولية.
- ٥- توفر امكانية وقدرة الافراد بنسبة عالية في التفكير لوضع الحلول لمشكلات المؤسسة والمشاركة في حلها.
- ٦- تحت الظروف الصناعية الحديثة يمكن الاستفادة من الامكانيات والكفايات العقلية للافراد، إذ ان هذه القدرات ما زالت كامنة في النفوس.

1- Douglas Mc Gregor, The Human side of Enterprise: New york, Mc Graw-Hill, 1960.

### نظرية الحاجات الانسانية : (Abraham H, Maslow)

يقتزن اسم هذه النظرية باسم العالم الامريكي ابراهام ماسلو الذي اعتمد في وضع هذه النظرية على ثلاثة افتراضات هي: (١)

١- الانسان عبارة عن كائن حي ذي رغبات وحاجات حيث ان الرغبة أو الحاجة غير المشبعة تؤثر في سلوك الفرد إلى أن يتم اشباعها.

٢- ان حاجات الانسان ورغباته قد تختلف حسب اهميتها فمنها ما هو اساسي مثل الطعام ومنها ما هو ثانوي مثل احترام الذات والاعتبار من قبل الآخرين.

٣- ينتقل اهتمام الانسان من الحاجة المهمة الى الحاجة الأقل أهمية في حالة اشباع تلك الحاجة المهمة.

تحتوي هذه النظرية على خمسة عناصر اساسية يمثل كل عنصر فيها نوعاً معيناً من الحاجات الانسانية وقد رتب حسب اهميتها وهي:

- أ- الحاجات الجسمية (طعام ، شراب، ملجأ) (Physiological Needs)
- ب- حاجة الامان والابتعاد عن الخوف (Safty and Security)
- ج- الولاء الاجتماعي (Social and Belonging)
- د- احترام النفس والاعتبار من الآخرين (Status and Esteem)
- هـ- تحقيق الذات (Self- Actualization)

### نظرية هيرزبرج (Herzberg)

ترتكز هذه النظرية على عنصرين اساسيين، فالعنصر الاول يحتوي على ثمانية بنود تدور حول نوعية العمل وظروفه. وتوفر هذه العناصر قد يؤدي الى الرضى الوظيفي عند العاملين، ولكن ليس من الضروري ان تؤدي الى اثاره الحوافز في نفوس العاملين نحو العمل وهذه البنود هي: (٢)

١- ضمان استمرارية العمل.

1- Abraham H, maslow, Motivation and personality: New york, Harper and Row, 1954.

2- Herzberg, B. Mausner, and Snyderman , The Motivation to work : 2nd ed. Mew york: John wiley 1959.

- ٢- المرتب الشهري.
  - ٣- الجو المحيط بالعمل.
  - ٤- المكانة الاجتماعية الجيدة بين العاملين.
  - ٥- سياسة المؤسسة.
  - ٦- الكفاية الفنية للمشرفين على العمل.
  - ٧- نوعية العلاقات الاجتماعية بين العاملين، المشرفين، الفنيين.
  - ٨- مقدار الربح الإضافي أو العداوات.
- أما بالنسبة الى العنصر الثاني من النظرية فيحتوي على ستة بنود يؤدي توفرها الى اثاره الحوافز لدى العاملين في المؤسسة للمضي قدماً نحو تحقيق اهداف المؤسسة. وهذه البنود هي:

- ١- مقدار التحصيل او الانجاز في العمل.
- ٢- اعتبار الجهد المبذول وتقديره للفرد من قبل المسؤولين.
- ٣- نوعية العمل ومدى مناسيته للفرد.
- ٤- مسؤولية الفرد داخل المؤسسة.
- ٥- النمو الوظيفي (نظام الترفيع).
- ٦- النمو والتطور الشخصي للفرد.

### نظرية ERG

تعد هذه النظرية من أهم الاعمال التي قام بها العالم الأمريكي (Alderfer) من أجل وضع أسس ومفاهيم معينة للانطلاق نحو إثارة الحوافز لدى العاملين داخل المؤسسة بهدف زيادة الانتاج. وقد ارتكزت النظرية على معرفة الحاجات الانسانية داخل جداول المؤسسة. وتتكون هذه النظرية من ثلاثة عناصر رئيسية هي: (١)

- ١- حاجات الوجود (Existence Need)، الجوع، العطش، الملجأ، ظروف العمل المحيطة، الربح.
- ٢- الحاجات الاجتماعية (Relatedness Needs) نوعية العلاقات بين افراد المؤسسة.

1- Clayton P. Alderfer; Existence Relatedness and Growth; New york: Free press, 1972.

٢- حاجات النمو (Growth Needs) التقدم الوظيفي في المؤسسة .

### نظرية المساواة Equity Theory

يعود ظهور هذه النظرية الى جهود العالم الامريكي آدمز (Adams). وتعتمد هذه النظرية على فكرة واحدة مفادها وجود التناقض بين الجهود المبذولة من قبل الفرد داخل المؤسسة ومقدار المكافأة التي يحصل عليها الفرد سواء أكانت مادية أم معنوية. فإذا ما شعر الفرد ان جهوده المبذولة تفوق قيمة المكافأة فإنه يسعى الى تقليل جهده المبذول. وكلما زاد التناقض زاد التقليل من الجهد (١).

أن النظريات الادارية السالفة الذكر تشكل بعضاً من الجهود التي قام بها الانسان بهدف تحقيق المكاسب المادية للمؤسسات عن طريق فهم طبيعة الانسان ودوافعه نحو العمل. لذلك اقتضت دراسة الانسان على الجوانب المادية الخالصة. كيف لا؟ وهذه الجوانب المادية هي التي كانت وراء دراسة الانسان لأخيه الانسان بهذه الصورة المبتورة التي جعلت من الانسان كائناً يستجيب فقط للمؤثرات المادية.

وعلى هذا الاساس المادي للانسان، ذهب الانسان الى التوسع في دراسة أخيه الانسان لاثارته نحو العمل تارة، واثارته نحو التعلم تارة اخرى، فإذا ما أمعنا النظر في نظريات التعلم فإننا نجدنا تنطلق من المنطلق المادي للانسان. فهذا التصور المادي للانسان ودوره المادي في الوجود ينبثق أصلاً من المدارس الفكرية المادية التي ترى ان الانسان تكمن تطلعاته وأهدافه، وغاياته، ومستقبله في الحياة الدنيا فقط. فلا يوجد شيء ينتظر الانسان بعد خروجه من الحياة الدنيا. لذلك امتطت جميع الحقائق الوجودية المتصلة بالعالم الميتافيزيقي والتي لها علاقة قوية ومباشرة في حاضر الانسان ومستقبله.

وعلى الطريق نفسه سلك الانسان في فهم أخيه الانسان وهو يسعى الى التوصل الى افضل الانماط والاساليب الادارية. وسوف نعرض نماذج منها لنرى معاً المنطلق الايدولوجي والفكري لها.

---

1- Stacy Adams, Toward an Understanding of Inequity: Journal of Abnormal and Social psychology, November, 1963, pp 422.

## ١ - الاسلوب العلمي في الادارة

### Scientific Management Movement

يعتبر فردريك تيلر (Frederick W. Taylor - 1856 - 1915) اول من ادخل هذا الاسلوب الاداري للمؤسسات في الولايات المتحدة بشكله المنظم، بالرغم من ان الافكار الرئيسية لهذا النهج الاداري عبارة عن تجمع افكار لبعض المفكرين الانجليز، والفرنسيين، والامريكيين، ولكن دور تيلر البارز يرجع الى ترتيب هذه الافكار بصورة منسقة ومنظمة مما سهل عملية قبول هذا الاسلوب في المؤسسات الامريكية.

اعتمد هذا الاسلوب على الفكرة التالية: وهي ان فعالية الانتاج تعتمد على اختيار العامل المناسب للعمل المناط به، لذلك يجب تطوير هذا العامل للمستوى الذي يمكنه من انجاز عمله بكفاية عالية وذلك بما يتناسب مع قدراته الفردية.

لذلك اهتم هذا الاسلوب الاداري بالتكنولوجيا الحديثة وجميع الوسائل والطرق التي يتم من خلالها جمع المعلومات العلمية الدقيقة التي تؤدي الى تحسين وتطوير سبل العمل وطرائقه بهدف زيادة الانتاج. ويمكن القول ان هذا النهج الاداري يهدف الى ضبط المتغيرات المتعددة التي تؤثر على سير وانجاز العمل داخل المؤسسة لتحقيق اهداف المؤسسة دون الالتفات الى حاجات واهداف الافراد الفردية.

ويعتبر تيلر ان الثورة الفكرية التي مادت المؤسسات الصناعية في الولايات المتحدة في هذا القرن هي بمثابة الانعكاسات الجوهرية لهذا النهج الاداري الجديد.

وهناك عدة خبراء من مختلف الجنسيات ساهموا بقدر كبير في نشر هذا الاسلوب الاداري. في الوقت الذي كان فيه تيلر ينشر هذا الاسلوب في الولايات المتحدة، فإن هنري فايول (Henri Fayol, 1841 - 1925) ساهم في نشره في فرنسا. في الوقت الذي ركز فيه تيلر على الطبقة الدنيا في المؤسسة، فإن فايول ركز على الطبقة العليا في المؤسسة إذ اعتمد في نشر فكره الاداري على اساسيتين هما:

١ - ان الاساسيات العامة في الادارة يمكن تطبيقها في البهام الادارية لجميع المؤسسات المختلفة.

٢- ان المعلومات الادارية التي يجب تعريف المسؤولين بها تنبثق من النظرية الادارية لتلك المؤسسة .

كما ان هناك عدة خبراء ساهموا بشكل فاعل في نشر هذا النهج نذكر منهم كارل بارث (١٨٦٠ - ١٩٣٩)، هنري كانت (١٨٦١ - ١٩١٩)، وفرانك قلبرت (١٨٦٨ - ١٩٢٤).

لقد طور تيلر الواجبات الادارية للمسؤول العام عن المؤسسة على ضوء هذا النهج عند تطبيق هذا الاسلوب الجديد لتشمل الآتي :

١- ملاحظة وجمع شتى المعلومات المتعلقة بالافراد داخل المؤسسة، والاقسام المختلفة، والمؤسسات المشابهة، والظروف المحيطة والداخلية للمؤسسة بشتى انواعها المادية، والبشرية، والفنية.

٢- تغيير المهام الوظيفية القديمة لكل موظف بما يتلاءم مع قدراته الفردية بناء على امس علمية مدروسة.

٣- اختيار وتدريب العاملين بشكل علمي سليم.

٤- التعاون المستمر بين القيادة والعاملين للتأكد بأن العمل يجري بأفضل وأنجع الطرق العلمية.

٥- تقسيم وتوزيع المسؤوليات والاعمال بين الافراد بصورة علمية تنسجم مع القدرات الفردية لكل فرد.

٦- اتباع خطة تعزيز وحفز تعتمد على زيادة الانتاج للفرد.

٧- تنظيم وترتيب المعدات والاجهزة بصورة تسهل عملية الاستخدام من قبل العاملين دون حدوث تداخل واضطراب في سير العمل.

وهناك عدة ايجابيات يمكن الاستفادة منها في حالة تطبيق هذا النهج الاداري وهي :

١- انتظام وارتباط الموظفين بمختلف مستوياتهم بالسياسات المرسومة للمؤسسة والعمل.

٢- التزام جميع العاملين داخل المؤسسة بقوانين العمل واجراءاته.

- ٣- سهولة عمل الاداريين او المسؤولين بشكل عام بعد تحديد وتنسيق المهام لكل دائرة، قسم، وفرد داخل المؤسسة.
  - ٤- انجاز العمل في الوقت المحدد.
  - ٥- يستخدم بصورة فعالة في حالة تعرض المؤسسة للدفلاس او الفناء.
- وعلى الرغم من هذه الايجابيات الباسقة فإن هناك عدة سلبيات افرزها هذا النهج داخل المؤسسات التي تم تطبيق هذا النهج فيها وهي:

- ١- على ضوء هذا الاسلوب الاداري تقل امكانية التداخل والتفاعل الاجتماعي بين افراد المؤسسة طالما لا يسمح لبعضهم التدخل في اعمال بعضهم الآخر.
- ٢- طالما على ضوء هذا النهج يتم تحديد مكان ومجال العمل لكل فرد داخل المؤسسة بهدف تقليل الجهود أو الوقت الضائع لاستخدام تلك الجهود والافاق لزيادة الانتاج، يسق في اذهان الافراد فكرة انهم يعاملون على اساس انهم معدات واجهزة بشرية ليس إلا.
- ٣- يقتصر نظام التعزيز والثواب على ضوء هذا الاسلوب على كمية الانتاج اليومي للفرد.
- ٤- ان عبلية تحديد المهام والاعمال بصورة تامة لافراد يقلل من أو يحول دون ظهور الابداع والابتكار هذا بجانب الانعكاسات السلبية على نفوس العاملين التي تفرزها روتينية العمل.

وأخيراً يعد هذا الاسلوب الاداري من اكثر الاساليب الادارية التي انتشرت في مطلع هذا القرن وبالذات في الولايات المتحدة. ويعد هذا الاسلوب هو المحرك الاساسي لولادة اسلوب اداري جديد وهو الاسلوب الانساني.

## ٢ - الاسلوب الانساني Human Approach

بزغ الاسلوب الانساني في الادارة الى حيز الوجود بعد أن بدأت سلبيات الاسلوب العلمي في الادارة تلوح في الافق، إذ تبين لدى الاداريين ان هناك عدة سلبيات افرزها الاسلوب العلمي في نفوس الافراد داخل المؤسسات التي تم تطبيق الاسلوب العلمي للادارة فيها.



ومن اشهر الذين ساهموا في نشوء هذا الاسلوب الاداري الجديد اولفر شلدون (Oliver Sheldon)، شيلتون بارنارد (Chester Barnard, 1886- 1961)، التيسون مايو (Elton Mayo, 1880-1949)، رويشليز برقير (Roethlisberger, 1898- 1974)، ودوغلاس مكريغور (Douglas Mc Gregor) الذي يعد من اشهر الذين ساهموا في ظهور هذا الاسلوب الاداري عن طريق انجازه العملي الرائع في النظريات الادارية وأخص بالذكر نظرية X ونظرية Y.

لذلك يمكن ان نعد الاسلوب الاداري الجديد قد ظهر الى حيز الوجود كرد فعل للاسلوب السائد في ذلك الوقت وهو الاسلوب العلمي في الادارة إذ كان جل اهتمام هذا الاسلوب هو التركيز على العمل دون الالتفات الى الافراد وداخل المؤسسة ومطالبهم المختلفة مما ادى الى امتعاض الافراد من هذا الاسلوب الاداري لما أفرزه من سلبيات مقيتة في نفوسهم.

لذلك فإن علماء الاجتماع الذين كان لهم الفضل في ولادة الاسلوب الانساني الجديد، عدوا ان القاعدة الفكرية العلمية السليمة التي يجب ان تركز عليها المؤسسة تنطلق من الاساسيات التالية:

- ١- ان المؤسسة تعد نظاماً اجتماعياً اولاً ومن ثم يمكن الالتفات الى الصفات الفسيولوجية والميكانيكية للأفراد.
- ٢- التركيز على الجو الاجتماعي داخل وخارج المؤسسة وكيفية تعامل الافراد اجتماعياً اثناء العمل.
- ٣- تقوية وتعزيز الوشائج والولائج بين الافراد داخل المؤسسة.

ومن ابرز العوامل التي ساهمت في شيوع هذا الاسلوب الاداري الجديد ظهور نظرية X ونظرية Y حيث ساهمتا في دحض بعض الاساسيات التي بني عليها الاسلوب العلمي في الادارة وهي:

- ١- بطلان صحة الاساسية الاولى التي بني عليها الاسلوب العلمي في الادارة وهي ان جميع الموظفين يحتاجون الى رقابة دائمة اثناء العمل.
- ٢- عدم صحة ان الموظفين يمكن تشجيعهم وتعزيزهم نحو العمل بالامور المادية

فقط.

٢- عدم صحة النظرة الى الافراد على انهم كسالى نحو انجاز اعمالهم.  
٤- هناك عدة امور يمكن ان تساهم بشكل بارز في إثارة الفرد لتحسين ورفع مستوى انتاجه مثل، التفاعل والتماسك الاجتماعي بين الافراد داخل المؤسسة، الاعتبار والاحترام من قبل الآخرين، النمو الوظيفي والاجتماعي داخل المؤسسة، والنجاح في العمل.

لذلك ركز الاسلوب الانساني في الادارة على عدة عناصر اساسية لتساعد الاداريين والمسؤولين على تنمية التعاون الاجتماعي والانساني بين الافراد داخل المؤسسة وهي:

- ١- تشجيع الافراد على المشاركة في اتخاذ القرارات الادارية.
  - ٢- توزيع الاعمال والمهام على الافراد بما يتناسب مع قدراتهم ومؤهلاتهم حتى يشعر الفرد باستمراره امام تحد من قبل طبيعة ونوعية العمل.
  - ٣- تحسين وتطوير وسائل وسبل الاتصال والتفاعل بين الادارة والموظفين.
- فعلى ضوء هذا النهج الاداري يكون جل اهتمام الاداري على التفاعل الاجتماعي بين الافراد وتوسيع وتطوير الاطار الخلفي والانساني عندهم، هذا بجانب العمل على اتباع الطرق والاساليب الانسانية الموحدة مع جميع الافراد داخل المؤسسة.

ينطلق هذا الاسلوب من اساسية كبرى وهي اتاحة وتوفير الجو الاجتماعي والوظيفي للمدتم للافراد اذ يفرز هذا الجو المريح والمناسب لكل فرد توجهاً ودافعاً داخلياً في نفوس الافراد نحو المؤسسة، وبالتالي فإنهم سوف يبذلون قصارى جهدهم من اجل الحفاظ على المؤسسة وتحقيق اهدافها. لأن الانسان بطبعه يحب ان يحافظ على استمرارية كل شيء يجلب له السعادة.

### ٣ - اسلوب الادارة بواسطة الاهداف

#### Management by Objectives (MBO)

يعتبر بيتر دركر (Peter Drucker) اول من تكلم عن هذا الاسلوب الاداري في عام ١٩٥٤ في كتابه الموسوم بـ «ممارسة الادارة». وقد أخذ هذا الاسلوب عدة اسماء منها: الادارة بواسطة النتائج (Management by results) والادارة عن

#### المؤسسة.

٢- قيام كل وحدة من وحدات المؤسسات بتخطيط وتنظيم العمل على ضوء الأهداف المناطة بها.

٣- تطوير وتوسيع أطر التفاعل والاتصال كما ونوعا بين الإدارة والموظفين حتى تصل في أغلب الأحيان إلى المستوى اليومي.

٤- مشاركة العمال أو الموظفين داخل المؤسسة في تحديد الأهداف الفردية المرجو تحقيقها.

٥- تحديد الأهداف بوضوح بكافة مستوياتها وصياغتها بطريقة تسهل عملية القياس والتقييم.

إن الدراسات الميدانية التي أجريت على عدد من المؤسسات التي استخدمت هذا الأسلوب الإداري مع تقارير بعض الخبراء الذين بلغ عددهم ٣٨ خبيراً، أفادت بأن فوائد جمة يمكن تحقيقها عن طريق استخدام هذا الأسلوب في المؤسسات وهي:

١- صياغة الأهداف بدقة متناهية.

٢- ربط أهداف الأفراد داخل المؤسسة بالأهداف العامة للمؤسسة.

٣- سهولة عملية المراجعة للأهداف ومدى تحقيقها باستمرار.

٤- ربط الأهداف الجزئية للدوائر والأقسام بالأهداف العامة للمؤسسة.

٥- زيادة وتوسيع أطر التفاعل والاتصال بين المدير والموظفين.

٦- تطوير كفاية المدير الإدارية من حيث التخطيط، التنسيق، التفاعل الاجتماعي، والتقييم.

٧- تشجيع المدراء والأفراد داخل المؤسسة على القيام بواجباتهم والمهام المطلوبة منهم على خير ما يرام.

٨- سهولة ترتيب الأعمال حسب الأولوية.

٩- سهولة التدقيق والبحث عن جذور وبواعث الضعف والخلل داخل المؤسسة.

١٠- سهولة وضع وصياغة خطة العمل لكل وحدة من وحدات المؤسسة.

١١- سهولة ربط عملية التقييم بالإنجاز الفردي للموظف أو العامل.

١٢- صياغة وتحديد الأهداف بطريقة تسهل عملية القياس والتقييم.

## المؤسسة .

٢- قيام كل وحدة من وحدات المؤسسات بتخطيط وتنظيم العمل على ضوء الأهداف المناطة بها .

٣- تطوير وتوسيع أطر التفاعل والاتصال كما ونوعا بين الإدارة والموظفين حتى تصل في أغلب الأحيان إلى المستوى اليومي .

٤- مشاركة العمال أو الموظفين داخل المؤسسة في تحديد الأهداف الفردية المرجو تحقيقها .

٥- تحديد الأهداف بوضوح بكافة مستوياتها وصياغتها تسهل عملية القياس والتتويم .

إن الدراسات الميدانية التي أجريت على عدد من المؤسسات التي استخدمت هذا الأسلوب الإداري مع تقارير بعض الخبراء الذين بلغ عددهم ٢٨ خبيراً ، أفادت بأن فوائد جمة يمكن تحقيقها عن طريق استخدام هذا الأسلوب في المؤسسات وهي :

١- صياغة الأهداف بدقة متناهية .

٢- ربط أهداف الأفراد داخل المؤسسة بالأهداف العامة للمؤسسة .

٣- سهولة عملية المراجعة للأهداف ومدى تحقيقها باستمرار .

٤- ربط الأهداف الجزئية للدوائر والأقسام بالأهداف العامة للمؤسسة .

٥- زيادة وتوسيع أطر التفاعل والاتصال بين المدير والموظفين .

٦- تطوير كفاية المدير الإدارية من حيث التخطيط، التنسيق، التفاعل الاجتماعي، والتتويم .

٧- تشجيع المدراء والأفراد داخل المؤسسة على القيام بواجباتهم والمهام المطلوبة منهم على خير ما يرام .

٨- سهولة ترتيب الأعمال حسب الأولوية .

٩- سهولة التدقيق والبحث عن جذور وبواعث الضعف والخلل داخل المؤسسة .

١٠- سهولة وضع وصياغة خطة العمل لكل وحدة من وحدات المؤسسة .

١١- سهولة ربط عملية التقويم بالإنجاز الفردي للموظف أو العامل .

١٢- صياغة وتحديد الأهداف بطريقة تسهل عملية القياس والتتويم .

١٣ - المرونة في إحداث التغيير عند الضرورة.

١٤ - تحديد مواعيد وتاريخ الإنهاء من تحقيق بعض الأهداف أو الأعمال المعينة.

إن لكل نهج إداري صفاته الإيجابية التي تعد بمثابة الوجه الباسق المنير لهذا النهج لما يعكسه من تمكين المؤسسة التي تعتمد في تحقيق أهدافها ورغباتها. كما أن هناك بعض السلبيات التي تكتنف النهج الإداري المتبع داخل المؤسسة إذ تؤدي هذه السلبيات في أغلب الظروف إلى الحد أو التقليل من مستوى النجاح أو الإنجاز المرتقب للمؤسسة. وقد تؤدي هذه السلبيات في بعض الحالات إلى فشل المؤسسة في تحقيق أهدافها. وبعد أن فرغنا من الحديث عن الصفات الإيجابية لهذا الأسلوب الإداري، فلا بد من أن نعطف بنظرنا إلى النقاط السلبية التي يمكن أن تطفو على السطح في حالة تطبيق هذا النهج الإداري. ومن أبرز الصفات السلبية ما يلي:

١ - تحتاج عملية التخطيط، والتنظيم، وتوضيح الأهداف وخطط العمل للأفراد إلى وقت طويل.

٢ - الحاجة الهامة إلى الأعمال المكتتبية بشكل واسع لكتابة التقارير عن سير العمل وتوقع الإنتاج لمختلف الجهات المعنية داخل المؤسسة.

٣ - تجاهل وإهمال الأهداف التي يصعب قياسها والتي تتعلق عادة بالأمور الاجتماعية والنفسية.

٤ - يستخدم فقط في المؤسسات التي يكون فيها تأهيل الموظفين بدرجة جيدة.

٥ - عدم مناسبة هذا النهج الإداري لأغلبية الإداريين وذلك بسبب مشاركة الموظفين أو المستخدمين بصياغة الأهداف.

٦ - أسلوب تخطيط البرامج وتحديد ميزانياتها . pp bs

٥ - الأسلوب الدكتاتوري في الإدارة .

٦ - الأسلوب الديمقراطي في الإدارة .

إن جميع هذه الأساليب التي اتبعها الإنسان في الإدارة تدل على الفهم الجزئي للإنسان في هذا الوجود، إذ أن الإنسان حاول أن يفهم نفسه وأخاه الإنسان من خلال الجانب المادي فقط والمرتبط فحسب في الحياة الدنيا وما جسد فيها من أهداف وغايات إنسانية. فذهب لنسج حضارته الإدارية وفق المنطلق الفكري للإنسان

ومكانته في الوجود. لذلك نستطيع القول أن الفلسفات المادية والمذاهب الفكرية المادية عكست نفسها في النظريات الإدارية وأساليبها. لذلك كان التركيز منصبا على الكسب المادي، وزيادة الإنتاج داخل أطر المفاهيم الإنسانية للحياة الدنيا فقط.

وجدير بالذكر أن نشير إلى أساسية هامة وهي أن النظريات الإدارية وأساليبها انطلقت أيضا من موضوع فكري فلسفي وهو علاقة الفرد بالجماعة. فالفلسفة المثالية، والفلسفة الواقعية، والفلسفة الشيوعية تنادي بتقديم أهداف الجماعة على أهداف الفرد. بينما ترى الفلسفة الطبيعية، والفلسفة الوجودية تقديم مصلحة الفرد على مصلحة الجماعة، بينما ترى الفلسفة البراجماتية أن العلاقة بين الفرد والجماعة يجب أن تكون تبادلية.

### الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي

يعد الحديث عن الإدارة في الإسلام من أصعب الموضوعات على الإطلاق على أي كاتب يود أن يتناول هذا الموضوع بدرجة عالية من الموضوعية، لما له من آثار واسعة النطاق على المذاهب والمدارس الإسلامية المتعددة التي تنظر إلى هذا الموضوع من منطلقات متفاوتة، مما أدى إلى فهم النصوص القرآنية، وتأويلها بطرق متعددة لتنسجم مع الهدف المنشود الذي تسعى إليه كل طائفة. هذا بجانب سياسة الدس والوضع في السنة النبوية المطهرة من جهة، والتكلف الزائد في التأويل من جهة أخرى. ويشهد التاريخ بأحداثه المؤلمة التي وقعت على كاهل المسلمين في شتى البقاع والأمصار، سواء أكان ذلك في أم القرى، أم في المدينة الفاضلة، أم في البصرة، أم في غيرها من المدن الإسلامية كيف استغل المسلمون موضوع الإدارة أو الإمارة في الإسلام من أجل تحقيق أهدافهم الدنيوية عن طريق سحق الطرف الآخر الذي لا يشاركهم الرأي. فإذا أمعنا النظر في الأحداث التاريخية السابقة نجد أن النفوس قتلت، والعيون سملت، وسياسة جز الرؤوس وقصف بيت الله الآمن وتدمير، واستباحة مدينة رسول الله بجيش يزيد، واستباحة حرقات آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق القتل والسبي، وقصف المدن الإسلامية وتدمير بيوتها على رؤوس المسلمين. إن جميع هذه الأحداث وقعت في الماضي سواء البعيد أو القريب، وما زالت تحدث في الأيام الحاضرة، وستبقى تحدث في الأيام القادمة ما لم يحل المسلمون الألغاز والشراك التي تم نسجها حول موضوع الإدارة في الإسلام. إن الصورة الحاضرة للمسلمين التي تدل على تمزقهم وتشردهم

وعداء بعضهم لبعض تدل بشكل ساطع على سوء فهم لهذا الموضوع الهام جداً. إن الحديث قد يطول عن المصائب والأحداث المفجعة التي حدثت للمسلمين وما زالت تحدث في هذه الأيام ولكننا روماً للاختصار نكتفي بالإشارة الموجزة التي أشرنا إليها في السطور السابقة.

إن المسلمين في هذه الأيام الذين تتداعى عليهم الأمم كتداعي الأكلة على قصعتها، تكمن مشكلتهم الأولى في الابتعاد عن النظام الإداري الذي خطه لنا رب العزة في كتابه الحكيم. فإننا نجد أغلب المسلمين في هذه الأيام يتساءلون عن الحل للخروج من الهاوية التي وصلوا إليها عن طريق تغليب شهواتهم على حساب الإسلام وتعليقاته المؤثرة. عندما تجابه هذه الأسئلة بأن الحل يكمن في اتباع نص واحد فقط في القرآن العربي الحكيم، نجدهم يتذرعون بأعذارهم الواهمة التي تدل على انحرافهم عن جادة الصواب وإثارة الشكوك والأوهام التي وشجت عليها عروق الأولين، ليحرموا المسلمين فرصة الصعود من الهاوية التي وصلوا إليها بأيديهم عن طريق ابتعادهم عن الهدى الذي أرسله الحق سبحانه وتعالى هدى ورحمة وبشرى للعالمين. ولو خاطبنا مسلمي هذه الأيام بالنصوص القرآنية التالية وقلنا لهم أين موقفكم منها رحمكم الله، فما سيكون الجواب؟

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا نُزِّلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَنَصَّحُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَقَالِبُوا إِلَى مَا نُزِّلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا» (١)

أين المسلمون عن هذه النصوص القرآنية التي تقودهم من الهاوية إلى القمة؟ ألم توجد هذه النصوص في القرآن الذي بين أيديهم؟ هل فكر كل واحد منهم بأولي الأمر منهم، ومن هو ولي أمرهم الذي يجب أن يطاع وينفذ أحكام القرآن بينهم. هل فكر المسلمون ماذا سيؤول إليه حالهم لو أن لهم ولي أمر يتحدث باسمهم جميعاً؟ هل فكر المسلمون أن يسيطروا على شهواتهم وأهوائهم ويتبعوا ما يأمرهم به كتاب الله،

فبنتهوا بنواحيه. هل فكر المسلمون بالتناقض الكبير بين أقوالهم ومعتقداتهم وبين أفعالهم وأنماطهم السلوكية على شتى الصعد والاتجاهات؟ يبدو بوضوح أن المشكلة الأولى التي يعيشها المسلمون في هذه الأيام تكمن في عدم تطبيقهم لها يأمرهم به الحق سبحانه وتعالى، وعلى رأس هذه الأمور الموضوع الإداري المتمثل في أولي الأمر.

إن الإدارة في الإسلام لم تؤسس أطرها الأساسية على معلومات إنسانية محدودة ومتعارضة عن الإنسان، والكون، والحياة. بل أسست على معلومات دقيقة ثابتة وصلتنا عن طريق الأنبياء والرسل من عند الخالق سبحانه وتعالى. لقد شيد الإنسان مدارسه الفكرية والفلسفية، ونظرياته التربوية في مجالاتها المختلفة، ونظرياته الإجتماعية، والإقتصادية، والسياسية، والعسكرية وفق مفهومه الفطير للذات الإلهية والكون والحياة الدنيا وطبيعة الإنسان ومكانته في الكون وعلاقة الإنسان بالجماعة، وحقيقة النفس الإنسانية. والشيء المذهل الذي تشيب له الولدان أن نجد هذه النظريات المتعددة التي أسست في ضوء الفكر الإنساني تطبق وتمارس في المجتمعات التي تعد نفسها إسلامية على المسرح الدولي. وليت هذه النظريات تم تطبيقها تحت مظلة القانون الواحد الذي يطبق على الناس كافة كما يحدث في الدول المتقدمة، بل حتى هذه النظريات الإنسانية تم التعامل معها بطريقة مزاجية فوضوية.

في الوقت الذي شيدت فيه النظريات الإدارية في الفكر الإنساني على معلومات إنسانية فرضية حول القضايا التي تهتم الإنسان، فإن الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي شيدت في ضوء حقائق جاءت من عند الحق سبحانه وتعالى. وهذه الحقائق هي:

١ - خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان ليقوم الإنسان بعبادة الله سبحانه وتعالى تشريعاً وليس تكويناً.

قال تعالى:

«وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ\* وَمَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُبْعَثُونَ» (١)

١ - سورة الذاريات آية ٥٦-٥٧.



٢- فطر الحق سبحانه وتعالى الذات الانسانية على دين الحق والتوحيد تشريعا وليس تكوينا.

قال تعالى:

«فَأَنقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» (١)

٣- لقد اعطى الحق سبحانه وتعالى الانسان حرية الاختيار بين الخير المتمثل في اتباع النهج الالهي القويم وبين الشر المتمثل باتباع همزات الشياطين وتسوياتهم للانسان لابعاده عن سبيل الخير ليشاركه نفس المصير في اليوم الآخر.

قال تعالى:

«لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (٢).

٤- لقد ركب الحق سبحانه وتعالى في النفس الانسانية جانبي الفجور والتقوى لكي يستطيع الانسان ان يمارس حرية الاختيار بين سبيل الخير وافعاله فيه وبين سبيل الشر وافعاله فيه بملء ارادته دون قيود خارجية على قراره.

قال تعالى:

«وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا» (٣)

هـ- عدو الانسان اللدود في هذا الوجود الشيطان واجناده من الجن والانس اذ يريدون ابعاد الانسان عن سبيل الحق الذي وضحه الباري عز وجل للانسان عن طريق الرسل، وذلك عن طريق تزيين الشهوات للانسان.

قال تعالى:

«قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَنِي مِن صَلْصَالٍ مِن حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاهْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ»

١- سورة الروم آية ٣٠.

٢- سورة البقرة، آية ٢٥٦.

٣- سورة الشمس، آية ٧-١٠.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْيَوْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ إِنَّمَا أَعُودِيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أَعُودِيْتُهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ» (١).

٦- ان مكانة الانسان في الكون تكمن في اساسيتين هامتين، اولاهما ان الانسان خليفة الله في الارض، وهذا ما وضحه لنا الباري عز وجل في قوله عز من قائل:

«وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتُجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (٢).

أما بالنسبة الى الاساسية الثانية فهي تكمن في وضع الانسان ومكانته في اليوم الآخر في ضوء ما قدمت يداه وهو يمارس مهمة الخلافة في الحياة الدنيا. فإذا كان من الذين اتبعوا نهج الحق سبحانه وتعالى فيكون مصيره في عليين وهي افضل مرتبة لمخلوق خلقه الحق سبحانه وتعالى. وأما إذا كان من الذين أدبروا عن نهج الحق القويم في الحياة الدنيا، فإن المولد سيكون في الأذليين، وهو أدنى رتبة تعطى لمخلوق خلقه الحق سبحانه وتعالى.

٧- ان الحياة الدنيا بالنسبة للانسان تعد دار اختبار وامتحان ليؤول مصيره في اليوم الآخر وفق ما عمل فيها من اعمال خيرية او اعمال متصلة بجانب الشر. والذي لا يعي هذه الحقيقة يكون من الغافلين الذين استهوتهم الدنيا بزخارفها ومغائتها ليفقدوا عبدا لها تنتهي وتبدأ آماله وطموحاته داخل إطارها المحدود.

قال تعالى:

«الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ» (٣)

قال تعالى:

«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا» (٤).

١- سورة الحجر، آية ٣٢-٤٠.

٢- سورة البقرة، آية ٣٠.

٣- سورة الملك، آية ٢.

٤- سورة الكهف، آية ٧-٨.

٨- ان علاقة الفرد بالجماعة لا ترتبط بمصلحة طرف على حساب الآخر. فلا يوجد اهتمام بأهداف الفرد ومصالحه على حساب الجماعة وأهدافها، ولا تقوم الجماعة على مصلحة الفرد وأهدافه، فالعلاقة بين الطرفين ينظمها الدستور الالهي، فالذي يخالف الدستور يعد مخالفاً سواء أكان فرداً أم مجتمعاً، هذا بجانب ان الاهداف الضرورية لأبناء المجتمع هي نفسها الاهداف التي تسعى الجماعة الى تحقيقها وفق تعليمات النهج الالهي. فعندما تخالف الجماعة شرع الحق سبحانه وتعالى فالمؤمن لا يوالي هذه الجماعة حتى ولو كان على رأسها أقرب المقربين اليه. أما في حالة مخالفة الفرد لشرع الله سبحانه وتعالى فيجب على الجماعة ان تقيم حدود الله عليه التي وضحها في كتابه العزيز.

قال تعالى:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آيَاءَكُمْ وَإِضْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَغْبَاواُ الْكَفَرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فَاوْلِيكُمْ هُمْ الظَّالِمُونَ» (١)

قال تعالى:

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٢).

٩- إقامة العدل بين الناس على اختلاف مذاهبهم، ومعتقداتهم، واجناسهم والوانهم وفق القضاء الاسلامي الذي بينه في كتابه الحكيم.

قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ نَعْلَمُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا» (٣).

١٠- لقد احاط الحق سبحانه وتعالى الذات الانسانية بقدسية هائلة إذ حرم قتلها الا بالحق. ومن يقترب قتل نفس بغير حق متعبدا فلن يقبل منه وسيكون من الخاسرين في اليوم الآخر.

١- سورة التوبة، آية ٢٣.

٢- سورة النور، آية ٢.

٣- سورة النساء، آية ٥٨.

قال تعالى:

«قُلْ تَعَالَوْا أَنِ اعْبُدُوا مَا هَرَمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَسْرَعُوا بِهِ شَيْئاً  
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ بَعْدَ تَرُفُّكُمْ وَبِأَنفُسِهِمْ وَلَا  
تَقْرَبُوا الْقَوَاسِئَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا يَخْفَى وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ  
اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ» (١).

١١- هناك نوعان من الناس. فالنوع الاول لا يريد الا الاهداف والامال والغايات  
المرتبطة فقط بالحياة الدنيا مبتعدين كل البعد عن الآخرة. اما النوع الثاني  
فانهم يطلبون الدنيا وما فيها من اهداف ومطبوعات وغايات في ضوء النهج  
الذي ارسله الحق سبحانه وتعالى ليفوزوا في امتحان الحياة الدنيا من اجل  
ارضاء الحق سبحانه وتعالى وتحقيق الفوز العظيم في اليوم الآخر في جنات  
النعيم التي اعدّها الله سبحانه وتعالى لعباده المتقين.

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ إِفْئَاءَنَا وَوَرَّضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا  
وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ\* أُولَئِكَ مَا وَاعَدَهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا  
يَكْسِبُونَ» (٢).

قال تعالى:

«وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ  
حَسَنَةً وَفِينَا عَذَابُ النَّارِ» (٣).

١٢- ان قدرات الانسان متفاوتة من فرد الى آخر ويطلب من كل فرد أن يقوم  
بالاعمال المناطة به حسب قدراته وملاقاته التي جسدها فيه الحق سبحانه  
وتعالى.

قال تعالى:

«لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ  
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَهْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إصْرًا كَمَا كُنَّا نَحْمِلُهُ  
عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ  
لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» (٤).

١- سورة الأنعام، آية ١٥١.

٢- سورة يونس، آية ٧-٨.

٣- سورة البقرة، آية ٢٠١.

٤- سورة البقرة، آية ٢٨٦.

١٣- ان كل انسان مسؤول عن جميع ما يصدر عنه من اعمال وافعال على المستويات كافة وفي جميع مجالات العمل في الحياة الدنيا. وسوف تحاسبه نفسه على ذلك يوم المثل امام الحق سبحانه وتعالى. لذلك فان الانسان المؤمن تكون عنده الرقابة داخلية أولا لانه يعلم علم اليقين انه اذا استطاع ان يخدع الناس الآخرين فإنه لن يستطيع ان يغير اي شيء قد تم تسجيله في كتاب اعماله وافعاله.

قال تعالى:  
«وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ فَاسِدًا فَاسِيًّا» (١).

١٤- ان القسم الأكبر من الناس لا يحبون الحق ولا الحقيقة وقد يبذلون قصارى جهدهم لطمس الحق ومقاومة اتباعه اينما ثقفوا.

قال تعالى:  
«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» (٢).

كما ان هذا النوع من البشر يتميز بقدرة الجدل للدلتاف على الحقائق والتخلص منها والتأمر على طمسها.

قال تعالى:  
«وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا» (٣).

١٥- ان طريق الصعود الى قمة القيم دون سائر الامم والاقوام الاخرى تكمن في الايمان بالله، والامر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فهذه السبيل تم توضيحها للانسان وما سلكته امة من الامم الا وتربعت على قمة الأخلاق، والامجاد والفضائل.

١- سورة الإسراء، آية ١٣-١٤.

٢- سورة الإسراء، آية ٨٩.

٣- سورة الكهف، آية ٥٤.

قال تعالى:

«كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولولا أمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون» (١).

### الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي

انطلاقاً من الحقائق الثابتة التي اطلع الحق سبحانه وتعالى الانسان عليها عن طريق كتبه ورسله والتي اشرنا اليها في الصفحات السابقة فان الاسلوب الاداري في ضوء تلك الحقائق يختلف عن الاساليب التي اختارها الانسان في ضوء الفرضيات التي ابتداعها. وهذا الاختلاف يمتد الى اساسيتين هامتين. اولهما الاختلاف حول الاهداف التي يسعى اليها كل اسلوب. ففي الوقت الذي تسعى فيه الأساليب الإدارية التي شيدت على فرضيات إنسانية إلى السيطرة على الانسان وإثارة حوافزه نحو الإنتاج لزيادة الكسب المادي، فان الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي يسعى الى تحقيق اهداف تتعلق بوجود الانسان ومستقبله في هذا الوجود حيث يتم التركيز على جوانب الخير في الانسان، وتوضيح معالم الحق له عن طريق الحكمة والوعظة الحسنة. هذا بجانب إثارة جميع دوافع الحب والإيثار والتضيعة والصدق والإخلاص والتعاون في ذات الإنسان لكي يطلب الدنيا وما فيها من اهداف وغايات لتقربه الى الفوز العظيم في اليوم الآخر. اشف الى ذلك الهدف النبيل الذي ينشده اتباع هذا الاسلوب الاداري وهو محاولة توضيح رسالة الحق سبحانه وتعالى الى عباده لكي يتساووا جميعاً امام التشريع الإلهي دون تمييز على المستوى الدنيوي والفوز العظيم في اليوم الآخر. ان هذا الشعور النبيل الذي يحمله الانسان تجاه اخيه الانسان هو الذي يجب ان يسود بين الناس اذا ما ارادت البشرية ان تخرج من جحيم الدنيا الى نعيمها، ومن عذاب الآخرة الى نعيمها. ولكن هيهات ان يفهم الغافلون من الانس هذا الشعور الذي تكنه النفوس لهم. اما الاساسية الثانية فتبدو واضحة جلية في اختلاف القواعد الاساسية لكلا الاسلوبين.

ان الاسلوب الاداري في ضوء الفكر الاسلامي يتميز بعدة صفات مستمدة بشكل مباشر من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة وهي على النحو التالي:

١ - اقامة دعائم العدل وممارسته في شتى المؤسسات والامور الحياتية وفق التشريع

١ - سورة آل عمران، آية ١١٠.

الالهي بين الناس كافة على اختلاف مذاهبهم، والوانهم، واجناسهم، وقومياتهم، وغاياتهم.

قال تعالى:

«إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعماً يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً» (١).

وقد اشار صلوات الله عليه وسلامه الى هذه الاساسية بكل وضوح حيث قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٢).

٢- تقديم رسالة الحق الى الناس عن طريق الحكمة، والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن لإقناعهم في التركيز على الخير في انفسهم أولاً وفي الوجود ثانياً مبتعدين كل البعد عن جانب الشر سواء في نفوسهم أم في الحياة الدنيا.

قال تعالى:

«أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين» (٣).

٢- اللين ورقة التعامل مع الآخرين والابتعاد عن الغلظة والقسوة في شتى انواع التعامل الاجتماعي سواء أكان داخل المؤسسات أم خارجها.

قال تعالى:

«فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين» (٤)

قال تعالى:

«واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين» (٥).

١ - سورة النساء، آية ٥٨.

٢ - البخاري، كتاب الحدود.

٣ - النحل، آية ١٢٥.

٤ - سورة آل عمران، آية ١٥٩.

٥ - سورة الشعراء، آية ٢١٥.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بحسب امرئ من الشر ان يحقر أخاه المسلم» (١)

٤- الرقابة الذاتية في انجاز العمل واتقانه عند العاملين كافة سواء أكانوا في موضع القيادة أم في منزلة التبعية انطلاقاً من فهمهم الدقيق لقدرة الحق سبحانه وتعالى على مراقبتهم في جميع ما يظهرون وجميع ما يبطنون. هذا بجانب رغبتهم في ثواب الحق سبحانه وتعالى في اليوم الآخر على انجازهم لأعمالهم بالصورة الدقيقة بما يتناسب مع قدراتهم ومطامعتهم.

قال تعالى:

«وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ مَّعَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا» (٢)

قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا» (٣)

هـ- ان شعار الامر بالمعروف والنهي عن المنكر من ابرز سمات هذا الاسلوب إذ ان الافراد كافة على اختلاف مواقعهم الوظيفية مطالبون بممارسة هذا الشعار لواد العش، والخداع، والكذب، والاستغلال منذ اللحظات الاولى سواء في المؤسسات التربوية، او المؤسسات الاقتصادية، او المؤسسات الاجتماعية.

قال تعالى:

«كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» (٤)

قال تعالى:

«وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ» (٥)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الايمان» (٦)

١- متفق عليه.

٢- سورة يونس، آية ٦١.

٣- سورة الكهف، آية ٢٠.

٤- سورة آل عمران، آية ١١٠.

٥- سورة التوبة، آية ٧١.

٦- رواه مسلم.



٦- يعد التعاون والتواد، والتراحم، والحب شعارا لكل فرد نحو الافراد الآخرين سواء أكانوا في موضع القيادة أم كانوا في موقع التبعية. وهذا جميعه يؤدي إلى خلق جو اجتماعي متميز داخل المؤسسات وخارجها مما يزيد الإنتاج في جميع أعمال الخير.

قال تعالى:

«معه رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رهماء بينهم» (١)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويكره له ما يكره لنفسه» (٢)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (٣)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنصر أخاك ظالما أو مظلوما، وقد سنل عليه الصلابة والسلام عن كيفية نصره وهو ظالم، فقال تأخذ فوق يديه وتبنيه عن الظلم فذلك نصر لك» (٤)

٧- الشورى فى اتخاذ القرارات التي لم يوجد فيها نص أو حديث نبوي شريف. وتجري عملية الشورى ضمن إطار الأفراد الذين سوف يتخذون قرارا معيناً في موضوع يتعلق بهم دون غيرهم. لذلك فإن عملية الشورى في أي مؤسسة تربوية تقتصر فقط على الأفراد المعنيين بتلك المؤسسة، وكذلك يجري الأمر بالنسبة للقرارات الأخرى المتعلقة بشؤون أخرى لم يوجد فيها آيات قرآنية أو سنة نبوية مطهرة.

قال تعالى:

«والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون» (٥)

١- سورة النح، آية ٢٩.

٢- متفق عليه.

٣- متفق عليه.

٤- متفق عليه.

٥- سورة الشورى، آية ٣٨.

يقول إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام سألت يوماً رسول الله صلى الله عليه وسلم، لو وقع لنا بعدك ما لم نجد له حكماً في القرآن أو نسمع منك فيه شيئاً فماذا نفعل؟ فقال صلوات الله عليه وسلامه: «اجمعوا العابدين من أمتي واجعلوه بينكم شورى ولا تقضوا برأي واحد» (١)

٨- أن يعفو عن الأفراد العاملين فيما يرجع إلى شخصه ولا ينتقم منهم لنفسه، وأن يقوم بتطبيق العرف فيما بينهم بما يتفق مع الشرع الإسلامي، هذا بجانب اعراضه عن الجاهل منهم وأن يأخذه بالمدارة لإبطال نتائج جهله وتقليل فساد أعماله. بمعنى لا ينظر إلى المؤسسة وما فيها من خلل شخصه، وأهدافه، ورغباته. كما ألف الناس في هذه الأيام. ان جميع الأمور تجري وفق ما يرغب فيه المسؤول أو يرغب عنه.

قال تعالى:

«هُذِّ الْعَفْوَ وَأَنْكَرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ» (٢)

٩- الحزم والشدة وعدم الرأفة عند إيقاع القصاص على الذين يجتازون الحدود التي بينها الحق سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم وفق القصاص الذي أقره الباري عز وجل لكل حد من الحدود.

قال تعالى:

«الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ» (٣)

١٠- وضع الإنسان في مكانه المناسب بما يتناسب مع قدراته ومؤهلاته دون تمييز أو هضم لحقوق الأفراد على اختلاف مواقعهم على الهرم الإداري للدولة.

قال تعالى:

«إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْقَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً» (٤)

١- تفسير روح المعاني، جزء ٢٥، ص ٤٢.

٢- سورة الأعراف، آية ١٩٩.

٣- سورة النور، آية ٢.

٤- سورة النساء، آية ٥٨.

### نتائج الدراسة:

لقد تبين معنا من خلال عرض النظريات الإدارية وأساليبها التي ابتدعتها الإنسان في ضوء افتراضات معينة تم صياغتها في ضوء فهم الإنسان لطبيعة ذاته ومكانتها في الكون بجانب رؤيته المحدودة للوجود الذي تمخض عنه فهم خاطئ لحقيقة الحياة الدنيا. لذلك جاءت هذه النظريات وأنماطها الإدارية لتتركز على السيطرة على الإنسان وتوجيهه نحو زيادة الإنتاج بهدف زيادة الكسب المادي. كما تم التعامل مع الإنسان في شتى أمور من خلال النظرة المادية فقط والمرتبطة بالحياة الدنيا.

أما بالنسبة إلى الإدارة في ضوء الفكر الإسلامي وأسلوبها الإداري فإن الحقائق التي اطلعنا عليها الحق سبحانه وتعالى عن طريق كتبه ورسله شكلت قاعدة الانطلاق للإدارة وأسلوبها الفريد، لذلك فالإدارة في ضوء الفكر الإسلامي تهدف إلى تبصير الإنسان بحقيقته، وحقيقة وجوده في هذا الكون، ومكانته في هذا الوجود، وحقيقة الحياة الدنيا، وتوضيح حقيقة عدوه إبليس الذي يتوعد على مدار الساعة لآخراجه عن طريق الحق. كما تهدف الإدارة إلى التركيز على جانب الخير في الحياة الدنيا للفوز في اليوم الآخر. لذلك فإن تحقيق الأهداف والغايات الإنسانية في الحياة الدنيا تكون وفق هذا النهج وفي ضوء هذه الإدارة سبيلا للوصول إلى الغاية الكبرى وهي الفوز برضا الحق سبحانه وتعالى ونيل جنته.

فمن الطبيعي أن ند أن نجد أساسيات الأسلوب الإداري في ضوء الفكر الإسلامي واضحة ماطعة في كتاب ابن الإسلام وفارسه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام الذي أرسله إلى أحد ولاته مالك الأشتر حيث يقول فيه «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أمر به عبد الله علي أمير المؤمنين مالك بن الحارث الأشتر في عهده إليه حين ولاء مصر.... أمره بتقوى الله وإيثار طاعته، واتباع ما أمر به في كتابه.... وأمره أن يكسر نفسه من الشهوات ويزعها عن الجبهات فإن النفس أمارة بالسوء إلا ما رحم الله.... فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح. فاملك هواك وشح بنفسك عما لا يحل لك، فإن الشح بالنفس الانصاف منها فيما أحببت أو كرهت. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم والطف بهم.... فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك والله فوق من ولاك.... ولا تندمن على عفو ولا تبجحن

بعقوبة، إياك ومساماة الله في عظمتته والتشبه به في جبروته، فإن الله يذل كل جبار ويهين كل مختال.... ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده، ومن خاصمه الله أدهض حاجته، وكان لله حرباً حتى ينزع ويتوب. وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله وتمجيد نعمته من إقامة على ظلم، فإن الله سبيح دعوة المظلمين وهو للظالمين بالمرصاد. وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق وأعبرها في العدل، وأجمعها لرضى الرعية.... وليكن أبعد رعيته منك وأشنؤهم عندك أطلبهم لمعانب الناس، فإن في الناس عيوباً الوالي أحق من سترها. فلا تكشف عن غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك. والله يحكم على ما غاب عنك.... ولا تدخل في مشورتك بخيال يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور، فإن البخل والجبن والحرس غرائز شتى، يجمعها سوء الظن بالله.... والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يطروك، ولا يجحوك بباطل لم تفعله، فإن كثرة الإطراء تحدث الزهو وتدني من العزة. ولا يكون المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن في ذلك تزييداً لأهل الإحسان في الإحسان، وتديباً لأهل الإساءة على الإساءة.... ولا تنقض سنة سالحة عمل بها صدور هذه الأمة، واجتمعت بها الألفة وصلحت عليها الرعية.... وأكثر مدارس العلماء ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك وإقامة ما استقام به الناس قبلك.... قول من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولإمامك وأنقامهم جيباً وأفضلهم حلماً ممن يبطل عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء وينبو على الأقوياء. ممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف.... ثم تفقد من أمورهم ما يتفقدونه الوالدان من ولدهما.... وأن أفضل قرّة عين الولاية استقامة العدل في البلاد، وظهور مودة الرعية. وإنه لا تظهر مودتهم إلا بسلامة صدورهم.... ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيته في نفسك ممن لا تضيق به الأمور، ولا تمحكه الخصوم، ولا يتماذى في الذلة ولا يحصر من الفيء إلى الحق إذا عرفه، ولا تشرف نفسه على طمع، ولا يكتفي بأدنى فهم دون أقصاه، وأوقفهم في الشبهات، وأخذهم بالحجج، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم، وأصبرهم على كشف الأمور، وأصرهم عند انضاح الحكم، ممن لا يزيه إطراء، ولا يستميله اغراء، وأولئك قليل. وأفسح له في البذل ما يزيل غلته، وتقل معه حاجته إلى الناس، واعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك، ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك.... ثم أنظر في أمور عمالك فاستعملهم اختباراً، ولا تتولهم محاباة وأثرة.... فامنع من الاحتكار فإن

رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه ، وليكن البيع بيعا سمحا، بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين البائع والمبتاع... ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤس والزمنى، فإن في هذه الطبقة قانعا ومعتزا، واحفظ لله ما استحفظك من حقه فيهم، واجعل لذوي الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك، وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذي خلقك، وتقعده عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشرمك، حتى يكلمك متكلمهم غير متنتع، فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول « لن تقدر أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوي غير متنتع » (١)

وخلاصة القول أود أن أنوه بحقيقة هامة مفادها أن النظريات الإدارية وأساليبها التي ابتكرها الإنسان يمكن أن تكون باهرة من حيث تأديتها للغايات المرجوة، ولكن مع أناس يؤمنون بنفس الأطر الفكرية والفلسفية التي شيدت في ضوئها تلك النظريات والأساليب. وقد تكون فاشلة تماما إذا ما تم ممارستها وتطبيقها على أناس يؤمنون ويسلكون في ضوء مدرسة فكرية تختلف مع المدرسة التي شيدت في ضوئها تلك النظريات والأساليب فعلى سبيل المثال نجد أن شتى النظريات الإدارية وأساليبها المتعددة تجيز إرسال الأفراد إلى جبهات القتال بالاكراه إذا رفضوا ذلك بحجة الدفاع عن الوطن. ولكننا نجد في المقابل أن الإدارة في ضوء الفكر الإسلامى لا تسمح بهذا الاكراه على الاطلاق. كما أنني أود أن أسوق مثلا آخر لأبين التمايز الساطع بين كلا النوعين من الإدارة يتعلق في إثارة الحوافز عند الأفراد. عندما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم تجهز الجيوش لغزو المدينة. أمر بتجهيز جيش لغزو العدو المتمركز في شمال الجزيرة العربية في سنة تعد من السنين القاسية من الناحية الاقتصادية. لذلك سمي الجيش بجيش العسرة، بينما الطرف المقابل يمتلك شتى الامكانيات المادية والعسكرية، وقد تخلف عن نداء الرسول صلى الله عليه وسلم المنافقون بعد أن اختلقوا أعذار صدقهم بها رسول الله. وبعد أن جهز الجيش صلوات الله وسلامه عليه اعتذر لنفر من المسلمين لعدم توفر امكانية اصطحابهم معه في الجيش، فما كان منهم الا أن ألحوا عليه في الطلب، فلما تبينوا أنه لا مجال لهم للذهاب إلى لقاء العدو الذي يفوقهم بالعدد والعدة فاضت أعينهم من الدمع حزنا على عدم الذهاب إلى القتال.

١- نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده، الجزء الثالث، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٨٢-١١١.

قال تعالى:

«وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ» (١)

ترى كيف يمكن أن نفهم عملية استثارة الحوافز عند هذا النفر من المسلمين في ضوء النظريات الإدارية أو نظريات التعلم في إثارة الحوافز في نفوس الأفراد التي ابتكرها الإنسان الحديث المعاصر؟ انه لمن الاستحالة أن نجد تفسيراً أو جواباً شافياً إلا في الحقائق الفكرية للمدرسة التي ينتمي إليها هذا النفر من الناس. ترى هل الإنسان المعاصر سيحاول جاداً تطبيق هذا النمط الإداري؟

١ - سورة التوبة، آية ٩٢.

## المراجع العربية

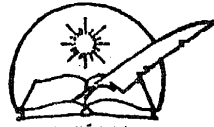
- ١- القرآن الكريم
- ٢- الدكتور أنور محمد الشرقاوي ، التعلم نظريات وتطبيقات، دار البحوث العلمية ، الكويت، ١٩٨٧.
- ٣- أحمد حسين يعقوب، النظام السياسي في الإسلام، عمان، ١٩٩٠.
- ٤- البخاري، كتاب الحدود.
- ٥- تفسير روح المعاني، جزء ٢٥.
- ٦- تيسير الدويك وآخرون، أسس الإدارة التربوية، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان.
- ٧- الدكتور حسن الحيارى، التصور الإسلامي للوجود، دار البشير، عمان، ١٩٨٩.
- ٨- الدكتور عبد الرحمن الضحيان، الإدارة في الاسلام، دار الشروق، جدة، ١٩٨٦.
- ٩- عبد الله الدينوري الامامة والسياسة، دار المعرفة، لبنان.
- ١٠- عثمان خيرى، الإدارة بالأهداف، القاهرة، المنظمة العربية للعلوم الإدارية، منشور رقم ١٧٣ سنة ١٩٧٥.
- ١١- الدكتور محمد التيجاني، فاسألوا أهل الذكر، مؤسسة الفجر، لندن، ١٩٩١.
- ١٢- محمد علي حلاوي، مصطلحات إدارية مختارة، بغداد: مطبعة العاني، ١٩٧٦.
- ١٣- الدكتور مهدي حسن والدكتور محمد قاسم، مبادئ الإدارة: نظريات ووظائف، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان، الأردن، ١٩٨٤.
- ١٤- نهج البلاغة، شرح الأستاذ الشيخ محمد عبده، الجزء الرابع، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ١٥- الدكتور يوسف قطامي، سيكولوجية التعلم والتعليم الصفي، دار الشروق، عمان، ١٩٨٩.

## المراجع الانجليزية

- (1) Abraham H. Maslow, Motivation and Personality (New york. Harper and Row, 1954).
- (2) Andrew D. Szilagyi, etil., Organizational behavior, and Performance, (2nd ed.) Santa Monica, California, 1980.
- (3) Clayton P. Alderfer, Existence, Relatedness, and Growth (new york: Free Press, 1972).
- (4) Douglas McGregor, The Human side of Enterprise new york: McGraw\_ Hill, 1960).
- (5) Frederik W. Taylor, Scientific Management (new York: Harper and Row, 1911).
- (6) Herzberg, B. Mausner, and B. Snyderman, The Motivation to work, (2nd ed.) New york: Wiley, 1959.
- (7) James G. March and Herbert A. Simon . Organizations. New york: John Wiley and Sons , Inc, 1958.
- (8) J. Stacy Adams, « Toward an Understanding of Inequity », Journal of Abnormal and Social psychology, November 1963.
- (9) Keith Davis, Human Behavior at work. 4th ed. san Francisco: McGraw\_ Hill Book company . 1972.
- (10) Lawrence A. pervin. Personality : theory and research. 4rth edition, New york, john wiley and sons, Inc, 1984.
- (11) Leonc, etal, Management concepts and Applications . Harper and Row, U.S.A. 1983.



- (12) Paul Hersy, et al., Management of Organizational Behavior,  
(Fourth ed). Englewood Cliffs, N. J 1982.
- (13) Richard A. Johnson, The Theory and Management of system,  
N.Y.: Mc Graw- Hill Inc, 1973.
- (14) Stephen J. Knezevich, Administration of Public Education,  
(3rd ed.) U.S.A. 1975.



كائنات

*Al - Amal Bookshop*

هاتف ٢٧٦١٧٤ - ص.ب ٤٦٩ ت  
شارع شفيق الرشيدات - إربيد - الأردن

وإذا ما أزدت علماً زادني علماً بجهلي